چان بول سارتر

الكلمات

ترجمة: محمد مندور

تقديم: خليل صابات



ميراث الترجمة

244

إن "كلمات" سارتر- المؤلف المسرحى والروائى والفيلسوف - شأنها شأن اعترافات "روسو" و"أوغسطين" تتجاوز وجهتها وموضوعاتها لتصبح مرآة تفكير عصر وسجل مواجهة الإنسان الأبدية لظروف وجوده. إن "الكلمات" قصة تبحث عن أصل "الأنا" وحلم الماضى ومذكرات شخصية قاسية تقف على القطب الآخر للفلسفة الصورية.

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن

الكلمـــات

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2443
- الكلمات
- جان بول سارتر
- خليل صابات
- محمد مندور
- 2015

هذه ترجمة كتاب:
Les Mots
Par: Jean-Paul Sartre

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الكلمات

تأليف : جان بول سارتر
تقديم : خليل صابات
ترجمة : محمد مندور



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سارتر ، جان بول ، ١٩٥
الكلمات / تأليف : جان بول سارتر؛ ترجمة: خليل صابات؛
مراجعة: محمد مندور - ٢٢٨ ص ؛ ٢٠ سم
القاهرة - المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٥
١ - الوجودية
(أ) صابات، خليل (مترجم)
(ب) مندور، محمد (مراجع)
(ج) العنوان ١٤٢،٧

رقم الإيداع ٢٥٥٩٧ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى 978-977-92-0021-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

مقدمة المترجم

لا يمكن أن نفهم « الكلمات » الفهم الصحيح لها دون أن نستعرض في شىء من التمهل حياة مؤلفها وأعماله . إن جان بول سارتر يعتبر رأس الفلسفة الوجودية والداعى لها فى المجالس التى يعقدها فى المقاهى الأدبية وأقبية حى سان جرمان دى بريه بباريس ؛ ويراه بعض الناس شخصية سياسية تدعو إلى كتابة المنشورات وتحرر فى مجلة يسارية وتشترك فى الاجتماعات السياسية ونحوها . ويحكم عليه آخرون بأنه فيلسوف يتأمل فى سكون غرفة فندق . تلك هى الوجوه الثلاثة لجان بول سارتر الروائى والمؤلف المسرحى وكاتب المقالات الأدبية الذى اعتذر عن قبول جائزة نوبل فى الأدب وأثار اعتذاره مختلف التعليقات لا فى الأوساط الأدبية الفرنسية فحسب ، بل فى العالم أجمع .

ولد سارتر فى باريس خلال شهر يونية من سنة ١٩٠٥ وكان أبوه ضابطاً فى البحرية الفرنسية ، أما أمه آن مارى شوايتزر ، فقد كان عمها الدكتور البير شوايتزر الطبيب الشهير الذى نال هو الآخر جائزة نوبل . وفقد جان بول أباه وهو فى الثانية من عمره فعاش مع أمه عند جده .

ويقول الحفيد عن هذا الجد فى الكتاب الذى نقدم له بأنه دفعه إلى اعتبار الشىء المكتوب أكثر واقعية وأهم من الشىء الذى نعيشه ونحياه . ومنذ السادسة من عمره كان جان بول سارتر يكتب الروايات .

« لحاجتى إلى أن أبرر وجودى جعلت من الأدب مطلقا . وكان لابد لى من ثلاثين سنة كى أتخلص من هذه الحالة الذهنية » .

وبعد أن درس سارتر فى ليسيه لاروشيل ثم فى ليسيه هنرى الرابع التحق بمدرسة المعلمين العليا وهو فى التاسعة عشرة من عمره . وبعد ثلاث سنوات من الدراسة نجح فى « اجريجاسيون » الفلسفة » ، وكان الأول على أقرانه . وفى هذه الأثناء بدأ يهتم مع مجموعة صغيرة من زملاء الدراسة بفلسفة الوجود التى كان يدعو إليها الفيلسوف الألمانى مارتن هيدجر خليفة الفيلسوف الدنمركى كيركجارد . وعين سارتر مدرساً فى الهافر التى اتخذها أطاراً لروايته « الغثيان » ، ثم انتقل إلى لاون . وقضى سنة فى المعهد الفرنسى ببرلين حيث التقى بالفيلسوف ادموند هوسرل مؤسس فلسفة الظواهر . وقد تأثر سارتر بهذه الفلسفة فى كتابه « الوجود والعدم » الذى ظهر فى سنة ١٩٤٣ . غير أن الجمهور لم يكتشف الناحية المثيرة من مذهبه بعد الحرب ، أى « الوجودية » ، إلا فى مؤلفاته الروائية .

فبعد « الغثيان » يقدم سارتر « الحائط » ، ثم ثلاثية « طرق الحرية » التى ظلت ناقصة . لقد أعلن سارتر عن قرب ظهور الجزء الرابع من هذا الكتاب ولكنه لم يظهر أبداً ؟ والواقع أن كاتبنا « التزم » أكثر فأكثر العمل السياسى . فقد حاول أن يؤسس أثناء احتلال الألمان لفرنسا جماعة « الاشتراكية والحرية » ، ولكنه لما كان « ماركسيا إنسانيا » فسرعان ما وقف يعارض الحزب الشيوعى ويتهمه بأنه يمارس « ماركسية

جامدة » . وحمى وطيس الجدال واحتل مكانا رحباً من مجلة « الأزمنة الحديثة » التى أنشأها أديبنا الفيلسوف فى سنة ١٩٤٦ مع لفيف من أصدقائه نذكر منهم الفيلسوف موريس مرلو بونتى والبير كامو الذى لم يلبث أن اختلف معه وانفصل عنه .

ويعتبر سارتر ، المسرح منبراً دائما لعرض آرائه . فبعد « الذباب » و « الجلسة السرية » التى أخرجها للمسرح ألبير كامو ، قدم « المومس الفاضلة » و « الأيدى القذرة » وكانت التمثيلية الأخيرة تنديداً بالوسائل الستالينية وقد أثارت بطبيعة الحال جدلا عنيفا . وألف بعد ذلك « الشيطان والله » و « كين » وقد اقتبس التمثيلية الأخيرة اقتباسا حراً عن اسكندر دوماس الأب وآخر مسرحياته « سجناء التونة » .

إن سارتر يخوض معركة رهيبة من أجل الوضوح والحرية وهما ، فى نظامه ، الصفتان اللتان لابد منهما لحياة الإنسان . وفى رأيه أن الإنسانية تتكون من فئتين : « الصاحون » الذين اختاروا وهم يعلمون ماذا يفعلون و « القذرون » الذين لا يريدون أن يختاروا أو الذين يختارون وهم يكذبون على أنفسهم .

ولكن إذا أردنا أن نكون أحراراً فلا بد لنا أيضا من أن نريد أن يكون الآخرون أحراراً .

لقد أدى هذا الرأى الجديد إلى مجادلات لاحد لها . وقد حاول سارتر أن يؤسس حزبا سياسيا أطلق عليه « المنظمة الديمقراطية الثورية » كما حمل حملات شعواء على الاستعمار وأيد ثورة فيدل كاسترو واستقلال الجزائر

إن سارتر بصدد نشر مجموعة جديدة من « المواقف » وهى عبارة عن عدد من المقالات والموضوعات والمقدمات التى كتبها بين سنة ١٩٥٤ و ١٩٦٣ وكلها تعالج الاستعمار والاستعمار الجديد وتبرهن على أن مؤلف « الكلمات » لم يعدل عن الكفاح السياسى .

إن « كلمات » سارتر شأنها فى ذلك شأن « اعترافات » جان جاك روسو أو القديس أوغسطينوس تتجاوز وجهتها وموضوعها لتصبح مرآة تفكير عصر وسجل مواجهة الإنسان الأبدية لظروف وجوده . إن « الكلمات » قصة تبحث عن أصل « الأنا » وحلم الماضى ومذكرات شخصية قاسية تقف على القطب الآخر للفلسفة الصورية . إن الفلسفة والأدب كلاهما نوع من الكذب أو بالأحرى اقتراب من الواقع ؛ على حد تعبيره فى « الكلمات » الذى كتبه فى التاسعة والخمسين من عمره .

خليل صابات

القسم الاول

القــــراءة

فى مقاطعة الألزاس ، حوالى سنة ١٨٥٠ ، قبل معلم مرهق بالأطفال أن يعمل بدالا . وقد أراد هذا المرتد تعويضاً . فبما أنه تخلى عن تكوين العقول ، فليتول أحد أبنائه تكوين النفوس ، لسوف يكون فى الأسرة راع[1] ، هو شارل . ولكن شارل تهرب ، وفضل أن يقطع الطرقات فى إثر سائسة تعمل فى سيرك . فأديرت صورته إلى الحائط ومنع النطق باسمه . على من الدور إذن ؟ لقد أسرع أوغست إلى تقليد تضحية أبيه . فدخل التجارة وسكن إليها . لم يبق إلا لويس الذى لم يكن لديه أى استعداد محدد : لقد استولى الأب على هذا الصبي الهادىء وجعله راعياً فى غمضة عين وبلغت الطاعة بلويس بعد ذلك حداً جعله ينجب بدوره راعيا ، هو البير شوايتزر الذى نعرف مهنته [2] . غير أن شارل لم يعثر على سائسته ، لقد أثر سلوك أبيه الجميل فيه : فاحتفظ طول حياته بطعم الرفعة وبذل جهده فى صنع ظروف عظيمة بأحداث صغيرة . ولم يكن يفكر ، كما نرى فى التملص من الميل العائلي : فقد كان يتمنى أن يهب نفسه لشكل مخفف من الروحانية ، لكهنوت يسمح له بالسائسات .

ووجد غايته فى العمل كأستاذ . وفضل شارل أن يعلم الألمانية .

---

(١) قسيس بروتستانتى (المترجم) .

(٢) هو الطبيب الفرنسى الذى أسس فى الجابون مستشفى لعلاج الجذام ونال جائزة نوبل للسلام (المترجم) .

وناقش رسالة عن هانس ساكس [١] واختار المنهج المباشر الذى ادعى بعد ذلك أنه مبتكره ، ونشر بالاشتراك مع م . سيمونو « المطالعة الألمانية » التى نالت تقديراً ، وتقدم بسرعة : وانتقل من ماكون إلى ليون فباريس ، وفى هذه المدينة الأخيرة ، ألقى فى حفل توزيع الجوائز خطابا استحق شرف طبعه فى طبعة خاصة وفيه يقول : « سيدى الوزير ، سيداتى ، سادتى ، أولادى الأعزاء ، لن تحزروا قط عما سأتحدث إليكم اليوم ! سأتحدث عن الموسيقى ! » وكان يدع فى الأشعار التى تلقى فى المناسبات . وتعود أن يقول فى اجتماعات الأسرة : « أن لويس هو الأتقى وأوغست الأغنى وأنا الأذكى . » وكان الاخوان يضحكان وكانت الزوجتان تزمان شفتيها . وفى ماكون كان شارل شوايتزر قد تزوج بلويز جيمان ابنة وكيل دعاوى كاثوليكى . وكرهت العروس شهر عسلها : فقد اختطفها قبل نهاية الطعام وألقى بها فى قطار . وفى سن السبعين كانت لويز لا تزال تتحدث عن سلطة الكراث التى قدمت لها فى مقصف إحدى المحطات قائلة : « كان يأخذ الأبيض كله ويترك لى الأخضر . » لقد أمضيا خمسة عشر يوما فى الألزاس دون أن يتركا المائدة ؛ وكان الأخوان يتبادلان باللهجه الريفية قصصاً غير مهذبة ؛ وكان الراعى يلتفت إلى لويز بين آن وآخر ويترجمها لها على سبيل المحبة المسيحية . ولم تتوان فى الحصول على شهادات مجاملة أعفتها من الاتصال بزوجها وأعطتها حق أن يكون لكل منهما غرفته الخاصة ؛ كانت تتكلم عن صداعها ،

---

(١) شاعر ألمانى ولد فى نورمبرج سنة ١٤٩٤ وتوفى فى سنة ١٥٧٦ . ألف عدداً من التمثيليات ذات الموضوعات الدينية أو القديمة (المترجم) .

واعتادت ملازمة الفراش ، وبدأت تكره الضوضاء ، والهوى والحماس.
وكل حياة أسرة شويتزر الغليظة المفتعلة . إن هذه المرأة الحية والخبيثة بل
الباردة كانت تفكر تفكيراً مستقيما سيئا ، لأن زوجها كان يفكر جيداً
وبعوارية ؛ ولأنه كان كذابا وسريع التصديق ، كانت تشك فى كل شىء.
وتقول « إنهم يدعون أن الأرض تدور ؛ ما الذى يدريهم بذلك ؟ » ولما
كانت محاطة بممثلين فضلاء ، فقد كرهت التمثيل والفضيلة . إن هذه
الواقعية البالغة رقة ، التائهة وسط أسرة من الروحانيين الغلاظ ، اعتنقت
الفولتيرية تحديا دون أن تقرأ فولتير . وكانت ظريفة وسمينة وسفيهة
ومازحة فأصبحت السلبية البحتة ؛ فبرفع للحاجبين وبابتسامة غير محسوسة
كانت تسحق كل المواقف الكبيرة ، بنفسها وبدون أن يلحظ أحد . أن
كبرياءها السلبية وأنانية إبائها أفنياها . ولم تكن ترى أحدا ، فقد كان
تكبرها الزائد يمنعها من السعى للحصول على المكان الأول ، وكان
زهوها لايدعها ترضى بالمكان الثانى . وكانت تقول « تعلمى كيف تجعلينهم
يشتهونك . » لقد اشتهوها كثيراً ، ثم أخذ هذا الاشتهاء يقل شيئاً فشيئاً
وانتهى الأمر بنسيانها لقلة ما رؤيت . ولم تعد تغادر كرسيها أو فراشها
إلا قليلا . ولما كانت أسرة الشوايتزر من أتباع المذهبين الطبيعى
والبوريتانى [1] — وتآلف هذين المذهبين فى الفضائل أقل ندرة مما
نعتقد — فقد كان أفراد هذه الأسرة يحبون الألفاظ الفجة التى مع
تحقيرها الجسد من الوجهة المسيحية البحتة ، تعبر عن قبولها للوظائف.

---

(١) مذهب يتمسك أصحابه بحرفية ما جاء فى الكتاب المقدس ويتميزون بالصلابة . (المترجم)

الطبيعية ؛ وكانت لويز تحب الألفاظ المغطاة . وكانت تقرأ كثيراً من الروايات الخليعة التي كانت تقدر فيها شفافيتها المقنعة أكثر من تقديرها لحبكة أحداثها . وكانت تقول في لطف : « إنها جريئة ، ومكتوبة جيداً : مروا أيها الناس ولا تلحوا ! » واعتقدت هذه المرأة الناصعة البياض أنها ستموت من الضحك وهي تقرأ « فتاة من نار » لأدولف بيلو : وكانت تحب أن تحكي قصص ليالي الأعراس التي تنتهي دائماً نهاية سيئة : فتارة ترى الزوج ، في عجلته البهيمية ، يقصف رقبة زوجته على خشبة السرير وتارة يعثر على العروس الصغيرة في الصباح وقد لجأت فوق خزانة الملابس ، عارية ، ومجنونة : وكانت لويز تعيش على ضوء خافت ؛ وكان شارل يدخل عندها ويدفع مصاريع النوافذ ويضيء كل المصابيح ، وكانت تزفر وهي تضع يديها على عينيها قائلة : « إنك تعشيني يا شارل » ولكن مقاوماتها لم تكن تتعد حدود المعارضة الدستورية : فقد كان شارل يوحي إليها بالخوف ، وبازعاج مدهش وأحياناً أيضاً بالصداقة ، بشرط ألا يلمسها : وكانت تسلم له بكل شيء منذ أن يأخذ في الصياح : وأنجبت له أربعة أطفال دون توقع : بنت ماتت صغيرة وصبيان وبنت أخرى : وعن عدم مبالاة أو عن احترام سمح الزوج بأن يربي الأولاد وفق المذهب الكاثوليكي . ولما كانت لويز غير مؤمنة ، فقد جعلتهم يؤمنون بالكاثوليكية عن تقزز من العقيدة البروتستانتية : وأخذ الصبيان جانب أمهما ؛ فأبعدتهما رويداً عن هذا الأب الضخم ؛ ولم يلحظ شارل ذلك ودخل جورج الابن البكر مدرسة الهندسة : وأصبح الابن الثاني مدرساً للغة الألمانية ، وكانت الأم تقول عنه إنه يقلق بالي فأنا أعرف أنه ظل عزبا ولكنه كان يقلد أباه في كل شيء ، على الرغم من عدم حبه له ، وانتهى

الأمر باختلاف الأب مع الابن ، وحدثت مصالحات لا تنسى ، إن اميل كان يخفي حياته ، وكان يعبد أمه ، احتفظ حتى النهاية بعادة زيارتها زيارات سرية ، دون سابق اخطار ؛ وكان يعطرها بقبلاته وملاطفاته ثم يأخذ في الكلام عن أبيه بسخرية في أول الأمر ثم بغضب شديد ويتركها وهو يصفق الباب من خلفه . اعتقد أنها كانت تحبه ولكنه كان يخيفها : إن هذين الرجلين الغليظين والصعبين كانا يتعبانها وكانت تفضل عليهما جورج الذى كان غائبا باستمرار ، ومات اميل في سنة ١٩٢٧ ،وقد جن من الوحدة : ووجد تحت وسادته مسدس ؛ وفي حقائبه وجدت مائة زوج من الجوارب المثقوبة وعشرون زوجاً من الأحذية المكعوبة .

وقضت آن مارى ، الابنة الصغرى ، طفولتها على كرسى . لقد علموها الضجر وأن تقف وتقعد معتدلة ، كما علموها الخياطة . وكانت لها مواهب واعتقدوا أنه من اللباقة تركها على سجيتها ؛ وكانت فيها نضارة : ولكنهم عملوا على اخفائها عنها . إن هؤلاء البورجوازيين البسطاء والمتكبرين كانوا يجدون الجمال فوق إمكانياتهم أو دون وضعهم ؛ وكانوا يسمحون به للمركيزات والمومسات . كانت كبرياء لويز عقيمة للغاية : خوفا من أن ترمى بالبلاهة ، فقد كانت تنكر في أولادها وفي زوجها وفيها نفسها الصفات الواضحة كل الوضوح ؛ ولم يكن شارل يعرف كيف يتعرف على الجمال عند الآخرين : فكان يخلطه بالصحة : ومنذ مرض زوجته كان يجد سلواه في صحبة السيدات المثاليات المتوردات ذوات الشوارب الجيدات الصحة . وبعد مرور خمسين سنة ، لاحظت مارى ، وهى تتصفح سجل صور الأسرة ، أنها كانت جميلة .

وفى حوالى الوقت الذى التقى فيه شارل شوايتزر بلويز جيمان ، تزوج أحد أطباء الريف ابنة أحد أصحاب الأملاك الأغنياء من مقاطعة البريجور وأقام معها فى شارع تيفيه الكبير والحزين ، أمام الصيدلى . وغداة الزفاف اكتشف أن والد العروس لا يملك شيئاً . ومن الغيظ ، ظل الدكتور سارتر أربعين سنة لا يوجه الكلام إلى زوجته ، فعلى المائدة كانا يتحدثان بالإشارات ، وانتهى الأمر بأن أسمته « نزيلى » . وكان ، مع ذلك ، يشاركها فراشها ، وكان ينجب منها بين آن وآخر ، دون أن ينبس بكلمة : فقد أعطته ولدين وابنة ؛ وأطلق على أولاد الصمت هؤلاء جان باتيست وجوزيف وهيلين . وتزوجت هيلين متأخرة ، من أحد ضباط سلاح الفرسان الذى أصيب بعد ذلك بالجنون . وأدى جوزيف الخدمة العسكرية فى فرقة المشاة الجزائرية وعاد فى سن مبكرة إلى والديه . ولم يكن صاحب مهنة . ولما كان واقعاً بين بكم أبيه وصياح أمه فقد أصبح لجلاجا وقضى حياته يكافح الكلمات . وأراد جان باتيست أن يعد نفسه للمدرسة البحرية ليرى البحر . وفى سنة ١٩٠٤ ، وهو ضابط فى البحرية وقد وقع فريسة لحيات كوشاشين[١] ، تعرف فى شربورج على آن مارى شوايتزر واستحوذ على هذه الفتاة الكبيرة المقطوعة وتزوجها وأنجب منها بسرعة ولداً هو انا وحاول أن يلجأ إلى الموت .

إن الموت ليس سهلا : كانت الحمى المعوية ترتفع دون عجل بل وتتراجع

---

(١) أقليم فى فيتنام (المترجم)

أحيانا وكانت آن ماري تعنى به بتفان ، ولكن دون أن تصل بها الجرأة إلى حد الحب . لقد حذرته لويز من الحياة الزوجية : فبعد زفاف دام ، تتابعت التضحيات إلى ما لا نهاية تقطعها تفاهات ليلية . واقتداء بأمها فضلت أمي الواجب على اللذة . ولم تكن تعرف أبي كثيراً ، لا قبل الزواج ولا بعده . ولا بد أنها تساءلت أحيانا لماذا اختار هذا الغريب أن يموت على ذراعيها . لقد نقلوه إلى مزرعة على بضعة فراسخ من تيفيه ؛ وكان أبوه يأتى لزيارته يوميا على عربة صغيرة . وأنهك السهر والهموم آن ماري ، فجف لبنها ، وعهد بي إلى إحدى المرضعات غير البعيدة من هناك واجتهدت أنا أيضا في الموت : من إلتهاب الامعاء وربما من الغيظ . وفى العشرين من عمرها وبدون خبرة ولا نصائح ، كانت أمي تمزق نفسها بين محتضرين مجهولين ؛ إن زواج العقل الذى قبلته كان يجد حقيقته فى المرض والحزن وقد استفدت أنا من الموقف : ففى ذلك الوقت كانت الامهات يرضعن أطفالهن بانفسهن ولمدة طويلة ؛ ولولا هذا الاحتضار المزدوج لتعرضت لصعوبات الفطام المتأخر . ولما كنت مريضا ومفطوما بالقوة فى شهرى التاسع ، فإن الحمى والتهافت الجسمى منعانى من الشعور بآخر حز للمقص الذى يقطع الروابط بين الأم والولد ! لقد انغمست فى عالم مشوش ، تسكنه أوهام بسيطة وأصنام خشنة . وعند موت أبي استيقظت أنا وآن ماري من كابوس مشترك ؛ وشفيت . ولكننا وقعنا ضحية سوء تفاهم لقد عادت من حب إلى ابن لم تكن قد تخلت عنه قط تخليا حقيقيا واستعدت أنا وعيي على ركبتى سيدة غريبة .

ولما كانت آن ماري بلا مال ولا صنعة ، فقد قررت العودة لتعيش

فى بيت والديها . غير أن الموت الوقح الذى نزل بأبى أغم أسرة شوايتزر :
إنه يشبه كثيراً التطليق : ولأن أمى لم تعرف كيف تتوقعه ولا كيف تمنعه
فإنها اعتبرت مذنبة : وقد قبلت فى طيش زوجا لم يدم طويلا . وبالنسبة
لأريان (١) الطويلة التى عادت إلى مودون مع طفل على ذراعيها كان
الجميع متأزين : لجدى الذى كان قد طلب إحالته إلى المعاش استأنف العمل
دون كلمة عتاب ؛ وكان انتصار جدتى نفسها انتصاراً رزيناً . ولكن آن
مارى ، وقد جمدها عرفان الجميل ، كانت تتبين العتاب من خلال المعاملة
الطيبة : إن الأسر تفضل بالتأكيد الأرامل على البنات اللواتى ينجبن
سفاحاً ، ولكنه تفضيل قليل للغاية . ولكى تحصل على الغفران ، بذلت
نفسها دون حساب ، وأشرفت على منزل والديها ، فى مودون ثم فى باريس
وعملت مربية وممرضة ورئيسة خدم ومصاحبة وخادمة دون أن تتمكن من
تهدئة مضايقة أمها الصامتة . وكانت لويز ترى من الملل أن تعد قائمة
الطعام كل صباح والحساب كل مساء ولكنها كانت لا تحتمل أن يقوم
أحد غيرها بذلك ؛ وكانت لا تقبل أن تعفى من التزاماتها إلا فى غضب
خوفا من أن تحرم من امتيازاتها . إن هذه المرأة التى تتقدم فى السن والتى
لا تحترم آداب المجتمع لم يكن لديها إلا وهم واحد . فقد كانت تعتقد أنها
ضرورية . ولكن الوهم تبدد : وأخذت لويز تغار من ابنتها . يا لآن
مارى المسكينة : فهى إن اتخذت موقفاً سلبياً ، اتهمت بأنها عبء ؛
وإن اتخذت موقفاً إيجابيا ظن بها أنها تريد الهيمنة على المنزل . ولكى

---

(١) يشبه المؤلف أمه بأريان فى أساطير الأغريق التى هجرها تيزيه
(المترجم)

تتجنب العقبة الأولى احتاجت إلى كل شجاعتها ولتتجنب الثانية احتاجت إلى كل تواضعها . ولم تحتج الأرملة الشابة إلى وقت طويل لكى تعود قاصرة : عذراء دنسة . ولم يمنع عنها مصروفها الشخصى : ولكن كانوا ينسون أن يعطوها هذا المصروف ؛ لقد استعملت ملابسها كلها حتى بليت دون أن يفكر جدى فى تجديدها ، وبالكاد كانوا يجيزون لها الخروج وحدها . وحين كانت صديقاتها القديمات ، وأكثرهن متزوجات ، يدعونها إلى العشاء ، كان عليهن أن يطلبن الإذن قبل الموعد بوقت طويل وأن يعدن بإعادتها قبل العاشرة . وفى وسط الطعام ، كان رب البيت يقوم من المائدة ليصحبها بالعربة إلى منزلها . وفى هذه الأثناء ، كان جدى يذرع أرض حجرة نومه وهو بقميص النوم وساعته فى يده . وكان يرعد عندما تدق العاشرة آخر دقة وأخذت الدعوات تقل كثيراً وكرهت والدتى هذه اللذات الباهظة الثمن .

وكانت وفاة جان باتيست أكبر حدث فى حياتى إذا أعاد أمى إلى أغلالها ومنحنى الحرية .

لا يوجد أب طيب ، تلك هى القاعدة ؛ ويجب ألا نلوم الرجال على ذلك ، بل نلوم رباط الأبوة المتعفن . ليس هناك أحسن من إنجاب الأطفال : ولكن يا له من ظلم حين نرزق بهم ! ولو عاش أبى لرقد على بكل طوله ولسحقنى . وبالصدفة مات صغيرا ؛ وأنا فى وسط الأبناء الذين يحملون آباءهم ، أعبر من ضفة إلى أخرى بمفردى ، كارها هؤلاء الآباء المحتجبين الراكبين على ظهور أولادهم مدى الحياة ؛ لقد تركت خلفى شابا ميتا لم يعتد به الزمن ليكون أبى وكان من الممكن أن يصبح اليوم ابنى .

هل كان ذلك شراً أم خيراً ؟ لست أدرى ؛ ولكنى أنضم إلى حكم عالم نفسانى كبير : فليس عندى العقدة المسماة « الأنا العليا » .

لا يكفى أن نموت : لابد أن نموت فى وقتنا . لقد شعرت بعد ذلك بأنى مذنب ؛ إن اليتيم الواعى يلوم نفسه : إن والديه ، وقد أعشتهما رؤيته أنسحبا إلى جناحيهما فى السماء . أما أنا فكنت سعيداً : إن وضعى الحزين كان يفرض الاحترام ويؤسس أهميتى ؛ كنت أعتبر حزنى فى عداد فضائلى. كان أبى قد تلطف ومات بخطئه : وكانت جدتى تكرر أنه تملص من واجباته ؛ وجدى الفخور بطول عمر أسرة شوايتزر ، لم يكن يقبل أن يموت الانسان فى الثلاثين من عمره ؛ وعلى ضوء هذه الوفاة المشكوك فيها وصل إلى الشك فى وجود زوج ابنته فى وقت من الأوقات ونسيه لينتهى منه . ولم يكن علىّ حتى أن أنساه : فبانسحاب جان باتيست على الطريقة الإنجليزية ، حرمنى لذة التعرف به . ولا زلت حتى اليوم فى دهشة من القليل الذى أعرفه عنه . ومع ذلك فقد أحب وأراد أن يعيش ووجد نفسه يموت ؛ وهذا يكفى لصنع رجل مكتمل . ولكن لم يعرف أحد من عائلتى أن يثير فضولى عن هذا الرجل . فخلال عدة سنوات استطعت أن أرى فوق سريرى صورة ضابط صغير ذى عينين بريئتين ورأس مستدير أصلع وشارب كث : وعندما تزوجت أمى مرة ثانية اختفت الصورة .

وقد ورثت بعد ذلك كتبا كانت له : كتاب من تأليف لودانتك عن مستقبل العلم وكتاب آخر تأليف ويبر عنوانه: نحو الإيجابية بالمثالية المطلقة. وكانت قراءاته سيئة مثل جميع معاصريه . وقد اكتشفت على الهوامش

كتابات مكتوبة بخط ردىء لا يمكن قراءتها ، إنهـا علامات ميتة للمحة الهام كانت حية وراقصة حوالى مولدى . لقد بعث الـكتب : فهذا الراحل يخصنى قليلا - فقد عرفته بالسمع كما عرفت الرجل ذا القناع الحديدى [١] أو فارس أيون [٢] ، وما أعرفه عنه لا يتعلق بى قط : هل أحبنى ، هل ضمنى بين ذراعيه ، هل أدار نحو ابنه عينيه الفاتحتى اللون والثائرتين . الآن ، لا يذكر أحد شيئا من ذلك: إنه عذاب حب ضائع . إن هذا الأب لم يكن ظلا ولا نظرة : لقد وطئنا ، أنا وهو ، أرضا واحدة ، هـذا كل شىء . لقد أفهمونى أنى ابن المعجزة بدلا من أن أكون ابن ميت . ومن هنا تأتى بلا أدنى شك خفتى غير المعقولة . فأنا لست زعيما ولا أبتغى أن أصبحه . إن القيادة والطاعة شىء واحد . إن الأكثر تسلطا يأمر باسم آخر ، باسم طفيلى مقدس هو اسم الوالد . وينقل العنف المجرد الذى يتحمله . لم أعط فى حياتى أمراً دون أن أضحك ودون أن أضحك غيرى ؛ ذلك أن قرحة السلطة لا تعذبنى : كما أننى لم أتعلم الطاعة .

ومن أطيع ؟ إنهم يشيرون إلى عملاقة شابة ويقولون لى إنها أمى . ولو ترك الأمر لى ، لاعتبرتها شقيقتى الكبرى . إن هذه العذراء المحددة إقامتها والخاضعة للكل ، أرى جيداً أنها هنا لتخدمنى . إنى أحبهـا :

---

(١) رجل مجهول ألقوا به فى قلعة بنيرول فى سنة ١٦٧٩ ثم فى الباستيل حيث توفى سنة ١٧٠٣ . ولم تعرف شخصيته قط لأنه كان مضطراً أن يضع قناعا على وجهه . (المترجم)

(٢) هو الفارس شارل دى بومون ديون معتمد لويس الخامس عشر السياسى. ظهر فى بلاط القيصرة اليصابات فى ملابس امرأة فعينته « قارئتها » الخاصة . (المترجم)

ولكن كيف لى أن أحترمها ، ولا أحد يحترمها ؟ توجد ثلاث غرف فى منزلنا : غرفة جدى وغرفة جدتى وغرفة « الأولاد » . إن « الأولاد » هم نحن : فكلانا قاصر وكلانا معال . ولكن كل الرعاية كانت موجهة لى . ففى حجرتى وضعوا سرير فتاة . والفتاة تنام وحدها وتستيقظ بعفة ؛ وأكون نائما حين تهرع لتغتسل فى الطست فى الحمام ؛ وتعود مرتدية ملابسها كلها : كيف ولدت منها ؟ إنها تقص على مصائبها وأصغى إليها بشفقة . لقد وعدتها بأن أتزوجها فى المستقبل لأحميها : سوف أبسط يدى عليها وأضع أهميتى الشابة فى خدمتها . هل يعتقد أنى سأطيعها ؟ إنى أتكرم وأخضع لرجولتها . وهى على أى حال لا تعطنى أوامر : إنها ترسم بكلمات خفيفة مستقبلا تطلب منى أن أتفضل بتحقيقه فتقول : « إن صغيرى العزيز سوف يكون لطيفاً جداً ، وعاقلا جداً إنه سوف يدعنى بكل ظرافة أضع نقطا فى أنفه » . وكنت أنساق إلى فخ تنبؤاتها الناعمة .

يبقى البطريرك : إنه كان يشبه الله الأب إلى درجـــة كانت كثيراً ما تجعل الناس يظنونه هو . فقد دخل ذات يوم كنيسة من باب الهيكل ؛ وكان القسيس يهدد ضعاف الإيمان بصواعق السماء : « إن الله هنـا ! وهو يراكم ! » وفجأة اكتشف المؤمنون تحت المنبر عجوزا طويل القامة وملتحيا كان ينظر إليهم : ففروا هاربين . ومرات أخرى كان جدى يقول إنهم ألقوا بأنفسهم تحت أقدامه . وقد أحب التجليات . ففى شهر سبتمبر من سنة ١٩١٤ ظهر فى دار للسينما بمدينة أركاشون : وكنت مع أمى فى الشرفة ، حين طلب أن تضاء القاعة ، وكان رجال آخرون من حوله يقلدون الملائكة ويصيحون : « النصر ! النصر ! » وصعد الله على

المسرح وقرأ بلاغ المارن[١] . وحين كانت لحيته سوداء كان يمثل الرب وأشك فى أن أميل مات بسببه بطريقة غير مباشرة . إن إله الغضب هذا كان يتغذى على دم أبنائه . ولكنى ظهرت فى نهاية حياته الطويلة ، فقد ابيضت لحيته واصفرت من الدخان ولم تعد الأبوة تسلية . ومع ذلك ، فلو أنى كنت ابنه فإنى أعتقد جيداً أنه لم يكن يتوانى عن استعبادى بحكم العادة . وكان حظى أنى كنت ملكا لميت : ميت سكب بضع نقط من المنى ، هى الثمن العادى لطفل ؛ لقد كنت قبساً من الشمس وكان فى استطاعة جدى أن يتمتع بى دون أن يمتلكنى : كنت « أعجوبته » لأنه كان يتمنى أن ينهى أيامه شيخا مذهولا ؛ وقرر أن يعتبرنى منة فريدة من القدر ، هبة مجانية قابلة للالغاء دائما ؛ ما المفروض أن يتطلبه منى ؟ لقد كنت أغمره بوجودى وحده . كان إله الحب بلحية الأب وقلب الابن القدس ؛ كان يضع يديه على رأسى ، وكنت أشعر بحرارة راحتيه على جمجمتى، كان يسمينى صغيره الصغير بصوت يرتجف حناناً، وكانت الدموع تملأ عينيه الباردتين . وكان الكل يصيحون معترضين : « لقد أصابه الجنون هذا الشقى ! » كان يعبدنى ، وهذا أمر ظاهر . ولكن هل كان يحبنى ؟ فى مثل هذه العاطفة العامة ، يصعب على أن أميز بين الصدق والتصنع : ولا أعتقد أنه أبدى محبة كثيرة لأحفاده الآخرين ؛ صحيح أنه كان يراهم قليلا وأنهم لم يكونوا فى حاجة إليه . أما أنا فكنت أتبعه فى كل شىء : وكان يعبد فىّ كرمه .

---

(١) معركة من معارك الحرب العالمية الأولى (المترجم) .

والحقيقة أنه كان يبالغ فى السمو بعض الشىء : كان رجلا من القرن التاسع عشر وكان يعتقد فى نفسه ، ككثيرين غيره وكفكتور هوجو نفسه ، أنه فكتور هوجو . وإنى أعتبر هذا الرجل الوسيم ذا اللحية الطويلة ، وهو بين انقلابين جاثيين دائمين ، كالمدمن على الخمر النشوان، ضحية فنين اكتشفا أخيرا : فن الصور الفوتغرافى وفن كونه جداً . وكان من حسن طالعه وسوئه أن يبدو وسيما فى الصور الفوتوغرافية ؛ وكانت صوره تملأ المنزل : ولما كانوا لا يمارسون التصوير الفوزى ، فقد شغف بالأوضاع واللوحات الحية ؛ وكان يتخذ كل شىء حجة لتعليق حركاته ، ولتجميد نفسه فى وضع جميل ، ولتحجره ؛ كان مولعا بلحظات الخلود هذه حيث يصبح تمثال نفسه . ولم أحتفظ منه — بسبب شغفه باللوحات الحية — إلا بصور خيال ظل مشدودة : صورة فى الغابة ، حيث أجلس على جذع شجرة ، وكنت فى الخامسة من عمرى : وشارل شوايتزر يضع على رأسه قبعة بناما ويرتدى حلة من الصوف الفاتلة الطحينى الفاتح بخطوط سوداء وصديرية من نسيج القطن الأبيض تقطعها سلسلة ساعة ؛ وتتدلى نظارته الأنفية بطرف حبل ؛ ويميل إلى ، ويرفع إصبعا محلى بخاتم ذهبى ، ويتكلم . كل شىء معتم وكل شىء رطب ما عدا لحيته الشمسية : إنه يحمل هالته حول ذقنه . ولا أعرف ما يقوله : فقد كنت مشغولا بالاصغاء أكثر مما يجب كى أسمع . ويبدو لى أن هذا الجمهورى العجوز فى العهد الامبراطورى كان يعلمنى واجباتى المدنية ويحكى لى التاريخ البورجوازى ؛ فقد كانت هناك ملوك وأباطرة ، وكان هناك أيضا أشرار طردوا ، وكل شىء كان يسير على ما يرام . وفى المساء ، حين كنا نذهب

لانتظاره على الطريق ، كنا نعرفه بسرعة، بين زحمة المسافرين الخارجين من القطار ، بقامته الطويلة ، وعشيته التى تشبه مشية معلم الرقص . ومن أبعد مسافة يرانا منها كان يتخذ « موضعا » وكأنه يطيع أوامر مصور فوتوغرافى خفى : فلحيته فى الهواء ، وجسمه مستقيم وقدماه فى زاوية قائمة ، وصدره منتفخ وذراعاه مفتوحتان كثيراً ، وكنت عند هذه الإشارة أتوقف عن الحركة وأميل إلى الأمام ، فقد كنت العداء الذى يبدأ فى الانطلاق ، والعصفور الصغير الذى سيخرج من الجهاز ؛ كنا نمكث وجها لوجه بضع لحظات ، كمجموعة جميلة من خزف ساكس ، ثم أثب محملا بالفواكه والأزهار وبسعادة جدى وأصطدم بركبتيه وأنا أتصنع اللهث ، وكان يحملنى من الأرض ويرفعنى عاليا إلى أقصى ماتستطيع ذراعاه وينزلنى على صدره وهو يتمتم : « يا كنزى ! » وكنت الوجه الثانى الأكثر إلفاتاً للنظر من بين المارة . وكنا نلعب ملهاة ضافية ذات مائة مشهد مختلف ، فهناك الغزل وسوء التفاهم الذى يزول سريعاً والمعاكسات التناهية فى الطيبة والتأنيب اللطيف ، وغضب الحبيب والتكتم الحنون والهوى ؛ كنا نتخيل عقبات لحبنا كى نفرح بتذليلها ، كنت متعجرفا أحيانا ، ولكن النزوات لم تكن تستطيع أن تخفى حساسيتى العذبة ؛ كان يظهر الزهو السامى البرىء الذى يتلاءم مع الجدود ، كما كان يظهر العمى والضعف الأثيم اللذين يوصى بهما فكتور هوجو ، فلو عوقبت بأكل الخبز الجاف ، لأحضر لى المربيات ؛ ولكن المرأتين المرهوبتين كانتا تتجنبان هذا العقاب وكنت فوق ذلك طفلا عاقلا أجد دورى مناسباً إلى الحد الذى جعلنى لا أخرج منه . والحقيقة أن

انسحاب والدى السريع قد وهبنى « أوديباً » متناهيا فى النقصان : صحيح أن عقدة « الأنا العليا » غير موجودة ولكن لا وجود لمركب العدوان أيضا . فأمى كانت لى ، ولم يكن أحد يعترض على ملكيتى الهادئة لها : كنت أجهل العنف والكراهية ، وكفونى مؤونه التدرب القاسى على الغيرة ؛ وكانت أول معرفتى للواقع عن طريق ميوعته الضاحكة ، وذلك لأنى لم أصطدم بمخالبه . فعلى من وعلى أى شىء أثور : إن نزوة الغير لم تستطع أن تسيطر على .

كنت أسمح بلطف بأن يلبسونى حذائى ويضعوا نقطا فى أنفى ويفرشوا ملابسى ويغسلونى ويلبسونى الملابس وينزعوها عنى ويزينونى وينظفونى ؛ فليس هناك ما يسلى أكثر من أن نلعب دور العقلاء . وأنا لا أبكى أبداً وقلما أضحك ، ولا أضج ؛ وفى الرابعة من عمرى قبضوا على وأنا أضع ملحا على المربى ؛ وكان ذلك على ما أعتقد حبا فى العلم أكثر منه حباً فى الايذاء ؛ وعلى أية حال فإن هذه هى الجريمة الوحيدة التى أذكرها . ويوم الأحد كانت هاتان السيدتان تذهبان أحيانا إلى القداس لسماع موسيقى جيدة وعازف أرغن معروف ؛ وكلتاهما لا تقومان بواجباتهما الدينية على وجه كامل ، ولكن إيمان الآخرين كان يؤهلهما للوجد الموسيقى ؛ وكانتا تؤمنان بالله أثناء تذوق لحن . وكانت لحظات الروحانية العليا هذه تسعدنى : كان يبدو النعاس على الجميع ، وهى فرصة لعرض ما أستطيع عمله . فكنت أجثو على المركع ، وأتحول إلى تمثال ؛ مانعاً نفسى حتى من تحريك أصبع قدمى ؛ ناظراً فى خط مستقيم أمامى ، دون أن أطرف بعينى حتى تسيل الدموع على خدى ؛ وكنت بالطبع

أقاتل النمل قتال الجبابرة ، ولكن كنت متأكداً من الانتصار ، مدركا لقدرتى إلى الحد الذى يجعلنى لا أتردد عن أن أثير فى نفسى أبشع الاغراءات لا ستمتع بقدرتى على طردها : ولو وقفت صائما « بدا يوم ! » ولو تسلقت العمود لأتبول فى جرن الماء المقدس ؟ إن هذه الأفكار الرهيبة سترفع من قدر التهنئات التى ستقدمها لى أمى بعد هنيهة .

ولكنى أكذب على نفسى ؛ فأتظاهر بأنى فى خطر لأزيد مجدى : ولم تكن المغريات تبعث الدوار لحظة واحدة ؛ فأنا شديد الخوف من الفضيحة ؛ وإن كنت أريد إثارة العجب . فبفضائلى ، وكانت هذه الانتصارات السهلة تقنعنى بأن لدى استعداد طيب ؛ وما على إلا أن أترك نفسى على سجيتها لكى ينهال المدح على . وإن الرغبات والأفكار السيئة إن وجدت ، كانت تأتى من الخارج ؛ وما أن تستقر فى حتى تسقم وتذبل : فأنا أرض جدباء للشر . ولما كنت أمثل الفضيلة . فانى لا أجهد نفسى ولا أقهرها قط : كنت أخترع . ولى حرية الممثل الواسعة الذى يجذب جمهوره ويفرط فى الاعتناء بدوره . إنهم يعبدوننى ، فأنا مستحق إذن للعبادة . ولا غرابة فى ذلك ، ما دام العالم قد أحسن صنعه ؛ يقولون لى إنى جميل فأصدق . وقد ظهرت منذ بعض الوقت ، على عينى اليمنى ، الغشاوة التى سوف تجعلنى أعور وأحول ، ولكن شيئاً من هذا لم يظهر بعد . انهم يلتقطون لى مائة صورة تنقحها أمى بأقلام ملونة . وفى واحدة من هذه الصور التى بقيت ، أبدو ورديا وأشقر ، بشعر مموج وخد مستديرة وفى نظرتى احترام باش للنظام القائم ؛ وفمى ينتفخ بغطرسة خبيثة : فانا أعرف قدرى .

ولا يكفى أن يكون لدى استعداد طيب ؛ بل يجب أن تكون لدى حاسة النبوءة ، فالحقيقة تخرج من فم الأطفال . ولما كان هؤلاء لا يزالون قريبين جدا من الطبيعة ، فانهم أولاد عمومة الريح والبحر : إن جلجتهم تقدم لمن يفهمها تعاليم واسعة ومبهمة . لقد اجتاز جدى بحيرة جنيف مع هنرى برجسون . ويقول لنا : «لقد جننت حماسا ، ولم تكن عينى تكفيانى للاعجاب بالقمم المتلألئة ولمتابعة لمعان الماء . ولكن برجسون الذى كان يجلس على حقيبة ، لم يكف عن النظر بين قدميه . » وكان يستخلص من ذلك الحادث الذى وقع له أثناء السفر ، أن التأمل الشعرى أفضل من الفلسفة . وتأمل فى : وكان يجلس فى الحديقة وكأنه على ظهر إحدى عابرات المحيط الأطلنطى ، وكوب من الجعة فى متناول يده ، ورآنى أعدو وأقفز ، وبحث عن حكمة فى أحاديثى المبهمة ، ووجدها . وقد ضحكت بعد ذلك من هذا الجنون ؛ وأنا آسف على ذلك الآن لأنه كان من عمل الموت كان شارل يكافح القلق بالاعجاب الشديد . ويعجب فى شخصى بعمل الأرض الرائع ليقنع نفسه بأن كل شىء حسن ، حتى نهايتنا الجذرية بالشفقة . إن هذه الطبيعة التى كانت تستعد لاسترجاعه ، كان يذهب للبحث عنها على القمم وفى الأمواج ، وفى وسط النجوم ، وفى ينبوع حياتى الصغيرة ليتمكن من احتضانها كلها ومن تقبل كل شىء منها ، حتى الحفرة التى كانت تحضر له فى هذه الطبيعة . ليست الحقيقة هى التى كانت تكلمه من فمى ، بل موته . ولا عجب إن كان للسعادة التافهة لسنواتى الأولى طعم الموت أحيانا : إنى أدين بحريتى لوفاة حدثت فى الوقت المناسب ، وبأهميتى لوفاة ستحدث

قريباً . ولكن ماذا : إن جميع كاهنات أبولون [١] من الموتى ، الكل يعلم ذلك ؛ كل الأطفال مرايا للموت .

وكان جدى إلى جانب ذاك ، يحب مضايقة أولاده ، لقد أمضى هذا الوالد المرعب حياته فى سحقهم ؛ كانوا يدخلون على أطراف أصابعهم ويفاجئونه على ركبتى طفل : فتنفطر قلوبهم ! ففى كفاح الأجيال غالباً ما يقف الأطفال والشيوخ فى جبهة واحدة : إن البعض يؤدى هتاف الآلهة ويقوم الآخرون بحل طلاسمها ، إن الطبيعة تتكلم والخبرة تترجم : وليس على البالغين إلا أن يسدوا أفواههم . وإن لم تتجب فلنرب كلباً : ففى مدافن الكلاب ، حين كنت أزورها فى العام الماضى ، وفى الكلمة المؤثرة التى تتتابع من قبر إلى قبر ، عزفت حكم جدى ؛ إن الكلاب تعرف أن تحب ؛ إنها أحن من الناس وأشد اخلاصاً منهم ؛ إنها فطنة ولها غريزة بلا شوائب تسمح لها بالتعرف على الخير والتمييز بين الصالحين والطالحين . لقد كتبت إحدى الثكالى على قبر كلبها « أى بولونيوس أنت أحسن منى : فلم يكن فى إمكانك أن تعيش بعدى ؛ بينما أعيش أنا بعدك » . وكان يصحبنى صديق أمريكى ، وكل من الغيظ بقدمه كلباً مصنوعاً من الأسمنت فكسر أذنه لقد كان على حق : فاننا حين نبالغ فى حبنا للأطفال والحيوانات فإننا نحبهم بدلا من حبنا للناس

---

(١) كانت كاهنات أبولون مكلفات بالنطق بهتاف الآلهة وكن يجلسن على مقعد من ثلاث أرجل فوق شق تنبعث منه أبخرة باردة ينتج عنها هذيان مؤقت . (المترجم)

فأنا إذن كلب المستقبل ؛ إنى أتنبأ . لدى كلمات أطفال ، إنهم يحفظونها ويكررونها على . وأتعلم أن أصنع كلمات أخرى . لى كلمات رجال : وأعرف أن أتحدث بكلمات ، أكبر من عمرى ، دون أن ألمسها إن هذه الأقوال شعرية ، والوصفة سهلة : يجب أن تثق فى الشيطان والصدفة والفراغ ، وأن نستعير جملا كاملة من الكبار وأن نضمها الواحدة فى طرف الأخرى وأن نكررها دون فهم . وبالاختصار ، كنت أتفوه بتنبؤات حقيقية وكان كل يفهمها حسبما يريد . إن الخير يولد فى أعمق أعماق قلبى ، وتولد الحقيقة فى ظلمات فهمى الصغيرة . إنى أعجب بنفسى عن ثقة : وبحدث أن يكون لحركاتى وكلماتى صفة لا أدركها ولكنها تكون واضحة بالنسبة للكبار ؛ ولكن دعنا من ذلك ! سوف أقدم لهم دون توقف اللذة الرقيقة التى حرمت منها. إن مزاحى يتخذ ظواهر الكرم: كان بعض الناس المساكين يأسفون على أنهم لم يرزقوا أطفالا ؛ فاشفقت عليهم وخرجت من العدم فى فورة إيثار وتنكرت بلباس الطفولة لأوهمهم بأن لهم ابنا . وكانت أمى وجدتى كثيراً ما تدعوانى إلى إعادة تمثيل مشهد الطيبة السامية التى أعطتنى الحياة : إنهما تتملقان هوس شارل شوايتزر ، وحبه للمفاجآت المسرحية ، فكانتا تدبران له المفاجآت . وكنت أختفى خلف قطعة أثاث وأحبس نفسى ، وتغادر الامرأتان الغرفة أو تتظاهران بنسيانى وأتوارى ؛ ويدخل جدى الغرفة تعبا وعابسا ، كما لو كنت غير موجود ؛ وأخرج فجأة من مخبىء ، وأنعم عليه بمولدى ، فيلمحنى ويندمج فى التمثيلية ويغير وجهه ويرفع يديه إلى السماء . كنت أسعده بوجودى باختصار كنت أهب نفسى ؛أهب نفسى دائما وفى كل مكان ، أهب كل

شيء : كان يكفي أن أدفع باباً كي أشعر أنا كذلك بأني أظهر في رؤيا.
إني أضع مكعباتي بعضها على بعض ، وأخرج فطائري الرملية من قوالبها
وأنادي بأعلى صوتي ؛ فيأتي أحد ويبدي عجبه ! لقد زدت السعداء
واحداً . إن الطعام والنوم والاحتياطات من تقلبات الجو تشكل الأعياد
الأساسية والالتزامات الرئيسية لحياة كلها احتفالات . فأني أتناول طعامي
علنا كالملك : فإذا أكلت جيداً هنأوني ؛ وتصيح جدتي نفسها : « كم من
العقل أن نجوع ! » .

ولا أكف عن أن أصيح قائلا : أنا الواهب والهبة . ولو كان أبي
على قيد الحياة ، لعرفت حقوقي وواجباتي ؛ ولكنه مات وأنا أجهلها ؛
فليس لي حق لأن الحب علأني ؛ وليس لي واجب لأني أعطي عن حب
وعلى مهمة واحدة هي أن أرضي الناس ؛ من أجل المظهر . إن عائلتنا
مفرطة في الكرم : فجدي يعولني ، وأصنع أنا سعادته ؛ وأمي تبذل نفسها
من أجل الجميع . واليوم ، حين أفكر في ذلك ، يبدو لي أن هذا البذل
وحده هو الحقيقي ؛ ولكن كنا نميل إلى أن نلتزم الصمت إزاءه ولكن
حياتنا ليست إلا سلسلة من الاحتفالات وكنا ننفق وقتنا في امطار أنفسنا
بالمجاملات . وكنت أحترم الكبار على شرط أن يعبدوني ؛ أنا صريح ،
ومتفتح ورقيق كالبنت أفكر جيداً واثق بالناس : الجميع طيبون بما أن
الجميع راضون . وأرى المجتمع تدرجا قاسيا من الفضائل والسلطات .
إن الذين يحتلون قمة السلم ، يعطون كل ما يملكون للذين تحتهم . ومع
ذلك فأنا لا أهتم بأن أقف على أعلى درجة : فأنا لا أجهل أنهم يحتفظون
بها لأشخاص قساة وذوي نية حسنة يوطدون النظام إني أقف على مجثم

صغير هامشى ، ليس ببعيد عنهم ، ويمتد إشعاعى من أعلى السلم إلى أسفله .
وباختصار ، أبذل كل جهدى لأبتعد عن السلطة الدنيوية لا أسفل ولا أعلى
بل فى موضع آخر . ولما كنت حفيد رجل دين ، فأنا رجل دين منذ
الطفولة ؛ على مسحة أمراء الكنيسة ، وبشاشة كهنوتية ، وأعامل المرؤسين
كأنداد : إنها كذبة بريئة لاسعادهم ومن المناسب أن يصدقوها إلى حد ما
إنى أتحدث إلى خادمتى وإلى ساعى البريد وإلى كلبتى بصوت متأن ومعتدل
ففى هـذا العالم المنظم يوجد فقراء . وتوجد كذلك خراف بخمس أرجل ،
وأخوات توائم وحوادث سكة حديد : إن هـذه المظاهر الشاذة ليست من
خطأ أحد ولا يعرف الفقراء الطيبون أن واجبهم أن يدربوا كرمنا ، إنهم
فقراء يستحون من التسول ، فهم يتمسحون بالجدران ؛ وأشب ، وأدس فى
يدهم قطعة من فئة الصلديين وأهديهم على الاخص ابتسامة رقيقة تؤمن
بالمساواة . وأرى أن الغباء يبدو عليهم ولا أحب أن ألمسهم ولكنى أكره
نفسى على ذلك : إنها تجربة ؛ ثم من واجبهم أن يحبونى ، وهـذا الحب
سوف يجمل حياتهم . وأعرف أن الضرورى ينقصهم ويسرنى أن أكون
فائضهم . ومن جهة أخرى ، أياكان بؤسهم ، فإنهم لن يتألموا أبداً بقدر
ما تألم جدى : فحين كان صغيراً ، كان ينهض من فراشه قبل الفجر ويرتدى
ملابسه فى الظلام ؛ وفى الشتاء كان لابد من أن يكسر الجليد فى إناء الماء
ليغتسل . ولكن الظروف تحسنت لحسن الحظ منذ ذلك الحين : إن
جدى يؤمن بالتقدم ، وأنا كذلك : التقدم هـذا الطريق الطويل الوعر
الذى يؤدى إلى .

كان الفردوس . فكنت أستيقظ كل صباح فى ذهول من الفرح ،

معجبا بالحظ المجنون الذى جعلنى أولد فى أكثر العائلات اتحاداً ، وفى أجمل بلد فى العالم . وكان المستاءون يصدموننى : فم يستطيعون الشكوى؟ لقد كانوا عصاة. وكانت جدتى على وجه الخصوص تسبب لى أحر القلق : وكنت الاحظ بألم أنها لم تكن تعجب بى إعجابا كافياً . وبالفعل فان لويز كشفتنى . فقد كانت تلومنى صراحة على هذا التمثيل الردىء الذى لم تكن تجرؤ على أن تؤنب من أجله زوجها . كنت أراجوزا ومهرجا وبهلوانا ، وكانت تأمرنى بأن أكف عن تصنعى . وكنت أغتاظ إلى الحد الذى أتهمها بأنها تسخر كذلك من جدى : كانت « الروح التى تنكر دائما » . وكنت أجاوبها ، وكانت تطلب أن أعتذر ؛ ولما كنت واثقا من التأييد ، فكنت أرفض الاعتذار . وكان جدى يتلقف فرصة اظهار ضعفه : وكان ينضم إلى ضد زوجته التى كانت تنهض ، غاضبة ، وتذهب إلى غرفتها وتغلق الباب عليها . وتقلق والدتى خوفا من حقد جدتى ، فتتحدث بصوت منخفض وتقول بتواضع لوالدها إنه مخطىء ، فيهز كتفيه متهكما ، وينسحب إلى حجرة مكتبه ؛ وكانت تتوسل إلى أخيراً أن أذهب لطلب الصفح . كنت أتمتع بسلطتى : كنت القديس ميخائيل وقد سحقت الروح الشريرة ، ولكى انتهى كنت أذهب للاعتذار بعدم اكتراث وفيما عدا ذلك كنت أعبدها طبعا لأنها كانت جدتى . واقترحوا على أن أناديها بمامى وأن أنادى رب العائلة باسمه الألزاسى كارل . إن جرس كارل ومامى أفضل من جرس روميو وجوليت ومن فيليمون وبوسيس[1] . وكانت أمى تكرر على مائة مرة فى اليوم

(١) فى الميثولوجية الاغريقية ، زوجان أسطوريان ، أصبح اسمهما رمزاً للحب بين الزوج والزوجة (المترجم) .

عن قصد عامد : « إن كارل ومامي ينتظراننا ، كارل ومامي سيكونان مسرورين ، كارل ومامي . . . » ذاكرة باتحاد هذه المقاطع الأربعة التفاهم التام بين الشخصين . ولم أكن سوى نصف أبله ، وكنت أرتب أمري بحيث أبدو غاية في البله ، أمام نفسي أولا . وكانت الكلمة تلقى بظلها على الشيء ؛ فخلال كارل ومامي كنت أستطيع الاحتفاظ بوحدة العائلة دون شائبة وصب جانب كبير من مزايا شارل على رأس لويز . كانت جدتي ظنينة وشاعرة بالخطأ ، وكانت لذلك على حافة السقوط دائماً ولكن كان يحول دون ذلك ذراع ملائكة أو قوة كلمة .

هناك أشرار حقيقيون : البروسيون الذين أخذوا منا الألزاس واللورين وكل ساعاتنا الكبيرة الدقاقة فيما عدا ساعة المرمر الأسود التي تزين مدفأة جدي والتي قدمها له بالذات جماعة من التلاميذ الألمان ؛ من أين سرقوها يا ترى ؟ وكانوا يشترون لي كتب هانسي[1] ويروني صوره فلا أبدي أي نفور من هؤلاء الرجال السمان المصنوعين من السكر الوردي الكثيري الشبه بأخوالي الألزاسيين . وإن جدي الذي اختار فرنسا في سنة ١٨٧١ كان يذهب من آن لآخر إلى جنسباخ وبفافنهوفن ليزور هؤلاء الذين ظلوا هناك . وكان يأخذني معه . وفي القطارات ، حين كان يطلب مفتش ألماني تذاكره ، وفي المقاهي ، حين كان خادم يتأخر في أخذ الطلب ، كان وجه شارل شوايتزر يصطبغ بحمرة الغضب الوطني ؛ وكانت

---

(١) رسام كاريكاتور ألزاسي ولد في سنة ١٨٧٣ وتوفي في سنة ١٩٥١ (المترجم)

المرأتان تتعلقان بذراعيه : « شارل ! هل تفكر فيما تعمل ؟ سيطردوننا ولن تنال شيئاً ! » وكان جدى يرفع صوته قائلا : « أود أن أراهم يطردوننى : أنا فى بلدى ! » وكانت المرأتان تدفعان بى بين ساقيه ، وكنت أنظر إليه كمن يتوسل ، فيهدأ . وكان يقول متهداً وهو يحك رأسى بأصابعه : « حسنا ، من أجل الصغير » . وكانت هذه المشاهد تكدرنى منه دون أن تثير حفيظتى ضد المحتلين . ومع ذلك ، كان لا يفوت شارل فى جنسباخ أن يثور على زوجة أخيه ؛ فعدة مرات فى الأسبوع ، كان يلقى بفوطته على المائدة ويترك حجرة الطعام وهو يصفق الباب : ومع ذلك فإنها لم تكن ألمانية.وبعد تناول الطعام كنا نذهب لنتوح ونتحب عند قدميه ولكنه كان يواجهنا بنظرة قاسية . وكيف لا أنضم إلى رأى جدتى القائل : « إن الألزاس لا تناسبه ، ويجب ألا يعود إليها كثيراً » ؟ ومن جهة أخرى ، فانى لا أحب الألزاسيين كثيراً لأنهم يعاملوننى بغير احترام وأنا لست متكدراً لأنهم أخذوهم منا . ويبدو أنى كنت أذهب كثيراً جدا عند بدال بلا فنهوفن،السيد بلومنفلد ، وأنى أزعجه بلا داع . وأبدت خالتى كارولين ملاحظاتها لأمى فى هذا الشأن . فنقلت إلى ؛ ولأول مرة كانت لويز شريكتى فى الجريمة : إنها كانت تكره عائلة زوجها . وفى ستراسبورج ، سمعت من غرفة فندق حيث كنا مجتمعين ، أصوات ضيقة ورفيعة ، فجريت إلى النافذة ؛ إنه الجيش ! أنا سعيد جداً أن أرى بروسيا تسير على أنغام هذه الموسيقى الصبيانية ، وأصفق . وظل جدى جالسا على كرسيه وهو يدمدم ؛ وجاءت أمى لتهمس فى أذنى بأن أترك النافذة . فأطعت مظهراً قليلا من الاستياء . أى نعم إنى أكره

الألمان ، ولكن بدون اقتناع . وفضلا عن ذلك ، فان شارل لا يستطيع أن يسمح لنفسه إلا بقدر ضئيل من الوطنية المتطرفة : ففى سنة ١٩١١ تركنا مودون لنستقر فى باريس بشارع لوجوف رقم ١ ؛ ولا شك أنه تقاعد وجاء يؤسس معهد اللغات الحية ليقيم أودنا . وكان هذا المعهد يعلم الفرنسية بالطريقة المباشرة للأجانب العابرين . وكان أغلب التلاميذ يأتون من ألمانيا . وهم يدفعون جيداً : ويضع جدى الجنيهات الذهبية ، دون أن يعدها قط ، فى جيب سترته ؛ وفى الليل تتسلل جدتى المصابة بالأرق إلى الدهليز لتقتطع عشرها وخفية، كما كانت تقول بنفسها لابنتها . وخلاصة القول كان العدو يصرف علينا ؛ وإن حربا تقوم بين فرنسا وألمانيا تعيد لنا الألزاس ، تفلس لنا المعهد : كان شارل إذن مع الرأى القائل بالمحافظة على السلام . ثم كان هناك ألمـان طيبون يأتون عنـدنا لتناول الغداء : ومن بينهم قصاصة حمراء الوجه وشعراء كانت لويز تسميها بضحكة صغيرة غيور : « حبيبة شارل » ، وطبيب أصلع كان يدفع أمى إلى الأبواب ويحاول تقبيلها ؛ وحين كانت تشكو منه بخجل ، كان جدى ينفجر قائلا : « تفسدين بينى وبين الجميع ! » ويرفع كتفيه ، مقرراً « إنها تهيئات يا ابنتى » وكانت هى التى تشعر بأنها المذنبة . وكان جميع هؤلاء المدعوين يفهمون انه يجب عليهم أن يذهلوا أمام فضائلى ، وكانوا يلاطفوننى بوداعة : إن لديهم إذن ، على الرغم من أصلهم ، فكرة غامضة عن الخير . وفى العيد السنوى لتأسيس المعهد ، يدعى أكثر من مائة ضيف ويقدم شراب الشامبانيا ، وتعزف أمى والآنسة موتيه موسيقى باخ بأربع أيد ؛ وكنت أرتدى ثوباً من الموسلين الأزرق ، وتنثر

النجوم فى شعرى وتركب لى أجنحة وأنتقل من مدعو إلى آخر مقدماً تار اليونسى فى سبت ، وكانوا يصيحون : « إنه ملاك بحق ! » لا ، إنهم ليسوا بأشرار كما تتصور . لا شك أننا لم نعدل عن الانتقام للألزاس الشهيدة : وفى العائلة ، وبصوت منخفض ، كما يفعل أولاد الأخوال فى جنسباخ وبفافنهوفن كنا نقتل الألمان بالسخرية منهم ؛ فكنا نضحك مائة مرة ، الواحدة بعد الأخرى ، وبدون كلل من هذه الطالبة التى كتبت تواً فى ترجمة إلى الفرنسية قائلة : « كانت شارلوت « كسيحة » من الآلام على قبر فرتر » ؛ ومن هذا المعلم الشاب الذى تأمل ، خلال عشاء ، قطعته من الشمام فى غير ثقة وانتهى بأن أكلها كلها يذورها وقشرتها . إن هذه الغلطات الكبيرة تجعلنى أميل إلى التسامح : إن الألمان قوم أقل مرتبة منا ومن حسن حظهم أن يكونوا جيراننا ؛ فسوف نعطيهم معارفنا .

إن القبلة بدون شارب ، كما كانوا يقولون آنئذ ، كالبيضة بدون ملح ؛ وأضيف : وكالخير بدون شر ، كحياتى بين ١٩٠٥ و ١٩١٤ . وإن كنا لا نعرف أنفسنا إلا بالتضاد ، فقد كنت اللامعرّف بلحمه وعظمه وإن كان الحب والكراهية هما وجه النوط نفسه وظهره ، فانى لم أكن أحب شيئاً ولا إنساناً . كان ذلك حسناً : فلا يمكن أن نكره ونكون موضع رضا الآخرين فى وقت واحد . ولا أن نرضى ونحب .

هل أنا نرجسى إذن ؟ ولا حتى ذلك : ولما كنت شديد الاهتمام بأن أغرى فإننى أنسى نفسى . ومع هذا كله ، فإن صنع الفطائر والخربشة وقضاء حاجاتى الطبيعية لم تكن تسلّينى كثيراً : فلكى ترتفع قيمتها فى

نظرى، كان لابد على الأقل أن يبدى شخص كبير اعجابه الزائد بعتجاتى.
ولحسن الحظ فان التصفيق لم يكن ينقصنى : وسواء أصغوا إلى ثرثرتى وإلى
« فن المتابعات[1] » فان للبالغين نفس ابتسامة التذوق الخبيثة المتواطئة ؟
وهذا ما يؤكد هويتى بالفعل التى تعنى أننى نتاج ثقافى. فقد تشبعت بالثقافة
وأنا أرجعها إلى الأسرة عن طريق الاشعـــاع ، على نحو ما تشع من
الغدران عند المساء حرارة النهار .

بدأت حياتى كما سوف أنهيها بلا شك : بين الـكتب . ففى حجرة
مكتب جدى كانت الـكتب فى كل مكان ؟ كان محظورا تنفيضها إلا مرة
فى السنة ، فى شهر أكتوبر ، قبل العودة إلى المدارس — . وكنت
لا أعرف القراءة بعد ، ومع ذلك فـكنت أجلها هذه الحجارة المرفوعة .
وسواء كانت قائمة أم مائلة ، متزاحمه كقطع الطوب على أرفف المـكتبة
أم منفصلة بعضها عن بعض ، على غرار ممرات المنهير[2] ، فانى كنت
أشعر أن ازدهار عائلتى موقوف عليها . كانت متشابهة كلها ، وكنت
ألهو فى معبد غاية فى الصغر ، محاطاً بآثار ربعة وقديمة شاهدت مولدى
وسوف تشاهد وفاتى ويكفل لى دوامها مستقبلا هادئاً كالماضى . كنت
ألمسها خفية لأشرف يدى بغبارها ، ولـكنى لم أكن أعرف كيفية استعمالها
وكنت أحضر كل يوم احتفالات لم أكن أفهم معناها : فان جدى —
الاخرق فى العادة إلى الدرجة التى تجعل أمى تزرر له قفازيه — كان

(١) مقطوعة موسيقية تلحين باخ .

(٢) حجر كبير قائم يصل ارتفاعه إلى عشرين متراً ، من آثار القبائل التى
كانت تعيش فى اقليم برتانى بفرنسا (المترجم) .

يلبس هذه الأشياء الثقافية بمهارة الكهنة . وقد رأيته ألف مرة ينهض مشتت الفكر ويدور حول مائدته ، ويجتاز الحجرة فى خطوتين ، ويأخذ مجلدا دون تردد ، وبدون أن يمنح نفسه وقتا للاختيار ويقلب صفحاته وهو عائد إلى مقعده ، بحركة متناسقة بين الابهام والسبابة ، ثم بمجرد جلوسه يفتحه بخبطة واحدة «فى الصفحة المطلوبة» وهو يطقطقه كالحذاء . وكنت أحيانا أقترب لأراقب هذه الصناديق التى كانت تنشق كالمحار وكنت أكتشف عرى أعضائها الداخلية ، أوراق شديدة الشحوب ومتعفنة ، ومنتفخة قليلا ، مغطاة بعريقات سوداء تشرب الحبر وتنبعث منها رائحة عش الغراب .

وفى غرفة جدتى كانت الكتب مائلة ؛ وكانت تستعيرها من مكتب للمطالعة ولم أر منها قط أكثر من كتابين فى وقت واحد . إن هذه الزينات الحقيرة كانت تذكرنى بحلوى رأس السنة لأن وريقاتها الرخصة اللامعة تبدو وقد قصت من ورق مصقول . وكانت لامعة وبيضاء وشبه جديدة وكانت تستخدم حجة لأسرار خفيفة : وفى كل يوم جمعة ، كانت جدتى ترتدى ملابسها لتخرج قائلة : « أنا ذاهبة لارجاعهما » ؛ وعند عودتها ، بعد أن تخلع قبعتها السوداء وخمارها ، كانت تخرجهما من الفروة التى تدفىء بها يديها وكنت أسأل نفسى مخدوعا : « هل هما بذاتهما؟» وكانت تغلفهما بعناية ، وبعد أن تختار أحدهما ، تجلس بالقرب من النافذة على كرسيها الواسع ذى الوسائد الصغيرة وتضع نظارتها وتتنهد بسعادة وتعب وتخفض جفنيها بابتسامة ناعمة متلذذة، التقيت بها بعد ذلك على شفتى الجيوكوندا ؛ وكانت أمى تصمت وتدعونى إلى الصمت ، وكنت أفكر فى

القداس والموت والنوم : وأملاً تقسى بصمت مقدس . ومن وقت لآخر ، كانت لويز تضحك ضحكة صغيرة ؛ وتنادى ابنتها وتشير بأصبعها إلى سطر ، وكانت المرأتان تتبادلان نظرة متواطئة . ومع ذلك كنت لا أحب هذه الكتب الضبورة الصغيرة الحجم المتناهية فى الأناقة ؛ لقد كانت دخيلة ولم يكن جدى يخفى أنها موضع عبادة صغرى ، مقصورة على النساء. وفى يوم الأحد كان يدخل عن فراغ حجرة زوجته ويقف أمامها ، دون أن يجد ما يقوله لها ؛ وكان الجميع ينظرون إليه وهو ينقر الزجاج ، فإذا نضب خياله ، تحول إلى لويز وأخذ روايتها من يديها . وكانت جدتى تصرخ غاضبة : « شارل ! إنك ستضيع الصفحة ! » ولكنه كان يرفع حاجبيه ويقرأ ؛ وفجأة يضرب الكتاب بسبابته ويصيح : « إنى لا أفهم » وكانت جدتى تقول له : « ولكن كيف تريد أن تفهم ؟ إنك تقرأ من الداخل ! » وينتهى الأمر بأن يرمى بالكتاب على المائدة ويذهب رافعا كتفيه .

كان على حق بالتأكيد لأنه ابن الصنعة نفسها . وكنت أعرف ذلك : فقد أرانى على رف من المكتبة كتبا ضخمة مجلدة بالكرتون ومغطاة بنسيج بنى . « تلك الكتب أيها الصغير ، صنعها جدك . . يا للفخر ! لقد كنت حفيد صانع متخصص فى صنع الأشياء المقدسة ومحترم مثل صانع الأرغن وحائك ثياب رجال الاكليروس . وقد شاهدته وهو يعمل . ففى كل عام كان يعاد طبع « المطالعة الألمانية » . وأثناء الاجازة الصيفية كانت العائلة كلها تنتظر تجارب المطبعة بفارغ الصبر : وكان شارل لا يحتمل البطالة ، ويغضب من ضياع الوقت وأخيراً كان ساعى البريد يحضر

رزمات ضخمة رخصة . وكانت الخيوط تقص بالقص ؛ وكان جدي يفرد السلخات وينشرها على مائدة حجرة الطعام ويقطعها بخطوط حمراء ؛ وأمام كل غلطة مطبعية كان يجدف فى تمتمة ، ولكنه لم يكن يصرخ إلا حين كانت الخادمة تباشر فى إعداد المائدة . وكان السرور يعم الجميع . وكنت أقف على كرسى وأنظر باعجاب شديد إلى هذه الأسطر السوداء المضرجة بالدماء . وقد أخبرنى شارل شوايتزر أن له عدوا لدوداً ، هو ناشره جدى لم يعرف المحاسبة قط : ولما كان مسرفا عن غفلة ، واخيراً عن مباهاة ، فقد انتهى به الأمر إلى الاصابة ، بعد وقت طويل ، بهذا المرض الذى يناسب الذين بلغوا الثمانين وهو البخل ، نتيجة للعجز والخوف من الموت . وفى ذلك الوقت كان البخل قد ظهر فى شكل ارتياب غريب : فحين كان يتسلم بحوالة حاصل حقوق التأليف ، كان يرفع ذراعيه إلى السماء وهو يصرخ بأنهم يذبحونه أو يدخل حجرة جدتى ويعلن فى كآبة : « إن ناشر كتابه يسرقه كما يسرق الناس فى الغابة . » وا كتشفت مذهولا ، استغلال الانسان للانسان . ولولا هذه الشناعة التى أوقفت عند حدها لحسن الحظ ، لكان العالم بخير ؛ ومع ذلك فإن أصحاب العمل يحسب قدرتهم ، يعطون العمال حسب استحقاقهم . ولماذا يشوه جمال هذا العالم هؤلاء الناشرون المختلسون بمصهم دماء جدى المسكين ؟ لقد ازداد احترامى لهذا الرجل القديس الذى لم يكافأ على تفانيه . وقد أعددت مبكراً لأن اعتبر التدريس كهنوتا والأدب هوى .

ولم أكن أعرف القراءة بعد ، ولكنى كنت محبا للظهور إلى الحد الذى جعلنى أطالب بكتب لى . وذهب جدى إلى ناشره الوغد وأخذ منه

« قصص » الشاعر موريس بوشور ، المقتبسة من الأدب الشعبي والموضوعة في أسلوب يتناسب وذوق الطفل، بقلم رجل احتفظ بعيون الطفولة كما يقول. وأردت أن أبدأ في الحال احتفالات التملك . وأخذت المجلدين الصغيرين وشممتهما وجسستهما وفتحتهما بلا اكتراث ، في الصفحة المطلوبة، وجعلتهما يفرقعان . ولكن عبثا : فلم أكن أشعر بأني أملكهما . وحاولت دون تحقيق نجاح أكبر أن أعاملهما كأنهما دميتان ، فأهدهدهما ، واقبلهما وأضربهما وانتهى بي الأمر ، وأنا أكاد أبكي ، إلى وضعهما على ركبتي امي . فرفعت عينيها من على شغلها وقالت لي : «ماذا تريد أن أقرأ لك يا حبيبي ؟ الجنيات ؟ » فسألتها ، غير مصدق : « الجنيات ، هل هي داخل الكتاب ؟ » إن هذه القصة كانت مألوفة عندي : وكانت امي تقصها على كثيرا ، حين كانت تغسل لي وجهي ، وتتوقف لتدلكني بماء الكولونيا أو لكي تلتقط من المغطس قطعة الصابون التي انزلقت من بين يديها . وكنت أصغي ساهيا إلى القصة التي كنت أعرفها جيداً ؛ ولم أكن أنظر إلا للفتاة آن ماري ، التي كانت تطالعني كل صباح ؛ ولم أكن أصغي إلا لصوتها المضطرب بالعبودية ؛ كنت أعجب بجملها غير الكاملة وبكلماتها دائمة البطء . وبثقتها الفجائية التي تتكسر بشدة وتتحول إلى هزيمة لتختفي في تمزق رخيم ولتعود ثانية بعد صمت . إن القصة كانت تأتي عرضا باعتبارها الرباط الذي يجمع بين سلسلة مناجياتها . وطالما كانت تتكلم ، كنا وحيدين ومختفيين بعيدا عن الناس والآلهة والكهنة ، كوعلين في الغابة مع هذه الوعول الأخرى ألا وهي الجنيات ؛ ولم أكن أستطيع أن أصدق أنهم ذهبوا إلى حد تأليف كتاب كامل ليضمنوه هذا

الجزء من حياتنا اللاقدسية التي تنبعث منها رائحـــة الصابون وماء الـكولونيا .

أجلستني آن ماري في مواجهتها ، على كرسيّ الصغير ؛ وانحنت وخفضت جفنيها ونامت . ومن هذا الوجه الذي يشبه التمثال خرج صوت جامد . وفقدت عقلي : من كان يحـكي؟ وما الذي كان يحكيه؟ ولمن كان يحـكي؟ لقد تغيبت أمي : لا ابتسامة ولا اشارة تواطؤ ، لقد كنت في المنفى . ثم لم أكن أعرف لغتها . من أين أخذت هذه الثقة؟ وفهمت بعد لحظة : كان الـكتاب هو الذي يتـكلم ، وتخرج منه جمل تخيفني : كانت حرش[1] حقيقية وكانت تغص بالمقاطع والحروف وتمد أصواتها وتهز الحرفين الساكنين ؛ والحروف الشادية ، والانقية ، مشطورة بوقفات وتنهدات ، غنية بكلمات غير معروفة ، تأخـــذ بعضها برقاب بعض وبمنعطفاتها دون أن تبالي بي : وكانت تختفي أحيانا قبل أن أتمـكن من فهمها ، وأحيانا كنت أفهم مقدما وكانت تستمر في سيرها بكرم نحو نهايتها دون أن تعفيني من فاصلة . ومن المؤكد أني لم أكن المقصود بهذا الخطاب . أما القصة فقد ارتدت ثياب العيد : فالحطاب والحطابة وبناتهما والجنية ، كل صغار القوم هؤلاء ، أمثالنا ، اكتسبوا جلالة ؛ فـكانوا يتحدثون عن أسمالهم بعظمة ، وكانت الـكلمات تؤثر على الأشياء محولة الأعمال إلى طقوس والأحداث إلى احتفالات . وأخذ أحدهم يوجه أسئلة: إن ناشر مؤلفات جدي ، وقد تخصص في نشر الـكتب المدرسية ، كان

---

(١) جمع حريش : وهو الحيوان الزاحف المسمى بأم أربع وأربعين .

ينتهز كل فرصة لتدريب ذكاء قرائه الغض . وبدا لى أنهم يسألون طفلا : ما الذى كان سوف يعمله لو أنه كان الحطاب ؟ أى الأختين كان يفضل ؟ ولماذا ؟ هل يقر عقاب بابيت ؟ ولكن هذا الطفل لم يكن أنا تماما وكنت أخشى الاجابة . ومع ذلك فقد أجبت ، وضاع صوتى الضعيف وشعرت بأننى أصبحت ، شخصاً آخر . وأن مارى أيضاً كانت شخصاً آخر بهيئتها التى تشبه الكفيف قوى البصيرة : لقد بدا لى أننى كنت ابنا لكل الأمهات ، وأنها كانت أماً لكل الأولاد . وحين كفت عن القراءة ، انتزعت منها الكتب وحملتهـــا تحت أبطى دون أن أقول كلمة شكر .

وبمضى الوقت أصبحت أتلذذ بهذا الصوت الذى كان ينتزعنى من نفسى : وكان موريس بوشور ينحنى على الطفولة بتلك العناية الشاملة التى يبديها رؤساء الأقسام لزبائن المحال الكبرى ؛ وكان ذلك يرضينى . وأصبحت أفضل القصص المصنوعة قبلا على القصص المرتجلة . وغدوت أتأثر بالتسلسل الدقيق للكلمات : فعند كل قراءة ، كانت تعود دائماً بذاتها وبالترتيب نفسه ، وكنت أنتظرها . وفى حكايات آن مارى ، كان الأشخاص يعيشون يوما بيوم ، كما كانت تفعل هى : وانتهى كل منهم إلى مصير . وكنت فى القداس : أشهد الاسماء والأحداث وهى تتردد ترددا دائماً .

وقد غرت حينئذ من أمى وقررت أن آخذ دورها منها . واستوليت على كتاب عنوانه : «مغامرات أحد الصينيين فى الصين» وحملته إلى حجرة

الأشياء المستغنى عنها ؟ وهناك وقفت على سريرى بحواجز ، وتظاهرت بالقراءة : وكنت أتابع بعينى الأسطر السوداء دون أن أترك سطراً واحداً وأقص على نفسى قصة بصوت عال مع العناية بنطق كل المقاطع . وفاجأونى — أو جعلتهم يفاجئونى — وصاحوا متعجبين وقرروا أن الوقت قد حان لتعليمى الحروف الأبجدية . وكنت متحمسا كالموعوظ [١] ؛ ودهب بى الحماس إلى حد اعطاء نفسى دروسا خاصة : كنت أتسلق سريرى ذا الحاجز مع رواية « بلا عائلة » لهكتور مالو التى كنت أحفظ بعضها وأطالع فى صعوبة بعضها الآخر واقلب جميع صفحاتها ، الواحدة بعد الأخرى : وعندما قلبت آخر صفحة ، كنت قد تعلمت القراءة .

لقد جننت فرحا : إن هذه الأصوات التى جفت كالنباتات بين الصفحات هى لى ، هذه الأصوات التى كان جدى يبعثها بنظرته ويسمعها ولا أسمعها انا ! لسوف أصغى إليها وسوف أملأ نفسى بخطب احتفالية وأعرف كل شىء . وتركونى أتجول فى المكتبة وهجمت على الحكمة الانسانية ، الشىء الذى كوننى . وبعد ذلك سمعت مائة مرة أعداء السامية يأخذون على اليهود جهلهم لدروس الطبيعة وصمتها ؛ وكنت أجيب : « إنى فى هذه الحالة أكثر يهودية منهم . » وعبثا أبحث فى نفسى عن الذكريات الغامضة وعن الشقاوة اللطيفة لأطفال الريف . إنى لم أحفر الأرض قط ولم أبحث عن أعشاش ، ولم اجمع النباتات من الحقول ولم أقذف الطيور بالحجارة . ولكن

---

(١) الذى يعتنق دينا جديدا عن اقتناع (المترجم) .

الكتب كانت طيورى وأعشاشى ، وحيواناتى الأليفة وحظيرتى وريفى ؛ إن المكتبة كانت العالم معكوسا فى مرآة ؛ كان لها سمكه اللانهائى وتنوعه وعدم القدرة على التنبؤ بما سيقع فيه من أحداث . لقد قذفت بنفسى فى المغامرات العجيبة : وكان لا بد لى من تسلق الكراسى والموائد غير مبال بالانهيارات التى قد تردمنى تحتها . وظلت كتب الرف الأعلى بعيداً عن متناولى مدة طويلة ؛ وانتزعت كتب أخرى من يدى بمجرد اكتشافى لها ؛ وغيرها من الكتب كانت مخبأة أيضا : كنت قد أخذتها وبدأت قراءتها واعتقدت بأننى أعدتها إلى مكانها ، ولكن كان لابد من أسبوع للعثور عليها . لقد التقيت بأشياء مرعبة : فكنت أفتح دفترا للرسوم ، وأصادف لوحة بالألوان ، وحشرات قبيحة تتحرك تحت نظرى . وكنت أنوم برحلات شاقة خلال فونتنيل واريستوفان ورابليه وأنا راقد على السجادة : وكانت الجمل تقاومنى على منوال الأشياء ؛ كان لابد من ملاحظتها واللف حولها والتظاهر بالابتعاد والعودة بغتة إليها لمفاجأتها بعيداً عن حراسها : وفى أغلب الأحيان ، كانت تحتفظ بسرها . وكنت لابيروز [١] وماجلان وفاسكودى جاما ؛ وكنت أكتشف سكانا أصليين غرباء : كلمة « هيوتونتيمورومينوس » فى إحدى تراجم تيرانس [٢] فى بيت شعر ذى اثنى عشر مقطعا ، واصطلاح « الزاج الشخصى » فى كتاب يبحث فى الأدب المقارن . والكلمات « أبوكوب » و « الشبك » و « نموذج »

---

(١) ملاح فرنسى مشهور توفى سنة ١٧٨٨ (المترجم)

(١) شاعر كوميدى لاتينى ولد فى قرطاجة فى حوالى سنة ١٩٠ قبل الميلاد. قلد الشعراء اليونانيين (المترجم)

ومائة كلمة أخرى مغلقة وقصية كانت تظهر فى منحى صفحة . وكان مجرد ظهورها يقطـع أوصال الفقرة كلها . إنى لم أعرف معنى هـذه الـكلمات الصلبة والسوداء إلا بعد ذلك بعشر أو خمس عشرة سنة ، وهى تحتفظ حتى اليوم بعدم شفافيتها : إنها دبال ذاكرتى .

لم تـكن المـكتبة تحوى إلا كبار كلاسيكي فرنسا وألمانيا . وكانت هناك أيضا كتب قواعد وبعض الروايات المشهورة ، وقصص مختارة لموباسان ومؤلفات فى الفن — عن روبانس وفان ديك ودورر ورامبرانت — وكان تلاميذ جدى قد أهدوها له بمناسبة عيد من أعياد رأس السنة . إنه عالم هزيل . ولـكن قاموس لاروس الـكبير كان كل شىء بالنسبة لى : كنت أتناول جزءا عرضا ، خلف المـكتب ، على الرف قبل الأخير ، من حرف ا إلى كلمة بيلو ومن بيلوك إلى ش أو من ت إلى ث ومن كلمة ميلى إلى بو أو الباء الثقيلة والراء إلى آخر حرف من حروف الأبجدية الفرنسية (إن هـذا التآلف بين المقاطع أصبح بالنسبة لى أسماء أعلام تشير إلى أقسام المعرفة العامة : فهناك المنطقة التى تمتد من حرف التاء إلى حرف الثاء ، ومنطقة الباء الثقيلة المتبوعة بالراء إلى آخر حرف من الأبجدية الفرنسية بحيواناتها ونباتاتها ومدنها ورجالها العظام ومعاركها) ؛ كنت أخطـه بصعوبة على القرطاس الذى يضعه جـدى تحت يديه على المـكتب ليـكتب عليه ، وأفتحه وأخرج منه الطيور الحقيقية . وكنت أصطاد فيه الفراشات الحقيقية النازلة على أزهار حقيقية . وكان الناس والحيوانات بذواتهم هناك : وكانت الصور المطبوعة هى أجسامها والنص روحها وجوهرها الفريد ؛

ونلتقى خارج الأسوار برسوم غير كاملة ، مبهمة تقترب بعض الشىء من النماذج ولكن دون أن تصل إلى كمالها : ففى حديقة الحيوان كانت القردة أقل من القردة ، وفى حديقة اللوكسمبورج كان الناس أقل من الناس . ولما كنت أفلاطونيا من حيث الوضع ، فكنت أبدأ بالمعرفة وانتهى بموضوعها ؛ وأجد الفكرة أكثر واقعية من الشىء ، لأنها كانت تعطى نفسها لى أولا ولأنها كانت تعطى نفسها كشىء . ففى المكتب البتيت بالكون : متمثلا ومصنفا ومعنوناً ومتأملا فيه ومرهوباً أيضاً ؛ وقد خلطت فوضى تجاربى المكتبية بالمجرى الخطر للأحداث الواقعية . ومن هناك جاءت هذه المثالية التى أنفقت ثلاثين سنة للتخلص منها .

كانت الحياة اليومية رائقة : فكنا نعاشر أشخاص رصينين يتكلمون بصوت عال وبوضوح ويؤسسون يقينهم على مبادىء سليمة ، على حكمة الأمم ولم يكونوا يتفضلون بتمييز أنفسهم عن العامة إلا ببعض تكلف فى الروح كنت قد اعتدته تماماً . وما أن يدلوا بآرائهم حتى أقتنع بها ببداهة شفافة وساذجة . فإذا أرادوا أن يبرروا سلوكهم قدموا أسباباً مملة إلى الحد الذى لا يمكن إلا أن تكون حقيقية ؛ وإن مشكلاتهم الضميرية التى يعرضونها برضاء كامل كانت تقتلنى أقل مما تبنينى ; وكانت هذه المشكلات منازعات زائفة تم حلها من قبل ؛ وهى نفس المشكلات دائماً ؛ وإن أخطاءهم حين كانوا يعترفون بها لم تكن تثقل ضمائرهم كثيراً : إن العجلة الشديدة ، هذا الهيجان الشرعى البالغ فيه بلا شك قد حرفت حكمهم ؛ ولكنهم انتبهوا إليها فى الوقت المناسب لحسن الحظ ؛ وإن أخطاء

الغائبين الأكبر من أخطائهم كانت قابلة دائماً لأن تغفر : فلا اغتياب عندنا ، إنها عيوب فى السلوك كانت تلاحظ بأسى . وكنت أصغى ، وأفهم ، وأوافق ، وأجد هذه الأحاديث مطمئنة ، ولم أكن مخطئا بما انها كانت تهدف إلى الطمأنينة : لا داء بلا دواء وفى الواقع لا شىء يتحرك ، إن الاضطرابات السطحية الباطلة يجب ألا تخفى علينا الهدوء الجنائزى الذى هو نصيبنا .

كان زوارنا يستأذنون فى الرحيل ، فأظل وحيداً وأهرب من هذه المقبرة المبتذلة ، وكنت أذهب للحاق بالحياة وبالجنون فى الكتب . وكان يكفينى أن أفتح كتابا منها لأكتشف فيه هذه الفكرة اللاإنسانية ، القلقة التى تجاوز أبهتها وظلماتها إدراكى والتى تقفز من فكرة إلى أخرى بسرعة تجعلنى أفلت قبضتى مائة مرة فى الصفحة وأتركها تهرب وأنا مذهول ، ضائع . وحضرت أحداثا كان جدى يعتبرها بالتأكيد بعيدة التصديق ومع ذلك فقد كان لها الصدق الواضح للاشياء المكتوبة . وكانت الأشخاص تظهر دون استئذان وتتحاب وتنفصل وتتقاتل ؛ وكان الباقى على قيد الحياة يذبل كمدا ويلحق فى القبر بالصديق وبالخليلة الحنون التى اغتالها توا ، ما الذى كان يجب على أن أفعله ؟ هل كنت مدعوا كالأشخاص الكبار إلى اللوم والتهنئة والغفران ؟ ولكن هؤلاء الشواذ لم يكن يبدو عليهم أنهم يسيرون على مبادئنا . ودوافعهم ، حتى عندما كانوا يقدمونها ، لم أكن أدركها فبروتوس يقتل ابنه وهذا ما يفعله ماتيو فالكونيه [1] أيضا .

(١) بطل إحدى قصص الأديب الفرنسى بروسبير ميريمى (المترجم)

فهذه العادة كانت تبدو مألوفة بقدر كاف . ومع ذلك فإن أحدا من حولى لم يلجأ إليها . لقد اختلف جدى حين كنا فى مودون مع خالى اميل وسمعتهما يصرخان فى الحديقة : ولكن لم يكن يبدو أنه فكر فى قتله . كيف كان جدى يدين الآباء الذين يقتلون أولادهم ؟ أما أنا فكنت أمتنع عن الادلاء برأيى : خياتى لم تكن فى خطر لأنى كنت يتيما وهذه الاغتيالات الاستعراضية كانت تسلينى بعض الشىء ، ولكن فى القصص التى كانوا يؤلفونها عنها ، كنت أشعر بموافقة محيرة . وبالنسبة لهوراس كنت مضطرا إلى مقاومة نفسى كى لا أبصق على الصورة التى تظهره لابسا خوذته ، شاهرا سيفه ، جاريا خلف كامى السكينة . وكان كارل يدندن أحيانا :

ليس هناك أقرب
من الأخ والأخت طبعا . .

كان ذلك يقلقنى . ولو أن الحظ أعطانى أختا ، لكان من الممكن أن تكون أقرب إلى من آن مارى ؟ من كارليمامى ؟ إذن لأضحت حبيبتى ، و « حبيبتى » لم تكن بعد إلا كلمة غامضة كنت أصادفها كثيرا فى مآسى كورنيى . أحباء يقبلون بعضهم بعضا ويتواعدون أن يناموا فى نفس السرير (عادة غريبة : ولم لا ينامون فى سريرين متشابهين كما أفعل أنا وأمى ؟) . لم أكن أعرف أكثر من ذلك ، ولكن تحت السطح المضىء للفكرة ، كنت أشعر مقدما بكتلة مشعرة لو كنت أخا لغدوت ابن سفاح على أى حال . كنت أحلم بذلك . ولكن هل هو هروب أو اخفاء لشعور

ممنوع ؟ قد يكون ذلك . وكانت لى أخت أكبر ، هى أمى ، وكنت أتمنى أن تكون لى أخت أصغر . وحتى اليوم — ١٩٦٣ — أرى أنه الرباط العائلى الوحيد الذى يحرك شجونى[1] . لقد اقترفت الخطأ الكبير بأن بحثت كثيراً بين النساء عن تلك الأخت التى لم تكن : وقد حكم بعدم صحة دعواى وبدفع المصاريف . وهذا لا يمنع أننى ، وأنا أخط هذه الأسطر ، أبعث الغضب الذى انتابنى على قاتل كامى ؛ إن غضاضتها الزائدة وحيويتها الفائقة جعلتانى أسائل نفسى عما إذا كانت جرعة هوراس إحدى أسباب عداوتى للعسكرية : إن العسكريين يقتلون أخواتهم . ولو كنت حاضراً لأذقته المر هذا الجندى الفظ الغليظ . وأول ما أفعله أربطه إلى عمود وأفرغ فى جسمه اثنتى عشرة رصاصة ! وأدرت الصفحة ؛ إن حروفا مطبعية تبرهن لى على خطئى : فلابد من اطلاق سراح قاتل أخته . ولبضع دقائق أخذت أنفخ وأضرب الأرض بقبقابى كالثور المخدوع . ثم كنت أسرع إلى رمى الرماد على غضبى . كان الأمر كذلك ؛ وكان على أن أخضع له إذ كنت صغيراً جداً وكنت قد فهمت كل شىء بالمقلوب

---

(١) عندما كنت فى حوالى العاشرة كنت أتلذذ بقراءة « عابرات المحيطات » : حيث نجد أمريكيا صغيرا وأخته غاية فى البراءة . كنت أتجسد الصبى وأحب خلاله « بيدى » الفتاة الصغيرة . وقد فكرت طويلا فى كتابة قصة عن طفلين ضائعين وابنى سفاح سرا . وتوجد فى كتاباتى آثار هذه الرؤية : أورست والكترا فى « الذباب » ، بوريس وايفيش فى « طرق الحرية » وفرانتز وليني فى « سجناء التونة » . إن الزوج الأخير هو وحده الذى انتقل إلى العمل . إن ما كان يغرينى فى هذا الرباط العائلى هو تحريم المضاجعة أكثر من اغواء الحب : نار وجليد ، لذة ممزوجة بالحرمان ، وكان السفاح يروق لى إذا ما ظل عذريا .

إن ضرورة هذه التبرئة كانت موجودة بالذات فى الأبيات الكثيرة التى ظلت أمامى مغلقة أو التى تركتها لنفاد صبرى . كنت أحب هذا الشك وأحب أن تفلت منى القصة من كل جهة : كان ذلك يحيرنى . لقد أعدت قراءة الصفحات الأخيرة من رواية « مدام بوفارى » عشرين مرة ؛ وفى النهاية حفظت عن ظهر قلب صفحات كاملة دون أن يكون سلوك الأرمل المسكين أكثر وضوحا لى : لقد وجد خطابات ، ولكن هل هذا سبب تركه لحيته تنمو ؟ إنه يلقى نظرة غامضة على رودولف ، فهو يحقد عليه إذن — ولماذا يحقد عليه بالفعل ؟ ولماذا قال له : « إنى لا أحقد عليك » ولماذا كان رودولف يجده «مضحكا ودنياً بعض الشيء » ؟ ثم يموت شارل بوفارى : هل يموت حزنا ؟ هل يموت من المرض ؟ ولماذا يفتحه الطبيب وقد انتهى كل شيء ؟ كنت أحب هذه المقاومة الصلبة التى لم أتمكن قط من القضاء عليها ؛ ولما كنت مخدوعا وعاجزا ، فقد تذوقت لذة الفهم دون فهم ، هذه اللذة الغامضة : إنها بطء فهم الناس ؛ إن القلب الانسانى الذى كان جدى يتكلم عنه بطبية خاطر مع العائلة كنت أجده فارغا وبلا طعم فى كل مكان ما عدا فى الكتب . إن أسماء مصدعة كانت تكيف أمزجتى وتلقى بى فى جو من الرعب أو من الحزن لا أعرف أسبابه . كنت أقول « شاربوفارى[1] » ولم أكن أرى فى أى مكان رجلا طويل القامة ذا لحية يتنزه فى أسماله داخل حظيرة . ولم يكن ذلك محتملا . كان يوجد فى منبع هذه اللذة القلقة مزيج من خوفين متناقضين . كنت أخشى أن أسقط على رأسى فى عالم خرافى وأن أتوه فيه بلا انقطاع ، بمصاحبة

---

(١) بدلا من شارل بوفارى (المترجم)

هوراس وشاربوفارى ، دون أمل فى أن أعثر على شارع لوجوف وعلى كارليمامى ولاعلى أمى . ومن جهة أخرى ، فقد اكتشفت أن هذه الجمل المتتابعة تقدم للقراء البالغين معانى تتوارى عنى. ومن عينى كنت أدخل فى برأسى كلمات سامة ، أغنى بكثير مما أعلم ؛ إن قوة غريبة كانت تعيد تكوين حزن هائل فى نفسى هو حطام حياة ، وذلك بكلام عن قصص هائجين لاتتعلق بى : ألن أفسد نفسى وأموت مسموما ؟ ولما كنت أمتص الكلمة وتمتصنى الصورة ، فانى لم أكن أنقذ نفسى أخيراً إلا بتناقض هذين الخطرين الآنيين . وعند جنوح النهار ، وأنا تائه فى غابة من الكلام ، أرتعد لأدنى صوت وأظن طقطقة الأرضية الخشبية أصوات تعجب ، كنت أعتقد أنى اكتشفت اللغة فى حالتها الطبيعية ، دون الناس . وبأى عزاء جبان وبأية خيبة أمل أجد الابتذال العائلى حين تدخل أمى وتضىء الغرفة وهى تصيح : « ياحبيبى المسكين إنك تقلع عينيك ! » وكنت أقفز على قدمى ، شاردا ، وأصيح وأعدو ، وأهرج . ولكن حتى فى هذه الطفولة التى أعدتها ، كانت هذه الأسئلة تقلقنى: عم تتحدث الكتب ؟ من الذى يكتبها ولماذا ؟ بحت بقلقى إلى جدى الذى رأى — بعد تفكير — أن الوقت قد حان لتحررى وقد قام بهذه المهمة على أحسن وجه الشىء الذى طبعنى بطابعه .

كان يهدهدنى طويلا على ساقه الممدودة وهو يغنى : « أنا راكب حصانى الصغير وحين يخب يضرط » وكنت أضحك من الفضيحة ، ولم يعد يغنى : وأجلسنى على ركبتيه ونظر إلى فى أعماق عينى وكرر جهاراً « أنا انسان ، أنا انسان وكل ما هو انسانى ليس غريباً على . » وكان يغالى كثيراً : وكما فعل أفلاطون فى الشاعر ، فقد طرد كارل من جمهوريته

المهندس والتاجر كما طرد الضابط على الارجح . إن المصانع كانت تشوه المناظر الطبيعية ، ولم يكن يذوق من العلوم البحتة سوى تفاوتها . وفى جرينبى حيث كنا نقضى النصف الثانى من شهر يوليو ، كان خالى جورج يصحبنا لزيارة السابك : وكان الجو حارا وكان رجال غلاظ فى ملابس رثة يدفعوننا ؛ وكنت أموت من الخوف والملل وقد أصمت أذنى أصوات هائلة ؛ وكان جدى ينظر إلى المعدن المنصهر وهو يصفر تأدبا ولكن عينه كانت كالميتة . ولكن فى الأوفرنى ، فى شهر أغسطس ، كان يتجول باحثا خلال القرى وكان يقف أمام الأبنية القديمة ويضرب الطوب بطرف عصاه ، ويقول لى بحرارة : « إن ما تراه هنا ياصغيرى هو حائط غالى — رومانى . » وكان يقدر كذلك الفن المعمارى الدينى وعلى الرغم من مقته لأتباع البابا لم يكن يفوته قط دخول الكنائس حين تكون على الطراز القوطى أو طراز القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، كان ذلك موقوفا على مزاجه . لقد انقطع عن الذهاب إلى حفلات الكونسير ولكنه كان يحضرها : فقد كان يحب بتهوفن وأبهته وأوركستراه الكبيرة ؛ وكان يحب باخ أيضاً ولكن بدون اندفاع . ويقترب أحيانا من البيانو ويوقع بأصابعه اليابسة بعض التوافقات الموسيقية وهو واقف : وكانت جدتى تقول بابتسامة مكتومة : « إن شارل يؤلف . » وكان ولداه — وخاصة جورج — قد أصبحا عازفين مجيدين يكرهان بتهوفن ويفضلان موسيقى الحجرة ؛ ولم يكن جدى يتضايق من اختلاف وجهات النظر هذه ؛ وكان يقول بلهجة تنم عن الطيبة : « إن عائلة شفايتزر ولدت موسيقية . » وبعد

ثمانية أيام من مولدى حين بدا منى أننى مسرور من قرع ملعقة ، قرر أن لدى أذنا موسيقية .

إن نوافذ الكنائس المزخرفة بالزجاج الملون والأقواس والأبواب المنحوتة والأناشيد ومناظر صلب منحوتة فى الخشب أو فى الحجر والتأملات الشعرية والإنغام الشاعرية ، كل هذه الانسانيات كانت تخلق فينا الاحساس بالقداسة وفضلا عن ذلك كان لا بد من الجمال الطبيعى . إن روحا واحدة كانت تشكل أعمال الله والأعمال الانسانية العظيمة ؛ إن قوس قزح كان يلمع فى زبد الشلالات ويتراقص بين أسطر فلوبير ويلمع فى لوحات رامبرانت التى يضفى السواد المحيط بشخوصها البيضاء مزيداً من اللألاء : تلك هى الروح ، الروح التى تحدث البشر عن الله وتجلو لهم وجوده . وكان جدى يرى فى الجمال الوجود المادى للحقيقة ومصدرا لأعلى سمو . وفى بعض الأحوال الاستثنائية — حين كانت تنفجر عاصفة فى الجبل ، وحين كان يلهم فيكتور هوجو — كنا نستطيع الوصول إلى النقطة السامية حيث تختلط الحقيقة والجمال والخير بعضها ببعض .

لقد وجدت دينى : ولم يبد لى أن هناك ما هو أهم من الكتاب : كنت أجد فى المكتبة معبداً ، ولما كنت حفيد قسيس ، فكنت أعيش على سقف العالم ، فى الطابق السادس جاثما على أعلى فرع من الشجرة الأساسية : وجزعها ، هو قفص المصعد . وكنت أروح وأغدو على الشرفة وأرمى المارة بنظرة عمودية ، وأحيى من خلال القضبان لوسيت مورو ، جارتى ، التى كانت فى سنى وشعرى

الأشقر الجعد وأنوثتى الصغيرة ، وكنت أدخل فى الكوة أو فى المدخل ولا أزل أبدا : وحين كانت أمى تصحبنى إلى حديقة اللوكسومبورج — أى كل يوم — كنت أعير ملابسى المزقة للجهات السفلى ولكن جسدى المجيد لم يكن يترك مجثمه ، وأعتقد أنه لا يزال هناك . ولكل انسان مكانه الطبيعى ؛ ولا يحدد ارتفاعه الكبرياء أو القيمة : إن الطفولة هى التى تقرر ذلك . ومكانى هو طابق سادس فى باريس يطل على أسطح المنازل . لقد اختنقت زمنا طويلا فى الوديان وأثقلت السهول كاهلى : وكنت أجر رجلى على كوكب المريخ وكان الثقل يسحقنى ؛ ويكفينى أن أتسلق إحدى الروابى ليعاودنى السرور : وكنت أعود إلى طابقى السادس الرمزى ، واستنشق فيه من جديد هواء الآداب النادر ، وكان الكون يتدرج عند قدمى وكل شىء كان يطلب بتواضع اسما ، واعطاؤه اياه كان يعنى خلقه وأخذه فى وقت معا . ولولا هذا الوهم الأساسى لما كتبت أبدا .

واليوم ٢٢ أبريل سنة ١٩٦٣ أصحح هذا المخطوط فى الطابق العاشر من منزل جديد : ومن نافذة مفتوحة أرى مقبرة ، وباريس وتلال سان كلو الزرقاء . مما يدل على عنادى . ومع ذلك فكل شىء قد تغير . فعندما كنت طفلا ، هل كنت أريد أن أستحق هذا المركز العالى ، لا بد أن فى حبى لابراج الحمام أثراً للطموح والزهو وتعويضاً لقامتى القصيرة . ولكن لم يكن الأمر أن أتسلق على شجرتى المقدسة فقد كنت فوقها وكنت أرفض النزول ، ولم يكن الأمر أن أضع نفسى فوق الناس : كنت أريد أن أعيش فى وسط الأثير ، بين الأشباح الهوائية للأشياء . وبعد ذلك ، وبدون أن أتشبث عناطيد ، بذلت كل همتى فى الغوص : وكان لا بد من

ارتداء نعال من رصاص . وحدث لى أحيانا أن مسست بالصدفة ، على رمال جرداء ، أنواعا فى قاع البحار وكان على أن أبتكر لها اسما . وفى مرات أخرى ، بلا فائدة : كانت خفة لا تقهر تمسكنى عند السطح . وفى النهاية ، انكسر ميزان قياس الارتفاع عندى ، فأنا تارة بهلوانا وتارة غطاساً ، وكثيراً ما أكون كليهما كما هو لا ثق فى جهتنا : وأسكن الهواء بالعادة وأتدخل فى شئون الدنيا دون أمل كبير .

ولكن كان لا بد له أن يحدثنى عن المؤلفين . لقد فعل جدى ذلك بفطانة وبدون حرارة . لقد علمنى أسماء هؤلاء الرجال العظام ؛ وكنت أتلو قائمتهموحدى من هزيود[1] إلى هوجو دون أن أخطىء مرة واحدة: وكان هؤلاء الرجال العظام هم القديسين والأنبياء . وكان شارل شفايتزر يقول إنه يخصهم بنوع من العبادة . ولكنهم كانوا يضايقونه : فان وجودهم المزعج كان يمنعه من أن يسند إلى الروح القدس رأسا أعمال الانسان . لذا كان يفضل سرا المجهولين والبنائين الذين تواضعوا وتواروا خلف كاندرائياتهم والعدد الذى لا يحصى من مؤلفى الأغانى الشعبية . ولم يكن يكره شكسبير الذى لم تكن شخصيته قد ثبتت ، وللسبب نفسه لم يكن يكره هوميروس ولا بعض المؤلفين الآخرين الذين لم يتأكد وجودهم تماماً . وكان يلتمس الأعذار لهؤلاء الذين لم يشاءوا أو لم يعرفوا أن يمسحوا آثار حياتهم ، على شرط أن يكونوا قد ماتوا . ولكنه كان يدين معاصريه بالجملة باستثناء أناتول فرانس وكورتلين الذى كان يبهجه . وكان

---

(١) شاعر اغريقى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد (المترجم) .

شارل شفايتزر يتمتع فخورا بالاحترام الذى كان الناس يكنونه لسنه الكبير ولثقافته وجماله وفضائله . إن هذا اللوثيرى لم يكن يمنع نفسه من التفكير ، حسب التوراة ، فى أن الله قد بارك بيته . وعلى المائدة ، كان يفرغ لنفسه أحياناً لينظر إلى حياته نظرة فيها بعض التعجرف ويختم قائلا: « كم هو جميل ، يا أولادى ، ألا نجد ما نأخذه على أنفسنا . » وإن احتداده وعظمته وكبرياءه وحبه للسمو كانت تغطى خجلا عقلياً سببه دينه وعصره والجامعة وبيئته . ولهذا السبب كان يكن كراهية سرية للغيلان المقدسة التى فى مكتبته ، هؤلاء الأشرار الذين يعتبر كتبهم مجونا فى قرارة نفسه . وكنت مخطئا فى ذلك : فان التحفظ الذى كان يبدو تحت حماس متكلف ، كنت آخذه على أنه قسوة قاض ؛ إن كهنوته كان يرفعه فوقهم . وكان رجل الدين يهمس فى أذنى أن العبقرية ليست على أى حال سوى قرض : ولابد من استحقاقه بعذابات كبيرة وبتجارب تجتاز بتواضع وثبات ؛ وينتهى بنا الأمر بأن نسمع أصوات وعلى علينا ما نكتبه . وبين الثورة الروسية الأولى والنزاع العالمى الأول وبعد وفاة مالارميه(١) بخمس عشرة سنة وفى الوقت الذى كان دانيل دى فونتانان يكتشف « الأغذية الأرضية (٢) » كان رجل من القرن التاسع عشر يفرض على حفيده الأفكار التى سادت عصر الملك لويس فيليب . وهكذا تفسر العادات الريفية ، كما يقولون ؛ فالآباء يذهبون إلى الحقول تاركين أولادهم

---

(١) شاعر فرنسى توفى سنة ١٨٩٨ زعيم المدرسة الرمزية فى الشعر. (المترجم)

(٢) رواية من تأليف اندريه جيد (المترجم)

فى أيدى الأجداد . لقد انطلقت متأخراً ثمانين سنة . هل يجب على أن أشكو من ذلك ؟ لا أعرف : إن فى مجتمعاتنا المتحركة يعطى التأخير أحيانا بعض التقدم . ومهما يكن الأمر لقد ألقوا لى بهذه العظمة لأقرضها وقمت بقرضها جيدا بحيث أصبحت أرى الضوء من خلالها . وكان حدى يتمنى سراً أن يجعلنى أكره الكتاب ، هؤلاء الوسطاء وحصل على النتيجة العكسية : فقد خلطت بين الموهبة والاستحقاق . إن هؤلاء الناس الطيبين كانوا يشبهوننى : حين كنت عاقلا جدا وحين كنت أتحمل بشجاعة آلامى ، وكنت استحق أغصان الغار أو مكافأة ؛ ولكن تلك كانت الطفولة . وكان كارل شفايتزر يرينى أطفالا آخرين ، روقبوا مثلى ، ومروا بمحن وكوفئوا ، وعرفوا كيف يحتفظون طول حياتهم بسنى . ولما كنت بلا أخ ولا أخت وبلا أصحاب ، فقدجعلتهم أصدقائى الأول . لقد أحبوا وتعذبوا عذابا مريراً ، مثل أبطال رواياتهم واتهوا على الأخص نهاية طيبة ؛ كنت أتذكر آلامهم بشفقة تشوبها بعض البهجة : كم كان سرور هؤلاء الأتراب حين كانوا يشعرون بشدة تعاستهم : وكانوا يقولون فى أنفسهم : « باللحظ ! إن بيتا جديداً سوف يولد ! » .

٥

إنهم فى نظرى لم يموتوا ، أو لم يموتوا تماما لقد تحولوا إلى كتب . إن كورنيى كان ضخما ، أحمر الوجه ، خشنا ذا ظهر من جلد تنبعث منه رائحة الصمغ . إن هذا الشخص غير المريح والقاسى ذا الكلام الصعب كانت له زاويا تدمى فخذى حين كنت أقوم بنقله ولكن ما أن أفتحه حتى يقدم لى صوره المظلمة الرقيقة كأنها اعترافات . وكان فلوبير صغيراً مبطنا بقماش ، لا رائحة له ، ومنقطا ببقع نخالة . وفكتور هوجو المتعدد

الأجزاء كان معشأً على كل الأرفف معا . ذلك بالنسبة للأجسام ؛ أما بالنسبة للأرواح ، فقد كانت تتردد على المؤلفات : وكانت الصفحات نوافذ ، ومن الخارج كان وجهها ملتصقا بازجاج ، إن أحدا يراقبنى ؛ وكنت أتظاهر بأنى لا ألاحظ شيئا واستمر فى قراءتى ، وقد تعلقت عينى بالكلمات تحت نظرة المرحوم شاتوبريان الثابتة . إن هذا القلق لم يكن يستمر : وباقى الوقت كنت أعبد رفقائى فى اللعب . لقد وضعتهم فوق كل شىء ، وقد حكوا لى دون أن أتعجب أن شارل الخامس التقط فرشاة تزيانو(١): وما الغرابة فى ذلك ! أليس هذا هو عمل الأمير ؟ ومع ذلك فلم أكن أحترمهم : ولماذا أمدحهم لأنهم عظام ؟ كانوا لا يقومون إلا بواجبهم. وكنت ألوم الآخرين لأنهم صغار . وبالاختصار لقد فهمت كل شىء على العكس واتخذت من الاستثناء قاعدة: لقد أصبح النوع الانسانى لجنة محددة محاطة بحيوانات ودودة . خاصة وأن جدى كان يعاملهم معاملة سيئة للغاية كى آخذهم على محمل الجد تماما . لقد كف عن القراءة منذ وفاة فكتور هوجو ؛ وعندما لم يكن لديه عمل آخر كان يعيد القراءة . ولكن مهمته كانت الترجمة . ففى حقيقة قلبه كان مؤلف « المطالعة الألمانية » يعتبر الآداب العالمية مادته . وكان يرتب باحتقار المؤلفين حسب استحقاقهم ، ولكن هذا التدرج الظاهرى كان لا يخفى تفضيله جداً هذا التفضيل النفعى : فموباسان كان يقدم للتلاميذ الألمان أفضل نصوص الترجمة . إن جوته الذى يتفوق على جوتفريد كيلر بقليل ، لا يبارى بالنسبة للنصوص الألمانية الواجب ترجمتها إلى الفرنسية : ولما كان جدى إنسانيا فانه كان

---

(١) مصور إيطالى توفى سنة ١٥٧٦ (المترجم)

قليل التقدير للروايات ؛ ولكونه مدرسا فإنه كان يقدرها بشدة من أجل المفردات . وانتهى الأمر به إلى أنه أصبح لايحتمل إلا المقطوعات المنتخبة. ورأيته بعد بضع سنوات يتلذذ بنبذة من « مدام بوفارى » اقتطعها ميرونو لكتاب « مطالعاته » بينما كان فلوبير كاملا ينتظر منذ عشرين سنة إرادته المستبدة . وكنت أشعر بأنه كان يعيش من الأموات ، الشيء الذى كان يعقد صلاتى بهم : فبحجة أنه يحترمهم إلى حد العبادة ، فإنه كان يكبلهم بسلاسله ولم يكن يمنع نفسه من تقطيعهم إلى شرائح لينقلهم من لغة إلى أخرى بطريقة أكثر سهولة. واكتشفت فى الوقت نفسه عظمتهم وبؤسهم. وكان ميريميه لسوء حظه يناسب الفصول المتوسطة ؛ فكان يعيش لذلك حياتين : فى الطابق الرابع من المكتبة ، كانت « كولومبا »(١) حمامة غضة ذات مائة جناح ، باردة ومعروضة ولكنها مجهولة بانتظام ، ولم تنتهكها أية نظرة قط . ولكن على الرف السفلى كانت هذه العذراء نفسها محبوسة فى كتاب صغير قذر بنى اللون ، كريه الرائحة ؛ ولم تتغير لا القصة ولا اللغة ولكن كانت فيها شروح بالألمانية وقاموس ؛ وفضلا عن ذلك فقد علمت أنه نشر فى برلين ، وهى فضيحة لاتعد لها فضيحة منذ اغتصاب الألزاس واللورين . وكان جدى يضع هذا الكتاب مرتين فى الأسبوع فى حقيبة كتبه ، لقد غطاه بالبقع وبالخطوط الحمراء وبالحروق وكنت أكرهه : إنه ميريميه مهان . وكنت أموت من الملل بمجرد فتحه : إن كل مقطع كان ينفصل تحت نظرى كما كان يحدث بالمعهد فى فم جدى . ما هى هذه الإشارات المعروفة والتى تعرف بجهد ، المطبوعة فى ألمانيا ليقرأها ألمان سوى تقليد

---

(١) إحدى قصص ميريميه (المترجم) .

للكهانات فرنسية ؟ إنها قضية جاسوسية أخرى : كان يكفى أن نكحت لنكتشف خلف تكررها الغالى(١) ألفاظا جرمانية كامنة . وانتهى بى الأمر إلى سؤال نفسى عما إذا لم يكن هناك « كولومبتان » ، الواحدة متوحشة وحقيقية والأخرى منحولة وتعليمية كما يوجد ايزولتان(٢) .

إن شقاوة أصحابى الصغار اقنعتنى بأنى ندهم . ولم تسكن لى مواهبهم ولا أفضالهم ، ولم أكن قد شرعت بعد فى الكتابة ، ولكنى لما كنت حفيد قسيس فقد كنت متفوقا عليهم بمولدى ؛ لاشك أنى كنت مكرسا لا لاستشهادهم الذى كان فاضحا بعض الشىء فى كل الأحوال ولكن لبعض الكهانة ؛ سأكون ديدبان الثقافة كشارل شفايتزر . كما كنت أنا حيا ، وشديد النشاط : ولم أكن أعرف بعد تقطيع الأموات ، ولكنى كنت أفرض عليهم نزواتى : كنت آخذهم على ذراعى وأحملهم وأضعهم على الأرضية الخشب وأفتحهم وأقفلهم ، كنت أسحبهم من العدم لأعيد غمسهم فيه : لقد كانوا دمياتى ، هؤلاء الناس الناقصون ، وكنت مشفقا على هذا الخلود البائس المشلول الذى يسمونه خلودهم . كان جدى يشجع هذه الدالة : إن كل الأطفال ملهمون ولا يستطيعون أن يحسدوا الشعراء على شىء ، إنهم بكل بساطة أطفال . وكنت مولعا بكورتلين(٣) ، وألاحق الطاهية فى مطبخها الأقول لها بصوت عال : « تيودور هات كبريتا » . وقد

(١) نسبة إلى بلاد الغال ، فرنسا القديمة . (المترجم)

(٢) فى قصة « تريستان وايزولت » من قصص العصور الوسطى الفرنسية ، توجد إيزولت التى يحبها تريستان ، وايزولت ذات اليدين البيضاوين خطيبة تريستان . وهى تحبه وهو لايحبها (المترجم) .

(٣) مؤلف تمثيليات مضحكة . توفى سنة ١٩٢٩ (المترجم) .

سرهم ولعبى هذا ونعته عنايتهم الزائدة به وجعلوا منه هوى معلنا .. وذات يوم قال لى جدى بعدم اكتراث : « لابد أن يكون كورتلين رجلا طيبا . لماذا لا تكتب له إذن ، مادمت تحبه بهذا القدار ؟ » وكتبت .. ووجه شارل شفايتزر قلمى وقرر أن يترك عدة أخطاء إملائية فى خطابى.. لقد أعادت بعض الصحف نشر هذا الخطاب منذ بضع سنوات وقرأته ثانية متضايقا . لقد أنهيت الخطاب بهذه الكلمات « صديقك مستقبلا » وكانت تبدو طبيعية جداً: وكانت لى دالة على فولتير وكورني؛فكيف يرفض كاتب على « قيد الحياة » صداقتى ؟ لقد رفض كورتلين هذه الصداقة وحسنا فعل : لو أنه أجاب الحفيد لوقع على الجد . وفى ذلك الوقت حكمنا على سكوته حكما قاسيا . قال شارل : « إنى أفهم أن يكون لديه عمل كثير ، ولكن حتى لو كان الأمر كذلك ، فلابد من الرد على طفل » .

واليوم أيضا ، ما زالت عندى نقيصة الدالة هذه . إنى أعاملهم وكأنهم زملائى فى المدرسة ، هؤلاء الراحلين المشهورين ، وأعبر عن ذاتى بلا مواربة عند الكلام عن بودلير وفلوبير ، وحين ألام على ذلك ، أود دائما أن أجيب : « لا تتدخلوا فى شؤوننا . إن عبقريكم كانا ملكى ، لقد أمسكتهما فى يدى وأحببتهما عن هوى وبكل وقاحة . فهل أعاملهما بمداراة ؟ » ولكن إنسانية كارل ، إنسانية رجل الدين هذه ، لقد تخلصت منها منذ اليوم الذى فهمت فيه أن كل إنسان هو كل الإنسان . كم هى حزينة حالات الشفاء : إن اللغة تخلص من الأوهام ؛ وأبطال القلم ،أترابى القدماء ، قد دخلوا الصف مجردين من امتيازاتهم : إنى ألبس الحداد عليهم مرتين .

إن ما كتبته توا لخطأ . إنه صح : لا صحا ولا خطأ كل ما يكتب عن المجانين ، عن الناس . لقد أتيت بالوقائع بالدقة التى أتيحت لذاكرتى . ولكن إلى أى حد أصدق هذيانى ؟ إنها المسألة الرئيسية ومع ذلك ، فإنى لا أقرر شيئا فيها . ورأيت بعد ذلك أنه فى الاستطاعة معرفة كل شىء عن عواطفنا عدا قوتها ، أى صدقها . إن الأعمال نفسها لن تستخدم معيارا إلا إن ثبت أنها ليست حركات، وهو أمر ليس سهلا دائما . أنظروا بالأحرى : وحدى بين البالغين ، كنت بالغا مصغرا ، وكانت قراءاتى قراءات بالغين ؟ إن ذلك ليؤذى السمع ، لأننى فى نفس اللحظة ظللت طفلا . لا أدعى أننى كنت مذنبا : لقد كان الأمر كذلك ، وهذا هو كل شىء ، ولا يمنع أن اكتشافاتى وصيدى كانت جزءا من الملهاة العائلية ، كانوا يفرحون لذلك ، وكنت أعلم : نعم كنت أعلم ، ففى كل يوم كان طفل عجيب يوقظ كتب السحر التى لم يعد جده يقرأها . كنت أعيش فوق سنى كما يعيش المرء فوق طاقته المالية : بهمة وبتعب وبثمن غال للمظهر . وما أن أدفع باب المكتبة حتى أجد نفسى فى بطن عجوز لا يتحرك: المكتب الكبير ، القرطاس الذى يوضع تحت اليدين ، بقع الحبر ، الحمراء والسوداء على النشافة ووردية اللون ، المسطرة ، إناء الصمغ ، الرائحة النتنة للطباق وفى الشتاء ، الوميض الأحمر للسمندر وقعقعة الميكا ، إنه كارل بنفسه قائم : ولم تكن الحاجة تستدعى لأكثر من ذلك لأضع نفسى فى حالة النعمة ، وكنت أجرى إلى الكتب . هل كنت أفعل ذلك بخلوص نية ؟ ما معنى ذلك ؟ كيف أستطيع أن أعين — خاصة بعد هذا العدد من السنين — الحد المتحرك الذى لا يمكن إدراكه والذى يفصل التملك

عن التهريج ؟ كنت استلقى على بطنى ، فى مواجهة النافذة وكتاب مفتوح أمامى وكوب ماء محمر إلى يمينى،وإلى يسارى قطعة خبز المربىموضوعة فى طبق . حتى فى العزلة كنت فى عرض مسرحى : لقد أدارت آن مارى وكارليماى هذه الصفحات قبل أن أولد بوقت طويل ، إن علمهم هو الذى ينبسط أمامى ؛ وفى المساء ،كانوا يسألوننى : « ما الذى قرأته ؟ وما الذى فهمته ؟ » ، كنت أعرف ذلك ، كنت فى حالة وضع ، وسوف ألد كلمة ؛ إن الهرب من الأشخاص الكبار إلى القراءة لأفضل وسيلة للاتحاد معهم ؛ وفى غيابهم كانت نظرتهم المستقبلة تدخل فى من الخلف وتخرج من الحدقتين وتحدد فى مستوى الأرض هذه الجمل التى قرئت مائة مرة والتى كنت أقرأها لأول مرة . وكما كنت مرئيا فقد كنت أرى نفسى : كنت أرى نفسى وأنا أقرأ كما يصغى المرء لنفسه وهو يتكلم . هل تغيرت كثيرا منذ الوقت الذى كنت أتظاهر فيه أننى أفك « الخط الصينى فى الصين » قبل أن أعرف الحروف الأبجدية ؟ كلا : إن اللعبة مستمرة . وكان الباب يفتح خلفى ، ويأتون ليروا « ماذا كنت أصنع » : كنت أغش ، كنت أنهض بسرعة وأعيد الشاعر موسيه إلى مكانه وأذهب فى الحال وقد وقفت على أطراف أصابعى ، رافعا ذراعى لآخذ كتاب كورنى الضخم،وكانوا يقيسون هواى بالنسبة لمجهوداتى ، وكنت أسمع خلفى صوتا مفتونا يهمس : « لأنه يحب كورنى ! » لم أكن أحبه : فالأبيات ذات الاثنى عشر مقطعا كانت تثبط همتى . ولحسن الحظ لم يكن الناشر قد طبع فى نصها الكامل إلا أشهر مآسيه ؛ ولم يكن يعطى إلا عنوان المآسى الأخرى وملخصها التحليلى : وهذا ما كان يهمنى : «إن رودلاند ،زوجة برتاريت ، ملك اللومبارديين

الذى انتصر عليه جرعوالد ، يستعجلها أونولف لتقبل الأمير الأجنبى زوجا لها ، لقد عرفت رودوجون وتيودور واجيسيلاس قبل « السيد » وقبل « سينا »،(١) كنت أملأ فمى بأسماء رنانة وأملأ قلبى بمشاعر نبيلة وأهتم بألا أتوه فى روابط القرابة . وكانوا يقولون أيضا : « إن بهذا الصغير ظمأ إلى العلم ؛ فهو يلتهم قاموس لاروس ! » وكنت أتركهم يقولون . ولكنى قلما كنت أتعلم : لقد اكتشفت أن القاموس يحوى ملخصات للتمثيليات والروايات وكنت أتلذذ بها .

كنت أحب أن أكون موضع رضى وأريد أن آخذ حمامات ثقافة : وأملأ نفسى كل يوم بما هو مقدس . ويتم ذلك عن سهو أحيانا : إذ يكفى أن أسجد وأدير الصفحات ؛ وكثيرا ما استخدمت مؤلفات أصدقائى الصغار طواحين للصلاة. وكان ينتابنى فى آن واحد خوف وسرور حقيقيان . وكان يحدث لى أن أنسى دورى وأن أسير بلا احتراس وقد جرفنى صوت مجنون ما هو إلا العالم . ولتستخلصوا النتيجة ! وعلى أى حال فإن نظرتى كانت تعالج الكلمات : ولابد من تجربتها وتقرير معناها ؛ إن كوميديا الثقافة تفقتنى على مر الأيام .

وكنت مع ذلك أقرأ قراءات حقيقية : خارج المعبد فى غرفتنا أو تحت مائدة حجرة الطعام ؛ وكنت لا أتحدث عن هذه القراءات مع أحـد ، ولا أحد كان يحدثنى عنها سوى أمى . وحملت آن مارى فورآتى المزورة

---

(١) كل هؤلاء أبطال فى مآسى كورنيى المؤلف المسرحى الفرنسى الذى عاش فى القرن السابع عشر (المترجم) .

على محمل الجد . وكشفت لجدتى عن قلقها : وكانت جدتى حليفة يوثق فيها وقالت : « إن شارل ليس معقولا . إنه هو الذى يدفع الصغير ، لقد رأيته يفعل . ما الذى نجنيه حين يهزل هذا الطفل ؟ » وذكرت المرأتان كذلك الارهاق والحمى المخية الشوكية . إن من الخطورة والعبث مهاجمة جدى من الأمام ، لابد إذن من مواربته . وخلال إحدى نزهاتنا ، وقفت آن مارى كما لو كان بالصدفة أمام الكشك الذى لايزال على ناصية شارع سان ميشيل وشارع سوفلو : لقد رأيت صورا عجيبة ، وسحرتنى ألوانها الزاهية فطلبتها وحصلت عليها ؛ وتمت اللعبة : وقد أردت الحصول كل أسبوع على مجلات « كرى كرى » ، و « المدهش » و « العطلة » و « أبناء الكشافة الثلاثة » لجان دى لاهير و « حول العالم بالطائرة » لأرنو جالوبان وكانت تظهر فى ملازم كل يوم خميس . ومن خميس إلى خميس كنت أفكر فى « نسر جبال الأنديز » وفى مارسيل دونو اللاكم ذى القبضتين الحديديتين وفى كريستيان الطيار أكثر بكثير مما كنت أفكر بصديقى رابليه وفينى . وأخذت أمى تبحث عن كتب تعيدنى إلى طفولتى : وكانت هناك أولا « الكتب الوردية » الصغيرة » وهى كتب شهرية تحوى قصص الجنيات ثم شيئا فشيئا « أبناء القبطان جرانت » و « آخر قبيلة الموهيكان » و « نيقولا نيكلبى » و « صولديات لافاريد الخمسة » . وفضلت هوس بول ديفوا على اتزان جول فرن الزائد . ولكن أيا كان المؤلف ، فكنت أعبد كتب مجموعة هتزل ، وهى عبارة عن تمثيليات صغيرة وأغلفتها الحمراء ذات الشراريب الذهبية تصور الستار : وغبار الشمس على حافة الكتب كان يصور أضواء المسرح الأمامية . إنى أدين لهذه الصناديق السحرية

— لا لجل شاتوبريان المتوازنة — مقابلاتى الأولى مع الجمال . حين كنت أفتحها أنسى كل شىء : أكانت هذه قراءات ؟ كلا ، ولكنها كانت تفانيا من شدة الإعجاب : ومن إلغاء وجودى كان لا يلبث أن يولد وطنيون مسلحون بالحراب والحشائش الاستوائية ومستكشف على رأسه خوذة بيضاء . لقد كنت رؤيا وكنت أغمر بالضوء خدى ، عودة ، الجميلين الأسمرين وسالى فيلياس فوج(١) . إن الأعجوبة الصغيرة ، وقد تخلصت من نفسها أخيرا ، كانت تترك نفسها لتصبح إعجابا خالصا . وعلى ارتفاع خمسين سنتيمترا من الأرضية الخشبية كانت تولد سعادة كاملة بلا سيد ولا طوق . وكان العالم الجديد يبدو أولا أشد إقلاقا من القديم : فالنهب والقتل قائمان فيه ؛ والدم يجرى أنهاراً إن هنوداً وهندوساً وموهيكان وهوتنتو يخطفون الفتاة ويقيدون أباها العجوز ويتواعدون على إزهاق روحه بتعذيبه تعذيبا يشيب لهوله الولدان . وكان الشر خالصا . ولكنه لم يكن يظهر إلا ليخشع أمام الخير : وفى الفصل التالى يعود كل شىء إلى حاله . إن بيضاً شجعانا يذبحون مئات المتوحشين ويقطعون قيود الأب الذى يلقى بنفسه بين ذراعى ابنته . إن الأشرار هم وحدهم الذين يموتون — وكذلك بعض الأخيار الثانويين الذين يأتى موتهم بين الأحداث غير المتوقعة من القصة . وفضلا عن ذلك كان الموت مطهراً : فقد كانوا يسقطون مبسوطى الذراعين وبثقب صغير مستدير تحت الثدى الأيسر أو — إذا كانت البندقية لم تخترع بعد — كان المذنبون « يموتون بحد السيف » . وكنت أحب هذا التركيب

---

(١) بطل رواية « حول الأرض فى ثمانين يوما » للكاتب الفرنسى جول فرن (المترجم) .

الجيل : وأتخيل هذا البرق المستقيم الأبيض ، هذا النصل وهو ينغرز كما لو كان فى زبد ويخرج ثانية من ظهر الخارج على القانون الذى يسقط دون أن يفقد نقطة دم واحدة — وكانت المنية تذهب أحيانا إلى حد الاضحاك : مثل هذا المغربى الذى فى قصة « ربيبة رولان » على ما أذكر ، هجم بجواده على جواد أحد الصليبيين ؛ فضربه الفارس الفرنسى على رأسه بالسيف ضربة قوية شطرته من أعلى إلى أسفل؛ إن صورة لجوستاف دوريه تصف هذه الحادثة . وكم كان المنظر مضحكا ! إن نصفى الجسم المشطورين كانا آخذين فى السقوط ويرسم كل منهما نصف دائرة حول الركاب ؛ وقد شب الجواد مندهشا (١) . وظللت عدة سنوات لا أنظر إلى هذه الصورة إلا وأضحك ملء شدقى . وكنت أمسك أخيرا بما أنا فى حاجة إليه: العدو ، المكروه ، لكنه غير مؤذ آخر الأمر ، بما أن مشروعاته لم تكن تصل إلى غرضها وحتى على الرغم من جهوده ودهائه الشيطانى ، كانت تخدم قضية الخير ؛ وكنت ألاحظ بالفعل أن العودة إلى النظام كانت مصحوبة دائما بتقدم : وكان الأبطال يكافأون ، أو يتلقون التكريم وعلامات الإعجاب والمال ؛ وبفضل جسارتهم كان غزو إقليم ونزع تحفة فنية من أبناء البلاد الأصليين ونقلها إلى متاحفنا . وكانت الفتاة تقع فى حب المستكشف الذى أنقذ حياتها ، وكل شىء كان ينتهى بزواج . لقد استخلصت من هذه المجلات ومن هذه الكتب خيالى المستقر فى أعماق : التفاؤل .

---

(١) كان الفرنسيون وغيرهم من الغربيين يقصون على أولادهم قصصا تغرس فى نفوسهم كراهية الشعوب الشرقية ويلاحظ أن سارتر يسخر من طرف خفى من هذه القصص (المترجم) .

وظلت هذه القراءات سرية زمنا طويلا ؛ ولم تكن آن مارى فى حاجة إلى تنبيهى : ولما كنت مدركا شناعة فعلتهم ، فإنى لم أقل أى كلمة عنها لجدى . كنت أتذلل ، وأمنح نفسى بعض الحريات ، وأمضى عطلات فى بيوت الدعارة ولكن لم أكن أنسى أن حقيقتى ظلت فى الهيكل .. ما جدوى الاساءة إلى الكاهن بقصة ضلالى ؟ وانتهى الأمر بكارل أن فاجأنى ؛ وغضب من المرأتين اللتين انتهزتا لحظة توقفه ليستريح لتلقيا على كل الوزر : لقد رأيت المجلات وقصص المغامرات واشتهيتها وطلبتها ، فهل كان فى إمكانهما أن ترفضاها ؟ إن هذه الأكذوبة البارعة أحرجت جدى : لقد كنت أنا ، أنا وحدى الذى يخدع كولومبا مع تلك العاهرات اللواتى بالغن فى طلاء وجوههن بالمساحيق . أنا الطفل النبوى وكاشفة الغيب الشابة، والياسين[1] الأدب وكنت أظهر ميلا مجنونا إلى العار . وعليه أن يختار : أو أن أكف عن التنبؤ أو أن يحترموا أذواقى دون أن يحاولوا فهمها . لو كان شارل شفايتزر أباً لحرق كل شىء ؛ ولكنه كان جدا فاختار التسامح الحزين . ولم أكن أطلب أكثر من ذلك وأكملت حياتى المزدوجة بسلام . ولم تكف أبداً : وحتى اليوم أفضل قراءة كتب « السلسلة السوداء[2] » على كتب ونجنشتين[3] .

---

(١) أحد أشخاص مأساة أتالى لراسين . إن ألياسين هو الاسم الذى أعطى لجواس الأمير الذى رباه سرا «جواد» كبير الكهنة ليحميه من غضب أتالى (المترجم) .

(٢) روايات بوليسية (المترجم) .

(٣) فيلسوف نمساوى ولد فى فيينا سنة ١٨٨٩ وتوفى فى كمبردج سنة ١٩٥١ ، قام بالتدريس بجامعة كمبردج وكتب بحثا فى المنطق الفلسفى وغيره من البحوث ..

كنت الأول ، العديم المثال فى جزيرتى الهوائية ؛ وسقطت فى الصف الأخير عندما طبقوا على القواعد العامة .

وقرر جدى أن يلحقنى بليسيه مونتنى . وصحبنى ، ذات صباح ، إلى المدير وأشاد له بفضائلى : ولم يكن عيبى سوى أنى متقدم جـــدا بالنسبة لسنى . وسلم المدير بكل شىء : وأدخلونى فى الصف الثامن واستطعت أن اعتقد أننى سأعاشر الأولاد الذين فى سنى . ولكن لا : فبعد تمرين الاملاء الأول ، أسرعت الادارة فى استدعاء جدى ؛ وقد عاد غاضبا كل الغضب وأخرج من حقيبة كتبه ورقة رديئة مكتوبة بخط غير مقروء وقد امتلأت بالبقع وقذف بها إلى المائدة : كانت الورقة التى قدمتها . وكانوا قد لفتوا نظره إلى الأخطاء الاملائية — « الأربن البرى يحبو الذعترا[1] » ، — وحاولوا أن يفهموه أن مكانى فى الفصل العاشر التحضيرى . وأمام « الأربن البرى » أغرقت أمى فى الضحك ؛ وأوقفها جـدى بنظرة رهيبة . وبدأ يتهمنى بسوء النية وبتبكيتى لأول مرة فى حياتى ، ثم أعلن أنهم أنكروا صفاتى ؛ ومنذ الغد أخرجنى من الليسيه وغضب من المدير .

لم أفهم شيئا من هذا الموضوع وفشلى لم يؤثر فى : كنت طفلا من نوادر الزمن لا يعرف الإملاء . هذا كل ما فى الأمر . ثم وجدت عزلتى ثانية بلا ضجر : كنت أحب عيبى . لقد فقدت ، دون أن أنتبه إلى ذلك ، فرصة أن أصبح حقيقة : وقد كلف السيد ليفان ، وهو معلم باريسى ، أن يعطينى دروسا خاصة ؛ وكان يأتى كل يوم تقريبا . وكان جـدى قد

---

(١) الأرنب البرى يحب الزعتر .

اشترى لى مكتبا صغيرا لاستعمالى الشخصى ، عبارة عن مقعد وقمطر من الخشب الأبيض . وكنت أجلس على المقعد وكان السيد ليفان يروح ويغدو وهو يمليني . وكان يشبه فانسان أوريول[1] وكان جدى يدعى أنه ماسونيا ويقول لنا باشمئزاز الرجل الشريف الخائف المعرض لمحاولات شخص شاذ جنسيا « إنه يرسم بابهامه الثلث الماسونى على راحة يدى » . وكنت أكرهه لأنه كان ينسى أن يدللنى : وأعتقد أنه كان يعتبرنى ، لابدون سبب، طفلا متأخراً . لقد اختفى ولا أعرف السبب : ربما يكون قد كشف لأحد عن رأيه فى .

وقضينا بعض الوقت فى أركشون وأدخلت مدرستها العامة : لقد كانت مبادىء جدى الديمقراطية تقتضى ذلك . ولكنه كان يريد أيضا أن يبعدونى عن العامة . وأوصى المعلم بى بالعبارات التالية : « يا زميلى العزيز إنى أعهد إليك بأغلى ما عندى » . وكان السيد بارو يربى لحية صغيرة ويضع على عينيه نظارة من التى تثبت فى الأنف : وجاء يشرب نبيذ موسكات فى فيلتنا وأعلن عن اغتباطه بالثقة التى أولاه إياها أحد أعضاء التعليم الثانوى . وكان يجلسنى إلى قمطر خاص إلى جانب كرسى المعلم وأثناء الفسح كان يبقينى إلى جانبه . إن هذه المعاملة الخاصة كانت تبدو لى عادلة ؛ أما ما كان رأى « أولاد الشعب » زملائى فى ذلك ، فإنى أجهله : أعتقد أنهم كانوا لا يبالون به . وكان طيشهم يتعبنى وكنت أرى من النجابة أن أتضايق إلى جانب السيد بارو بينما كانوا يلعبون لعبة السباق .

---

(١) رئيس الجمهورية الفرنسية من ١٩٤٧ حتى ١٩٥٤ . (المترجم)

كنت أحترم معلمى لسببين : فهو يريد لى الخير ورائحة فمه كريهة . إن الأشخاص الكبار يجب أن يكونوا دميمين ومتغضنين ومتعبين ،وحين كانوا يأخذوننى بين ذراعيهم ، لم يكن يضايقنى أن أقهر تقززا خفيفا : مما يثبت أن الفضيلة ليست سهلة . وتوجد مباهج بسيطة ، وعامية : الجرى ، القفز ، أكل الحلوى ، تقبيل بشرة أمى الناعمة العطرة ، ولكنى كنت أقدر أكثر المباهج الدراسية والمتشابكة التى كنت أشعر بها فى مصاحبتى للرجال الناضجين : إن النفور الذى كانوا يوحون به إلى أصبح جزءاً من سحرهم : وكنت أخلط التقزز بروح الجد . وكنت مولعا بالبدع . وحين كان السيد بارو ينحنى على ، كان نفسه يفرض على ضيقا لذيذاً ، وكنت استنشق بحماس الرائحة الجاحدة لفضائله . واكتشفت ذات يوم كتابة جديدة جداً على حائط المدرسة ، فاقتربت منها وقرأت : « إن الأب بارو مغفل » . ودق قلبى حتى كاد ينفطر وسمرتنى الدهشة فى مكانى ، وكنت خائفا . « مغفل » ، إنها لا يمكن أن تكون إلا إحدى هذه « الكلمات البذيئة » التى تكثر فى أحط ألفاظ اللغة والتى لايصادفها قط طفل مهذب. ولما كانت قصيرة وفظة فقد كانت لها شناعة الحيوانات البدائية . وكان كثيراً على أن أقرأها : لقد منعت نفسى من النطق بها حتى بصوت منخفض. إن هذا الصرصار المعلق إلى الجدار ، كنت لا أريد أن يقفز فى فمى ليتحول داخل حلقى إلى بوق أسود . ولو تظاهرت بعدم ملاحظتى له لربما دخل فى ثقب بالحائط . ولكن كلما أشحت بصرى وقعت على التسمية الشائنة: « الأب بارو » وكان ما يرعبنى أكثر هو كلمة « مغفل » ، وعلى كل ، فأنا لم أكن أفعل أكثر من تخمين معناها ؛ ولكنى كنت أعرف جيداً

من كان يسمى « بالأب فلان » فى عائلتى : إنهم البستانيون وسعاة البريد وأبو الخادمة وبالاختصار كبار السن من الفقراء . هل كان أحد يرى السيد بارو ، المعلم ، زميل جدى على هيئة عجوز فقير ؟ فى مكان ما ، فى رأسى ، كانت تجول هذه الفكرة المريضة المجرمة . فى أى رأس ؟ ربما فى رأسى . ألا يكفى أن يقرأ المرء الكتابة التجديفية ليكون شريكا فى الدنس؟ لقد بدا لى فى وقت معا أن مجنونا قاسيا كان يسخر من أدبى ومن احترامى ومن حماستى ، من السرور الذى كان يدخل نفسى كل صباح وأنا أرفع قبعتى وأقول « صباح الخير يا أستاذ » وأنى كنت هذا المجنون وأن الكلمات والأفكار البذيئة تملأ قلبى. ما الذى يمنعنى مثلا أن أصرخ بملء صوتى: « إن هذا القرد العجوز تفوح رائحته كالخنزير» . وتمتمت : «الأب بارو تفوح رائحته » ، وأخذ كل شىء يدور من حولى : وهربت باكيا . ومنذ اليوم التالى وجدت احترامى للسيد بارو من جديد ، لياقته السيلولويد ولعقدة رباط عنقه التى على شكل فراشة . ولكن حين كان ينحنى على كراستى ، كنت أدير رأسى وأحبس نفسى .

وفى الخريف التالى ، قر رأى أمى على إدخالى مؤسسة بوبون . وكان على أن أصعد سلما خشبيا وأن أدخل قاعة بالطابق الأول ؛ وكان الأطفال يتجمعون فى نصف دائرة صامتين : والأمهات تراقبن المعلم وقد جلسن مستقيمات فى آخر القاعة وظهورهن إلى الحائط . وكان أول واجبات الفتيات المسكينات اللواتى كن يعلمننا هو أن يوزعن بالعدل والقسطاس كلمات المديح والدرجات التشجيعية لمجمعنا الذى يتألف من عجائب الزمان . وإذا صدر من إحداهن حركة تنم عن الملل وأظهرت أنها راضية كل الرضى عن إجابة صحيحة ، فقدت آنسات بوبون بعض التلاميذ وتفقد

صاحبتنا بالتالى مكانها . كنا ثلاثين أكاديميا تماما ولم يكن لدينا أى وقت كى نخاطب بعضنا بعضاً . وعند الخروج كانت كل أم تستولى على ولدها بعنف وتولى به دون سلام. وفى نهاية نصف العام أخرجتنى أمى من المدرسة: إن العمل فيها كان قليلا ثم إن الأمر قد انتهى بها إلى السأم لشعورها بأن جاراتها كن يلتهمنها بنظراتهن عندما يحل دورى لتلقى عبارات التهنئة . وقبلت الآنسة مارى لويز — وهى فتاة شقراء ، تضع نظارة على عينيها وتعلم ثمانى ساعات فى اليوم فى مدرسة بوبون بأجر لا يكاد يقيم أودها ، قبلت أن تعطينى دروسا خاصة فى المنزل دون علم المديرات . وكانت تقطع أحيانا تمرينات الاملاء لتخفف عن قلبها بتنهدات عميقة: وتقول لى أنها تعبة حتى الموت وأنها تعيش فى وحدة قاتلة وأنها تعطى كل شىء فى سبيل الحصول على زوج ، أى زوج . وانتهى بها الأمر هى الأخرى إلى الاختفاء : فقد ادعوا أنها لم تعلمنى شيئا ، ولكن أعتقد على الخصوص أن جدى كان يجدها شؤما . إن هذا الرجل العادل لم يكن يرفض التخفيف عن البؤساء ولكنه كان يكره دعوتهم تحت سقف بيته . لقد حان الوقت : إن الآنسة مارى لويز كانت تثبط عزيمتى . وكنت أعتقد أن الأجور تتناسب مع الاستحقاق وكانوا يقولون لى إنها مستحقة : فلم يدفعون لها هـذا الأجر المزرى ؟ وعندما يمارس المرء مهنة ، فإنه يكون جديراً وفخوراً بها وسعيداً بالعمل: وبما أن الحظ أسعدها بالعمل ثمانى ساعات فى اليوم ، فلم تتحدث عن حياتها كأنها مرض مستعص ؟ وحين كنت أنقل شكواها كان جـدى يأخـذ فى الضحك : إنها دميمة إلى الحـد الذى لا يمكن لرجل أن يقبلها . وكنت لا أضحك : فقد يولد المرء محكوما عليه ؟ وفى هذه الحالة يكونون قد كذبوا

على : إن نظام العالم يخفى فوضى لا تحتمل . وزال قلقى بمجرد إزاحتها .
فقد وجد لى شارل شفايتزر معلمين أليق . لقد كانوا أليق إلى حد جعلنى
أنساهم جميعا . وظللت وحيدا بين رجل عجوز وامرأتين حتى العاشرة
من عمرى .

إن حقيقتى وخلقى واسمى كانت فى أيدى الكبار ؛ فقد تعلمت أن
أرى نفسى بعيونهم ؛ كنت طفلا ، هذا المسخ الذى يصنعونه بتأسفاتهم ،فإذا
غابوا تركوا خلفهم نظرتهم الممزوجة بالضوء ؛ كنت أجرى وأقفز خلال
هذه النظرة التى كانت تحفظ لى طبيعة الحفيد النموذجى والتى كانت
تستمر فى إهدائى لعبى والكون . فى قمقمى الجميل ، فى روحى ، كانت
أفكارى تدور ، كان كل واحد يستطيع أن يتابع حيلها : فلا يوجد فيها
ركن مظلم واحد . ومع ذلك ، فبلا كلمات ولا شكل ولا ثبات ، كان يقين
شفاف ممزوج فى هذه الشفافية البريئة ، يفسد كل شىء : كنت دجالا .
فكيف أرائى دون أن أعلم ؟ إن الظواهر الواضحة المشمسة المكونة
لشخصيتى كانت تعلن عن نفسها بنفسها : بذلك العيب الذى يجعلنى لا أستطيع
أن أفهم تماما ولا أن أكف عن الشعور . كنت التفت إلى الأشخاص
الكبار وكنت أطلب منهم أن يكفلوا فنائلى : كان ذلك إمعانا منى فى
الدجل . ولما كان محكوما على بأن أرضى الناس ، فقد كنت أعطى نفسى
ملاحة كانت تذبل فى الحال ؛ كنت أجر سذاجتى الزائفة فى كل مكان
وأهميتى الفارغة مترقبا فرصة جديدة : كنت أعتقد أننى أمسكتها وألقى
بنفسى فى وضع فأجد فيه الميوعة التى كنت أريد الهرب منها . كان جدى
يغفو وقد التف بحرامه ، وكنت ألمح تحت شاربه الأشعث عرية شفتيه

الورديتين ، كان ذلك غير محتمل : ولحسن الحظ كانت نظاراته تنزلق وكنت أسرع لالتقاطها . وكان يستيقظ ويرفعنى بذراعيه ويقوم بتمثيل دور الحب الكبير : ولم يعد ذلك ما كنت أريد . وما الذى كنت أريده؟ كنت أنسى كل شيء ، كنت أبنى عشى فى أعشاب لحيته الكثة . كنت أدخل المطبخ وأعلن أنى أريد هز السلطة ، وكانت صيحات وضحكات عالية: « لا يا حبيبى ، ليس كذلك ! أمسك بيدك الصغيرة بشدة : هكذا ! ساعديه يا مارى ! إنه رائع » . كنت طفلا مزورا ، وكنت أمسك بسلة سلطة مزورة ، وكنت أشعر بأن أعمالى تتحول إلى حركات . وكانت المهزلة تخفى عنى العالم والناس : كنت لا أرى إلا أدوارا ومعدات ، ولما كنت أخدم عن هزل مشروعات الكبار فكيف آخذ همومهم على محمل الجد ؟ كنت أقبل مقاصدهم بتحمس عفيف كان يمنعنى من مشاطرتهم تائجها . ولما كنت غريبا عن حاجات النوع وآماله وأفراحه رأيتنى أبدد نفسى ببرود لأغريه ؛ وكان النوع جمهورى إن خطا من النار يفصلنى عنه ويلقى بى إلى منفى متكبر كان لايلبث أن يتحول إلى قلق .

والأدهى أننى كنت أتهم الكبار بأنهم يمثلون . إن الكلمات التى يوجهونها لى كانت هى الحلوى ؛ ولكنهم كانوا يتحدثون فيما بينهم بلهجة مختلفة تمام الاختلاف . ثم كان يحدث أن يحطموا عقوداً مقدسة : وكنت أمط شفتى أجمل ما يمكن ، بالطريقة التى كنت واثقا منها أشد ما يمكن وكانوا يقولون لى بصوت حقيقى : « إلعب بعيداً ، ياصغير ، إننا نتكلم » . وأحيانا أخرى كنت أشعر بأنهم يستخدموننى . وكانت أمى تصحبنى إلى حديقة اللوكسمبورج ، وكان خالى اميل ذو العلاقات السيئة بالعائلة يظهر

فجأة ، وينظر إلى أخته نظرة حزينة ويقول لها بجفاء : « إنى لست هنا من أجلك : بل كى أرى الصغير . » وكان يقول حينئذ أننى البرىء الوحيد فى العائلة ، الوحيد الذى لم يهنه قط عن قصد ولم يدنه بناء على وشايات فاسدة . وكنت ابتسم متضايقا من قدرتى ومن الحب الذى أشعلته فى قلب هـذا الرجل الكئيب . ولكن لايلبث الأخ والأخت أن يتناقشا فى شؤونهما ويعددا شكاواهما المتبادلة ؛ وكان اميل يحتد على شارل ، وكانت آن مارى تدافع عنه مع بعض التسليم ، وكانا ينتقلان فى حديثهما إلى لويز ، وكنت أمكث بين كرسيهما منسيا . ومستعدا لأن أقبل — لو كنت فقط فى السن الذى يسمح لى بفهمها — كل مبادىء اليمين التى يعلمها لى بسلوكه رجل عجوز من اليسار وهى : أن الحقيقة والخرافة شيء واحد وأنه يجب أن نمثل الهوى لنشعر به وأن الإنسان كائن مظهرى . لقـد أقنعونى بأننا خلقنا لـكى نمثل على أنفسنا،إننى أقبل التمثيل ولـكن أطالب بأن أكون الشخصية الرئيسية : ولـكن فى لحظات سريعة كانت تتركنى محطما كنت ألاحظ أننى أمثل « دورا جيلا زائفا » ، بنص ، وبتعبير كثير ، ولـكن بدون مسرح « لى » ؛ وبالاختصار كان دورى فى الحوار صغيرا بالنسبة للأشخاص الـكبار . وكان شارل يطرينى ليهدئ موته ؛ وفى نزقى كانت لويز تجد تبريرا لاظهار استيائها ، وكانت آن مارى تجد تبريرا لخضوعها . ومع ذلك ، فلولاى لقام أهل أمى بايوائها ولأسلمتها رقتها لمامى بلا حماية ، وبدونى لأظهرت لويز استياءها ، ولأبدى شارل إعجابه بجبل سرفان[1] أو بالنيازك أو بأولاد الآخرين . وكنت السبب

(١) أحد جبال الألب .

المرضى لاختلافاتهم ولمصالحاتهم ، إن الأسباب العميقة كانت فى مكان آخر فى ما كون وجنسباخ وتيفييه ، فى قلب عجوز موحل ، فى ماض يعود إلى قبل مولدى بوقت طويل . كنت أعكس لهم وحدة العائلة ومتناقضاتها القديمة ؛ وكانوا يستخدمون طفولتى البريئة كى يصبحوا ما كانوه . وعشت فى القلق : فى الوقت الذى كانت احتفالاتهم تقنعنى بأن لاشىء يوجد بدون سبب وأن لكل إنسان ، من الأكبر إلى الأصغر مكانه المعلوم فى الكون ، أما سبب وجودى أنا فإنه كان يتوارى ، لقد اكتشفت فجأة أننى أساوى الزبدة وأننى خجل من وجودى غير العادى فى هذا العالم المنظم .

لو كان لى أب لأثقلنى ببعض إصراره الدائم ، وبصنعه مبادئى من أمزجته ومعرفتى من جهله وكبريائى من حقده وقانونى من هوسه ، ولاحتل نفسى وأعطانى هذا المستأجر احترامى لنفسى . ولأسست على الاحترام حقى فى الحياة . ولقرر من وهبنى الحياة مستقبلى : ولو كنت مهندسا بالولادة لنعمت بالا مدى الحياة . ولكن لو فرض وعرف جان باتيست سارتر مصيرى لحمل سره معه ، إن أمى تذكر فقط أنه قال : « إن ابنى لن يدخل البحرية . » ولعدم وجود معلومات أدق ، لم يكن أحد يعرف ابتداء منى ما الذى جئت أفعله على الأرض . لو كان ترك لى مالا لتغيرت طفولتى ، لما كنت كتبت ، لأننى كنت سأصبح إنسانا آخر . إن الحقول والمنزل تعكس للوارث الشاب صورة ثابتة لنفسه ، إنه يلمس نفسه على حصبائه وعلى زجاج شرفته ذى الشكل المعين ويجعل من سكونهما الجوهر الخالد لنفسه . فمنذ بضعة أيام سمعت وأنا فى المطعم ابن صاحبه ، وهو طفل فى السابعة من عمره ، يصيح فى أمينة الخزينة : « حين لايكون

والدى هنا أكون أنا السيد . » هاك رجلا ! فعندما كنت فى سنه لم أكن سيد أحد ولم أكن أملك شيئا . فى دقائق طيشى النادرة كانت أمى تهمس لى : « انتبه ! إننا لسنا فى منزلنا ! » ولم نكن قط فى منزلنا : لا فى شارع « لوجوف » ولا بعد ذلك ، حين تزوجت أمى للمرة الثانية . ولم أتألم لذلك ، لأنهم كانوا يعيروننى كل شىء ، ولكننى ظللت مجرداً . إن أموال هذا العالم تعكس للمالك ماهيته ، وكانت تعلمنى ما لم أكنه : لم أكن ثابتا ولا مستديما ، لم أكن ذلك الذى يستمر فى عمل والده ، لم أكن ضروريا لإنتاج الصلب : واختصارا لم تكن لى نفس .

لو أننى عشت فى وفاق مع جسمى لكان ذلك عظيما . ولكنى كنت أؤلف معه زوجا غريبا . ففى البؤس لا يسأل الطفل نفسه : إن حالته التى ابتليت جسمانيا بالحاجات والأمراض ، هذه الحاجة التى لا مبرر لها تبرر وجوده ؛ إنها الجوع ، إنها خطر الموت الدائم اللذان يؤسسان حقه فى الحياة : إنه يعيش كى لا يموت . أما أنا ، فلم أكن غنيا بما فيه الكفاية لاعتقد أننى موعود ولا فقيرا بما فيه الكفاية لأشعر بشهواتى كأنها احتياجات . كنت أؤدى واجباتى الغذائية وكان الله يرسل لى فى بعض الأحيان — نادرا — هذه النعمة التى تسمح بالأكل دون تقزز — الشهية . وكنت أتنفس وأهضم وأخرج بلا مبالاة ، وأعيش لأننى بدأت الحياة . وكنت أجهل عنف مطالب جسدى المتوحشة : كان يعرف نفسه بسلسلة من الاضطرابات الخفيفة التى تسترعى كثيراً اهتمام الكبار . ففى ذلك العصر كان يتحتم أن يكون فى العائلة الكريمة طفل واحد على الأقل ضعيف الصحة . وكنت ذلك الطفل ، فقد فكرت فى الموت عند مولدى .

وكانوا يراقبوننى ويقيسون نبضى وحرارتى، ويضطروننى إلى اخراج لسانى: « ألا ترى أنه شاحب بعض الشىء ؟ » « إنه الضوء : » « أؤكد لك أنه تخل ! » « ولكننا وزناه أمس يا والدى . » كنت أشعر ، وأنا تحت النظرات الفاحصة ، بأننى أصبحت شيئا ، أصبحت زهرة فى أصيص. وكان ينتهى الأمر بوضعى فى السرير . وكنت أختنق من الحرارة وأحترق تحت الأغطية فأخلط بين جسمى واضطرابه : فلا أعود أعرف أيهما غير المرغوب فيه .

كان السيد سيمونو مساعد جدى يتناول الغداء معنا يوم الخميس . وكنت أحسد هذا الخمسينى بخديه اللتين تشبهان خدود البنات الذى كان يلمع شاربه ويصبغ شعره : وحين كانت آن مارى تسأله ، لتطيل الحديث إن كان يحب باخ ويعجبه البحر والجبل ، وإن كان يحتفظ بذكرى طيبة عن مسقط رأسه ، كان يفكر طويلا ويوجه نظرته الداخلية إلى كتلة ميوله الجرانيتية .. وحين كان يحصل على البيان المطلوب كان ينهيه إلى أمى بصوت موضوعى وهو يحيى برأسه . يا له من رجل سعيد ! لقد تصورته يستيقظ كل صباح فى حبور ويحصى ، من إحدى النقط العالية ، أحرفه وقممه ووديانه ثم يتمطأ بتلذذ وهو يقول : « هـذا هو أنا حقا : أنا السيد سيمونو كله . » بيد أنى كنت قادرا تماما ، حين كنت أسأل ، على الإدلاء بما أفضله من أشياء بل وتأكيده ، ولكن ، فى الوحدة ، كنت أنساها : ولما كنت بعيدا عن التثبت منها ، فقد كان لابد من أن أمسكها وأن أدفعها وأن أنفث فيها الحياة ؛ حتى إنى لم أكن متأكدا بعد إن كنت أفضل لحم ظهر الثور على لحم العجل المشوى . كم كنت على

استعداد لأن أعطى ليضعوا فى داخلى منظرا طبيعيا مضطربا ، وعزمات عنيدة حادة كقاطع الجبال . وعندما كانت السيدة بيكار تقول عن جدى مستخدمة بذوق صائب مفردات اللغة المعمول بهـا آنئذ : « إن شارل لكائن جذاب » ، أو « إننا لا نعرف الكائنات » كنت أشعر بإدانتى دون تقض . إن حصى حديقة اللوكسمبورج والسيد سيمونو وأشجار الكستناء وكارليمامى هم كائنات . أما أنا فلا . فلم يكن لدى لا الجمود ولا العمق ولا المناعة . وكنت لا شىء : شفافية لا تنمحى . ولم يعـد لغيرتى حدود يوم علمت أن السيد سيمونو ، هذا التمثال ، هذه الكتلة الحجرية الواحدة ، كان فوق ذلك ضروريا للكون .

كان هناك عيد . وفى معهد اللغات الحية ، كان الجمع يصفقون تحت اللهب المتحرك لمصباح أور[1] الغازى . وكانت أمى تعزف موسيقى شوبان والجميع يتحدثون بالفرنسية بناء على أمر جدى . فرنسية بطيئة ، حلقية وبطلاوة ذابلة وبأبهة لحن موسيقى دينى حزين . وكنت أطير من يد إلى يد دون أن ألمس الأرض ، وأختنق على صدر روائية ألمانية حين أسقط جدى من عليائه حكما أثر فى . « ينقصنا شخص هنا . إنه سيمونو » . لقد أفلتت من بين ذراعى الروائية والتجأت إلى ركن ، واختفى المدعوون وفى وسط حلقة مضطربة رأيت عمودا . إنه السيد سيمونو بذاته ، وقد غاب بلحمه وعظمه . إن هذا الغياب العجيب غير هيئته . وكان عدد الغائبين كبيراً ليكمل عدد من فى المعهـد . وكان بعض التلاميذ مرضى ، واعتذر

(١) اسم مخترع هذا النوع من الاضاءة وهو كيميائى نمساوى (المترجم)

آخرون ؛ ولـكن الأمر هنا لا يتعلق إلا بأحداث عارضة يمكن التغاضى عنها . إن السيد سيمونو هو وحده الغائب . إن مجرد لفظ اسمه كان كاف ليغرس الفراغ كسكين فى هذه القاعة الغاصة بالناس . لقـد تعجبت من أن يوضع لإنسان مكان . ومكانه هو العـدم الذى حفره الانتظار العام ، بطن لا مرئية يبدو فجأة أنه يمكن الولادة منها من جديد . ومع ذلك ، لو أنه خرج من الأرض ، وسط الهتافات ، لو أن النساء ألقين بأنفسهن على يده ليقبلنها ، لأفقت من سكرتى : إن الوجود الجسدى زائد على الدوام. ولما كان بكرا تحول إلى طهارة جوهر سلبى فإنه كان يحتفظ بشفافة الماس التى لا يمكن اعتصارها . ولما كان من نصيبى أنا أن أكون فى كل لحظة موجودا بين بعض الأشخاص ، فى مكان ما من الأرض وأن أعرف أننى زائد عليها ، أردت أن أشعر سائر الناس فى كل الأمكنة الأخرى بحاجتهم إلى مثل حاجتهم إلى الماء والخبز والهواء .

إن هذه الأمنية عادت كل يوم على شفتى . كان شارل شفايتزر يضع الضرورة فى كل مكان ليغطى حزنا لم أتبينه قط ، طالما كان على قيد الحياة وقد بدأت الآن أن أحدسه . وكان كل زملائه يحملون السماء . وكان فى عداد أطالسه[١] النحويون وفقهاء اللغة وعلماء اللسان والسيد ليون كاين ومدير « المجلة التربوية » . وكان يتحدث عنهم بوقار ليحثنا على تقدير أهميتهم « إن ليون كاين يعرف مادته . إن مكانه فى المعهد » ، أو كذلك « إن الشيخوخة تزحف على شورر ؛ آمل ألا يقترفوا حماقة إحالته على المعاش :

---

(١) اله إغريقى حكم عليه الاله زوس بأن يحمل على كتفيه قبة السماء (المترجم)

إن الكآبة لا تعرف ماسوف تفقد . » ولما كنت محاطا بشيوخ لا يمكن لأحد أن يحل محلهم ولما كانت وفاتهم القريبة ستغمر أوروبا حزنا وربما أردتها فى البربرية ، كم كنت أعطى لأسمع صوتا أسطوريا يحمل حكما إلى قلبى : « إن هذا السارتر الصغير يعرف مادته ، لو توفى ، فإن فرنسا لن تعرف ما تفقد ! » إن الطفولة البورجوازية تعيش فى أزلية اللحظة ، أى فى الجمود: كنت أريد أن أكون أطلس فى الحال ، وعلى الدوام ومنذ القدم ، وكنت كذلك لا أفهم أن فى استطاعة المرء أن يعمل ليصبح أطلسا ؛ وكان لابد لى من محكمة عليا ، من مرسوم يعيد إلى حقوق . ولكن أين القضاة ؟ إن قضاتى الطبيعيين فقدوا اعتبارهم بتمثيلهم الردىء ، لقد رددتهم ،ولكنى لا أجد غيرهم .

ولما كنت حشرة طفيلية مشدوهة ، بلا إيمان وبلا قانون وبلا عقل ولا مصير ، كنت أهرب إلى المهزلة العائلية دائرا ، جاريا وطائرا من خدعة إلى خدعة .وكنت أهرب من جسمى الذى لا مبرر له ومن نجواه الضعيفة ؛ وكالنحلة التى تصطدم بعقبة فتتوقف ، فإن المثل الصغير الشارد كان يسقط فى الذهول الحيوانى . وقالت بعض الصديقات الطيبات لأمى أننى حزين وأنهن فاجأننى وأنا أحلم ، فضمتنى أمى إليها وهى تضحك وقالت لى : « أنت المرح الذى تغنى دائما ! مم تشكو ؟ فلديك كل ما تريد . » وكانت على حق : فالطفل المدلل لايكون حزينا ، إنه يضجر كالملك . كالكلب .

أنا كلب : إنى أتثاءب ، والدموع تسيل ، إنى أشعر بها وهى تسيل . أنا شجرة ، الريح تتعلق بأغصانى وتهزها بغموض . أنا ذبابة ، أتسلق

بزجاج الشباك وأتدحرج وأعيد التسلق . وأحيانا أشعر بملامسة الزمن الذى يمضى ، وأحيانا أخرى — وهى الأكثر — أشعر بأنه لا يمضى . إن دقائق مرتجفة تسقط وتبتلعنى ولا تكف عن الاحتضار ، وتكنس حين تركد على الرغم من أنها لا تزال حية . وتحل محلها دقائق أخرى أكثر جدة ولكنها فارغة مثلها ؛ إن هذه التقرزات اسمها السعادة ؛ إن أمى تعيد وتكرر على أننى أسعد الصبية . وكيف لا أصدقها وهى تقول الحق ؟ إنى لا أفكر قط فى عزلتى ، إنه لا توجد أولا كلمة لتسميتها ، ثم إنى لا أراها : إنهم لا يكفون عن الاحاطة بى . إنها لحمة حياتى ونسيج أفراحى ولحم أفكارى .

لقد رأيت الموت . كان يترصدنى وأنا فى الخامسة ؛ وفى المساء كان يطوف على الشرفة ويلصق خطمه على الزجاج ، وكنت أراه ولكننى لم أكن أجرؤ على الكلام . وقابلناه مرة عند كى فولتير ، كانت سيدة عجوزة طويلة القامة ومجنونة ترتدى ملابس سوداء ، وهمهمت حين مرت بى : « هذا الطفل سوف أضعه فى جيبى . » وفى مرة أخرى اتخذ الموت شكل حفرة : كان ذلك فى أركشون ، وكان كارليمامى وأمى يزوران السيدة دوبون وابنها جبريل المؤلف الموسيقى . كنت ألعب فى حديقة الفيلا ، خائفا لأنهم كانوا قد قالوا لى إن جبريل مريض وأنه سيموت . وقلدت الحصان ، بدون حماس ، وجلت حول المنزل . وفجأة لمحت حفرة ظلمات : كان القبو مفتوحا ، ولا أعرف تماما أى عزلة وهول واضحين أعشيا

(١) رصيف على الضفة اليسرى لنهر السين فى باريس (المترجم) .

بصرى . وبحركة خلف در هربت وأنا أغنى بأعلى صوتى . وفى تلك الحقبة كنت على موعد معه فى سريرى ، كل ليلة . وكان طقسا : وكان على أن أنام على الجهة اليسرى وأنفى متجها إلى الحائط. كنت انتظر وجسمى كله يرتعش ويظهر لى ، هيكل عظمى تقليدى بمنجل ، ويأذن لى حينئذ أن أتقلب على الجهة اليمنى ، وكان يذهب وكنت أستطيع أن أنام هادئا . وفى النهار كنت أعرفه وهو متنكر بالملابس الأشد اختلافا : وإن حدث أن غنت أمى بالفرنسية « ملك الأولن » كنت أسد أذنى ، ولأننى قرأت « السكير وامرأته » فقد مكثت ستة أشهر دون أن أفتح حكايات لافونتين.. ولكن هذا الصعلوك لم يكن يبالى به ؛ إنى يختفى فى قصة ميريميه « فينوس أيل » وينتظر أن أقرأها لينقض على . إن الجنازات والقابر لا تقلقنى ؛ وفى حوالى ذلك الوقت مرضت جدتى لأبى وماتت ، ووصلنا أنا وأمى إلى تيفييه وقد استدعينا ببرقية حين كانت لاتزال حية . وفضلوا إبعادى عن المكان الذى كان فيه هذا الوجود الطويل التعس ينتهى من التخلص من نفسه ؛ واهتم بعض الأصدقاء بى وآوونى وليشغلونى أعطونى ألعاب مناسبة، ألعاب تعليمية مفعمة بحزن ممل . ولعبت وقرأت واجتهدت فى التظاهر بالتأمل المثالى ولكننى لم أشعر بشىء . وكذلك لم أشعر بشىء حين سرنا خلف العربة الجنائزية إلى المقابر . إن الموت كان يلمع بغيابه : إن الوفاة ليست هى الموت ، ولم أستقبح تحول هذه العجوز إلى بلاطة جنائزية ، وكان فى هذه الوفاة تحول ووصول إلى الوجود، وبالاختصار كان كل شىء يحدث كما لو كنت تحولت بأبهة إلى السيد سيمونو . ولهذا السبب ، أحببت دائما ، ولا زلت أحب المقابر الايطالية: إن الحجر فيها حزين ، إنه إنسان.

كامل غريب ، وينقش عليه نوط يحيط بصورة شمسية تذكر بالمرحوم فى حالته الأولى . وحين كنت فى السابعة كنت التقى بالموت الحقيقى ، بالزميل فى كل مكان ، ولكن لم ألتق به هنا قط . أى شىء كان الموت ؟ كان شخصاً وتهديداً . كان الشخص مجنونا ، أما التهديد فهاهو ذا : أفواه مظلمة يمكن أن تنفتح فى كل مكان ، فى رابعة النهار ، تحت أسطع شمس وتلتهمنى . وكان يوجد ظهر فظيع للأشياء ، وحين نفقد صوابنا ، كنا نراه ، إن الموت هو التطرف فى الجنون والغرق فيه . لقد عشت فى رعب كان مرضا عصبيا حقيقيا . وإذا بحثت عن سببه تبين لى ما يأتى : لما كنت طفلا مدللا ، هبة العناية ، فإن عمق عدم فائدتى كان يشتد وضوحا طالما بدت لى الطقوس العائلية ذات ضرورة مصطنعة . وكنت أشعر بأننى زائد عن الحاجة ولا بد لى أن أختفى . وكنت تفتحا تافها ، مقامة على دائما دعوى الإلغاء . وبمعنى آخر ، كان محكوما على ، وكان فى استطاعتهم تنفيذ الحكم من لحظة إلى أخرى . ولكننى كنت أرفضه بكل قواى ، لا لأن وجودى كان عزيزاً على ، ولكن لأننى لم أكن أحفل به : إن الحياة أكثر لا معقولية والموت أقل مكابدة .

لكأن الله خفف عنى الألم : ولكنت أصبحت تحفة تحمل توقيعا ؛ ولما كنت متأكدا من أنى أملأ مكانى فى المجتمع العالمى ، فقد انتظرت فى صبر أن يكشف لى مقاصده وضرورتى . كنت أشعر مقدما بالدين وكنت آمله لأنه الدواء . ولو أنهم رفضوا إعطائى إياه لقمت باختراعه بنفسى . ولكنهم لم يرفضوا : ولما كنت قد تربيت فى الإيمان الكاثوليكى ، فقد تعلمت أن الكلى القدرة قد خلقنى لمجده : وكان ذلك أكثر مما كنت

أجرؤ على أن أحلم به . ولكن ، بعد ذلك ، لم أتعرف فى الله الذى علمونى إياه على الذى كانت تنتظره روحى : كنت فى حاجة إلى خالق فأعطونى معلما عظيما ، ولم يكن الاثنان إلا واحداً ، ولكنى كنت أجهله ؛ كنت أخدم بدون حرارة الوثن الفريسى[1] وجعلنى الدين الرسمى آنف البحث عن إيمانى الشخصى.. يا للحظ ! إن الثقة والحزن جعلا من روحى أرضا طيبة لبذر بذور السماء: ولولا هذه الغلطة لكنت أصبحت راهبا .ولكن عائلتى كانت قد مست بحركة الإلحاد التى ظهرت فى البورجوازية الفولتيرية العليا والتى استغرقت قرنا لتمتد إلى كل طبقات المجتمع : ولولا هذا الضعف العام فى الإيمان لزاد صدوف لويز جيمان ، الآنسة الكاثوليكية ، التى تعيش فى الأقاليم ، عن الزواج بأحد أتباع لوثر[2] . وبالطبع كان جميع أفراد العائلة مؤمنين ولكن عن حذر . وبعد سبع أو ثمانى سنوات من وزارة كومب[3] ، كان إعلان الكفر يحتفظ بعنف وبذاءة الهوى ، وكان الكافر يعتبر شاذا ومجنونا ولا يدعى إلى العشاء خوفا من أن يتفوه بكلمة « خارجة » ، كان يعتبر متعصبا ، مثقلا بكلمات التحريم ، وهو يرفض حق الركوع فى الكنائس وتزويج بناته فيها والبكاء بحرارة ، وهو يفرض على نفسه إثبات حقيقة دينه بطهارة أخلاقه،وهو يثور على نفسه وعلى سعادته إلى حد أنه يجرد نفسه من الوسيلة التى تجعله يموت متعزيا ، إنه مهووس.

---

(١) عضو طائفة يهودية تتظاهر بالتمسك بقداعد الدين (المترجم)

(٢) أتباع مارتن لوثر المذهب البروتستانتى (المترجم)

(٣) هو اميل كومب تولى رئاسة الوزارة من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ ونادى بفصل الدين عن الدولة (المترجم) .

بالله يشاهد غيابه فى كل مكان وهو لا يستطيع أن يفتح فاه دون أن يلفظ اسمه ، وبالاختصار إنه سيد لديه براهين دينية مقنعة . إن المؤمن لم تـكن لديه هذه البراهين : فمنذ ألفى سنة كان لدى اليقين المسيحى الوقت كى يثبت وجوده . وكان هذا اليقين ملـكا للجميع ، وكان يطلب إليه أن يلمع فى نظرة قسيس فى ضوء الـكنيسة الخافت وأن يضىء النفوس ، ولـكن لا أحد كان فى حاجة إلى أخذه لحسابه ، لقد كان تراثا مشتركا . إن المجتمع الصالح كان يؤمن بالله كى لايتكلم عنه ، وكم كان الدين يبـدو متسامحا وكم كان مريحا : كان فى استطاعة المسيحى أن يترك القداس وأن يزوج أولاده زواجا دينيا وأن يبتسم للتقوى المبالغ فيها فى كنيسة سان سولبيس وأن يذرف الدمع وهو يصغى إلى «النشيد الزفافى» للوهنجرين ؛ ولم يكن يطلب منه أن يحيا حياة مثالية ولا أن يموت فى اليأس بل ولا أن يطلب حرق جثته . وفى بيئتنا وأسرتنا ، لم يكن سوى اسم استعراضى بالنسبة للحرية الفرنسية الرقيقة ، لقد عمدونى كما عمد كثيرون غيرى ، ليحافظوا على استقلالى : فبرفضهم تعميدى يخشون قسر روحى ، وبتسجيلى كاثوليكيا كنت حرا وكنت عاديا . وكانوا يقولون : « ليفعل ما يشاء بعـد ذلك . » وكانوا يرون فى ذلك الوقت أن كسب الإيمـان أصعب بكثير من فقدانه .

كان شارل شفايتزر ممثلا إلى الدرجة التى كان لايحتاج عنـدها إلى متفرج كبير . ولـكنه قلما كان يفـكر فى الله إلا فى الأوقات الحرجة ؛ ولما كان واثقاً من الإلتجاء به ساعة الموت كان يبعده عن حياته . وفى الحياة الخاصة ، إخلاصا لإقليمينا الضائعين ، وللفرح الـكبير لأعـداء

البابوية ، إخوانه ، لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يسخر من الكاثوليكية: إن أحاديثه على المائدة كانت تشبه أحاديث لوثر . وعن لورد[1] ، لم يكن معينة ينضب : لقد رأت برناديت « إمرأة طيبة كانت تغير قميصها » ؛ لقد غطسوا مشلولا فى الحوض وحين انتشلوه « كان يرى بعينيه الاثنتين » . وكان يحكى قصة حياة القديس لابر ، القمل ، وقصة القديسة مارى ألاكوك التى كانت تلتقط براز المرضى بلسانها. لقد قدمت لى هذه الأكاذيب خدمة: وكنت أميل إلى الترفع عن خيرات هذا العالم بقدر ما كنت لا أملك منها شيئا ولوجدت بلا تعب دعوتى فى املاق المريح ؛ إن التصوف يناسب الأشخاص المعزولين والأطفال الزائد عددهم عن الحد : وكى ألقى بنفسى فيه ، كان يكفى أن أقدم لنفسى المسألة من طرفها الآخر ؛ وكنت أعرض نفسى لخطر الوقوع فريسة للقداسة. لقد جعلنى جدى أكرهها إلى الأبد : رأيتها بعينيه، وهذا الجنون القاسى جعلنى أتقزز لتفاهة اختطافاتها وأرهبنى باحتقاره السادى للجسد؛ إن شذوذ القديسين قلما يعود له معنى كالانجليزى الذى غطس فى البحر وهو بلباس الاسموكنج . وكانت جدتى تتظاهر بالغضب وهى تصغى إلى هذه القصص ، وكانت تسمى زوجها « كافرا » و « بروتستانتيا » وكانت تضربه ضربات خفيفة على أصابعه ، ولكن سماحة ابتسامتها كانت لا تلبث أن تردنى إلى صوابى ؛ لم تكن تؤمن بشىء ؛ وإن شكها وحده هو الذى كان يحول بينها وبين الكفر . وكانت تحرص على عدم التدخل ؛ فقد كان « لها ربها » ولم تكن تطلب منه إلا أن يعزيها فى السر . وكانت المناقشة تستمر فى رأسى المنهك : شخص غيرى ، أخى

---

(١) يقصد أعجوبة عذراء لورد (المترجم)

الأسود كان يعترض بفتور على كل بنود إيمانى؛ كنت كاثوليكيا وبروتستانتيا كنت أجمع بين روح النقد وروح الخضوع . وفى الواقع كل ذلك كان يقتلنى : لقد انسقت إلى عدم الايمان لا بسبب تنازع العقائد ولكن بسبب لا مبالاة جدى . ومع ذلك فكنت أومن : فبقميصى ، جاثيا على ركبتى فوق السرير ، وضاما يدى . كنت أؤدى صلاتى كل يوم ولكن تفكيرى فى الله كان يتناقص. وكانت أمى تصحبنى يوم الخميس إلى معهد الأب ديبلدوس: وكنت أتلقى فيه دروساً فى الدين وسط أطفال لا أعرفهم . ولقد كان مجهود جدى فى هذه الناحية قويا إلى الدرجة التى جعلتنى أرى القساوسة وكأنهم حيوانات غريبة؛ وعلى الرغم من كونهم كهنة ديانتى فقد كانوا بالنسبة لى أغرب من الرعاة البروتستانت بسبب جلبابهم وبقائهم عزابا . وكان شارل شفايتزر يحترم الأب ديبلدوس — « إنه رجل فاضل ! » — كان يعرفه شخصيا ، ولكن عداءه للكهنة كان صارخا لدرجة جعلتنى اجتاز الباب الكبير وأنا شاعر بأنى أدخل أرض الأعداء . أما أنا فإنى لم أكن أكره الكهنة : فحين يكلموننى كانوا يرسمون على وجوههم سيماء العطف، تلك الوجوه المدلكة بالروحانية، والتى يبدو عليها مظهر التلطف المدهوش وتلك النظرة اللانهائية التى كنت أقدرها على الخصوص عند السيدة بيكار وعند غيرها من صديقات أمى الموسيقيات ؛ وكان جدى هو الذى يكرههم خلالى . كما أنه أول من فكر بأن يعهد بى إلى صديقه الكاهن ، ولكنه كان يتفرس بقلق وجه الكاثوليكى الصغير الذى كانوا يعيدونه إليه مساء الخميس ، وكان يبحث عن تقدم البابوية ولا يحرم نفسه من التهكم على . ولكن هذا الوضع المزيف لم يستمر أكثر من ستة أشهر . وذات يوم

أعطيت المعلم موضوع إنشاء باللغة الفرنسية عن « الآلام » ؛ لقد أسعد هذا الموضوع عائلتى وقامت أمى بتبييضه بنفسها . ولكنه لم ينل سوى الميدالية الفضية . وقد أوغلت فى هذه الصدمة فى الكفر . وحال مرض انتابنى والعطلة الصيفية دون عودتى إلى معهد ديلدوس ؛ وعند بداية العام الدراسى طالبت بعدم العودة إلى هذا المعهد . وخلال عدة سنوات أخرى أقمت علاقات عامة مع الكلى القدرة ؛ أما فى حياتى الخاصة فقد كففت عن معاشرته . وانتابنى مرة واحـــدة شعور بأنه موجود . ولقد لعبت بأعواد الثقاب وأحرقت سجادة صغيرة ، وكنت منهمكا فى إخفاء جريمتى وفجأة رآنى الله ، لقد أحسست بنظرته داخل رأسى وعلى يدى ، ودرت مراراً فى الحمام ، ظاهراً بوضوح ، وكأننى هدف حى . لقـد أنقذنى الغضب : وهجت على هذا التطفل المتناهى فى السماجة ، وجدفت ، وهمست كما يفعل جدى : « يا إلهى ! يا إلهى ! يا إلهى » ، وكف بعـد ذلك عن النظر إلى . . .

لقد قصصت فى التو قصة رسالة لم يكتب لها النجاح : لقـد كنت فى حاجة إلى الله فأعطونى إياه ، وقبلته دون أن أفهم أننى أبحث عنه . ولأنه لم يتأصل فى قلبى ، فقد عاش فى بعض الوقت ثم مات . واليوم حينما يحدثوننى عنه ، أقول باللهو غير الآسف لوسيم عجوز يقابل جميلة عجوز : « منذ خمسين سنة لولا سوء التفاهم هذا ، ولولا هـذا الاحتقار ، ولولا الحادث الذى فصلنا بعضنا عن بعض لكان فى الإمكان أن يحدث شىء بيننا » .

ولكن لم يحدث شىء . ومع ذلك فإن شؤونى كانت تزداد سوءا .

وكان جدى يتضايق من شعرى الطويل ويقول لأمى : «إنه صبى وستجعلين منه بنتا ؛ إنى لا أريد أن يصبح حفيدى جبانا ! » . وصمدت آن مارى ؛ إنى أعتقد أنها كانت تفضل أن أكون بنتا بحق ؛ لكانت طفولتها الحزينة العائدة قد سعدت بامتلائها بالنغم . ولما كانت السماء لم تستجب إليها ، فقد رتبت أمرها : سوف يكون لى جنس الملائكة ، غير محدد ولكنه مؤنث على الأطراف . ولما كانت حنونة فقد علمتنى الحنان ؛ وقامت عزلتى بالباقى وأبعدتنى عن الألعاب العنيفة . وذات يوم — وكنت فى السابعة — لم يستطع جدى الصبر : فقد أخذنى من يدى معلناً أنه ذاهب بى إلى نزهة . ولكن ما أن وصلنا إلى ناصية الشارع واستدرنا حتى دفعنى إلى الحلاق وهو يقول لى : « سوف نفاجىء أمك » . وكنت أعشق المفاجآت .. وكانت كثيرة عندنا . كتمان للسر بغرض اللهو أو عن فضيلة ، وهدايا غير منتظرة ، وكشف سر مسرحى يتبعه عناق : كانت هذه وتيرة حياتنا . وحين استأصلوا لى الأعور لم تقل أمى شيئا لكارل لتكفيه مؤونة القلق الذى لم يكن يشعر به على أى حال . لقد أعطى خالى أوجست المال ، وغدنا خفية من أركاشون واختبأنا فى إحدى المستشفيات الخاصة فى كوربفوا ؛ وبعد غداة العملية ، جاء أوجست لزيارة جدى وقال له : « سأعلن لك خبراً ساراً . » وخدع كارل برمية هذا الصوت الباش . « هل تتزوج ثانية ! » فأجاب خالى وهو يبتسم : « لا ، ولكن كل شىء سار على مايرام . » « ماذا تقصد بكل شىء ؟ » الخ . الخ . وبالاختصار فإن المفاجآت المسرحية كانت صلاتى اليومية الصغرى ونظرت بحسن التفات إلى شعرى المجعد وهو يتدحرج على طول الفوطة البيضاء التى كانت تضغط على رقبتى

وبسقط على الأرضية الخشب وقد أغبر دون سبب ؛ وعدت نخوراً ومجزوزاً .

وحدث صراخ ولكن لم يحدث عناق وأغلقت أمي باب غرفتها عليها لتبكي : لقد استبدلوا بنتها الصغيرة بصبي صغير . وحدث ما هو أنكى : فطالما كان شعري الجعد يتطاير حول أذني فإن ذلك كان يسمح لها بأن ترفض جلاء دمامتي . وها هي ذي عيني اليمنى تدخل في الغسق . وكان لابد لها أن تقر لنفسها بالحقيقة . ويبدو على جدي نفسه أنه حائر تمام الحيرة ؛ لقد عهدوا إليه بأعجوبته الصغيرة ، فردها ضفدعا : إن ذلك يعني اجتثاث دهشاته المستقبلة من جذورها . ونظرت إليه جدتي بسخرية ، وقالت فقط : « إن كارل ليس نخوراً ؛ إنه خجلان . »

وتكرمت آن ماري فأخفت عني سبب حزنها . ولم أعرف هذا السبب إلى حين بلغت الثانية عشرة من عمري ، وبعنف . ولكنني كنت أشعر بضيق وأنا في جلدي . فأصدقاء عائلتي كانوا يلقون على نظرات قلقة أو حيرة كنت كثيراً ما ألمحها فجأة . إن جمهوري كان يزداد تعصبا يوما عن يوم ؛ وكان لا بد أن أبذل نفسي ، لقد غاليت في التأثير فأسأت التمثيل . وعرفت أهوال الممثلة التي بدأت تشيخ : وعلمت أن غيري يستطيع أن يرضي . إني احتفظ بذكريين حدثتا بعد ذلك بقليل ولكنهما جليتان .

كنت في التاسعة من عمري ، وكانت السماء تمطر ، وفي فندق نواريتابل ، كنا عشرة أطفال ، عشر قطط في كيس واحد ؛ وقبل جدي

ليلهينا أن يكتب ويخرج تمثيلية وطنية بعشر شخصيات . ولعب برنارد ، أكبر الجماعة ، دور الأب ستروتوف ، محسن فظ . وكنت ألزاسيا شابا : وكان والدى قد اختار فرنسا وعبرت الحدود سراً لألحق به . وقد أعدت لى إجابات شجاعة : ومددت ذراعى اليمنى وأحنيت رأسى وهمست مخفيا خدى الحبرى فى تجويف كتفى : « وداعا ، وداعا يا ألزاسنا العزيزة » . وفى المراجعات كانوا يقولون إنى كنت ظريفا جداً؛ الشىء الذى لم يدهشنى. وتم العرض فى الحديقة؛ وكان يحد المسرح مجموعة من شجيرات السياجات وجدار الفندق ، وأجلس الآباء والأمهات على كراسى خيزران . وكان الأطفال يلهون كالمجانين فيما عداى . ولما كنت مقتنعا بأن مصير التمثيلية فى يدى ، فقد اجتهدت فى أن أرضى ، تفانيا للقضية المشتركة، وكنت أعتقد أن العيون كلها مثبتة على . ولقد بالغت ، وحاز برنار رضى الحضور لأنه كان أقل تصنعا منى . هل فهمت ذلك؟ وفى آخر العرض أخذ يجمع الدخل: وتسللت خلفه وشددت لحيته التى ظلت فى يدى . وكان ذلك مزاحا بين كواكب للاضحاك فقط ؛ وكنت أشعر بنفسى أنى غاية فى الظرف وأخذت أقفز بقدم على الأخرى ملوحا بغنيمتى . ولم يضحك أحد . وأخذتنى أمى من يدى وأبعدتنى بشدة : وسألتنى حزينة : « ما الذى دهاك ؟ هل اللحية جميلة إلى هذا الحد ! لقد تعجب الجميع من هذه الرعونة » . ولحقت بنا جدتى ومعها آخر الأخبار : لقد عزته أم برنار إلى الغيرة . « أترى ما ربحت من إظهار نفسك ! » وهربت ، وجريت إلى غرفتنا ، ووقفت أمام الخزانة ذات المرآة وأخذت ألعب وجهى طويلا .

وكان من رأى السيدة بيكار أن الطفل يستطيع أن يقرأ كل شىء :

« إن الكتاب لا يضر قط حين يكون مكتوبا جيدا . » وكنت فى حضورها قد طلبت فيما مضى الاذن بقراءة « مدام بوفارى » وقالت أمى بصوتها الموسيقى الزائد « لو أن ابنى العزيز قرأ هذا النوع من الكتب فى هذه السن فما الذى يفعله عندما يكبر ؟ » — « سوف أعيشه ! » وعرفت هذه الإجابة أصرح نجاح وأطوله ، وكانت السيدة بيكار تشير إليها كما جاءت لزيارتنا ، وكانت أمى تصيح مؤنبة معجبة : « بلانش ! أرجو أن تسكتى ، لسوف تفسدينه ! » كنت أحب وأكره هذه المرأة العجوز الكالحة السمينة خير جمهورى ؛ وحين كنت أخبر بمقدمها ، كنت أشعر بعبقريتى ، وأتخيل أنها فقدت جونلتها وأنى أرى ردفها ، وهى طريقة تقديم الاحترام لروحانيتها . وفى نوفمبر ١٩١٥ أهدتنى كتيبا من الجلد الأحمر ، مذهب الحوافى . وكنا جالسين فى مكتب جدى أثناء غيابه ، وكانت النساء يتكلمن بحرارة ولكن بصوت أخفض مما كان فى سنة ١٩١٤ ، وذلك بسبب الحرب إن ضبابا قذرا أصفر يلتصق بالنوافذ ، وكانت تنبعث رائحة الطباق البارد . وفتحت الدفتر الصغير ، وخاب ظنى أولا : فقد كنت انتظر رواية أو قصصا ، وقرأت عشرين مرة على وريقات متعددة الألوان مجموعة من الأسئلة . وقالت لى « املأ إحدى هذه الوريقات واجعل أصدقاءك الصغار يملأون الأخريات ، فتعد لنفسك ذكريات حلوة » . وفهمت أنه يعرض على فرصة أن أكون مدهشا . وصممت على الاجابة فى الحال ، وجلست إلى مكتب جدى ووضعت الدفتر فوق ورقة نشاف وأخذت مقبض ريشته المصنوع من الباغة وغمستها فى زجاجة الحبر الأحمر ، وأخذت أكتب ، فى حين كان الكبار يتبادلون نظرات إعجاب . وبقفزة ، طرت أعلى من

روحى لأصطاد « الإجابات التى هى أكبر من سنى » . ولكن مجموعة الأسئلة لم تكن تساعد على ذلك مع الأسف . كانوا يسألوننى عما أحب وأكره: وعن اللون الذى أفضله وعطرى المفضل؟ كنت أخترع بلا حماس أشياء مفضلة ، حين حانت فرصة ظهور : « ما هى أغلى أمنياتك ؟ » وأجبت دون تردد : « أن أكون جنديا وأن أثأر للموتى . » ولما كنت منفعلا أكثر مما يجب لأستطيع أن استمر فى الإجابة فقد قفزت إلى الأرض وحملت عملى إلى الكبار . وشحذت الأنظار ، وأحكمت السيدة بيكار وضع نظارتها وانحنت أمى على كتفها ؛ ومطت كلتاهما شفتيها بخبث ، وارتفع الرأسان معا ، وتوردت وجنتا أمى، وأعادت السيدة بيكار الكتاب إلى : « أتعلم يا صديقى الصغير ، إن ذلك لا يكون جديرا بالاهتمام إلا إذا كان الإنسان صادقا ؟ » واعتقدت أنى أموت . إن خطأى ظاهر للعيان ، وكانوا يطالبون بالطفل المعجزة فكنت الطفل السامى . ولسوء حظى لم يكن لهؤلاء السيدات أحد فى جبهة القتال : فغدا السمو العسكرى بلا أثر على أرواحهن المعتدلة. واختفيت وذهبت ألعب وجهى أمام مرآة . وعندما أتذكر هذه «التلعيبات» اليوم، أفهم أنها كانت تكفل حمايتى من انطلاقات الخجل الشديدة، إذ كنت أدافع عن نفسى بحصار عضلى فكما أنها ترفع تعاستى إلى أقصى حدها — فإنها كانت تخلصنى منها . كنت أندفع إلى الاتضاع لأتفادى المهانة ، وكنت أخلع عن نفسى وسائل الفوز بإعجاب الناس لأنسى أنى كنت أملكها وأنى أسأت استخدامها ، وكانت المرآة عونا كبيرا لى : وكنت أكلفها بأن تخبرنى بشناعتى ، فإن توصلت إلى ذلك كان ندمى المرير يتحول إلى شفقة . ولكن ، على الأخص ، لما كان الفشل قد كشف

لى عن دناءتى ، كنت أبشع نفسى لأجلها غير مستطاعة ، ولأنكر الناس وينكرونى . إن مهزلة الشر كانت تمثل ضد مهزلة الخير ، إن الياسان يأخذ دور كوازيمودو[1] . وبواسطة لى ملامحى وتغضينها كنت أحلل وجهى ، أسكب عليه الجض السكاوى لأمسح ابتساماتى القديمة .

لقد كان الدواء أسوأ من الداء : فمنى المجد والعار ، حاولت أن ألجأ إلى حقيقتى المنعزلة ، ولكن لم تكن لدى حقيقة ، ولم أجد عندى غير خامة غفل تحركها الدهشة . وتحت عينى كنت أرى السمكة الهلامية بجدران الحوض الزجاجى ، تصطدم برخاوة طوقها وتتمزق فى الظلمات . وهبط الليل ، وذابت سحب من الحبر فى المرآة دافنة تجسدى النهائى . ولما كنت محروما مما يثبت براءتى ، كنت أتهالك على نفسى . وفى الظلام كنت أتخيل ترددا غير محدد ، خشخشة ، نبض ، حيوانا حياً بأكمله — أكثر الحيوانات إرعابا ؛ والحيوان الوحيد الذى لا أستطيع أن أخافه . لقد هربت وذهبت لأستعيد فى الضوء دورى ، دور الملاك الذى أزيل بهاؤه . عبثا . لقد علمتنى المرآة ما كنت أعرفه دائما : كنت طبيعيا إلى أبعد حد . ولم أبرأ من ذلك أبداً .

لما كنت معبوداً من الجميع ، مرفوضا من كل واحد منهم ، فقد كنت نافلةولم يكن لى من معينوأنا فى السابعة سواىالذى لم يكن موجوداً بعده

---

(١) إحدى شخصيات رواية « أحدب نوتردام » للاديب الفرنسى فكتور هوجو . كان كوازيمودو يدق أجراس كنيسة نوتردام . وكان على الرغم من بشاعته ذو أحاسيس سامية (المترجم) .

قصر من مرايا مهجور ، كان القرن الجديد ينظر خلالها إلى فخره . لقد ولدت لأسد حاجتى الكبيرة إلى نفسى ، ولم أكن أعرف حتى ذاك الوقت إلا غرور كلب الصالونات ، ولما كنت مدفوعا إلى الكبرياء فقد أصبحت متكبراً . ولأن أحدا من الناس لم يطالب بى جديا ، فقد وصل بى ادعائى إلى الاعتقاد بانى ضرورى للكون . أى شىء أكثر فخامة من ذلك ؟ وأى شىء أكثر بلاهة ؟ والحقيقة أنه لم يكن لى حرية الاختيار . ولما كنت مسافراً متسللا فقد نمت على المقعد وهزنى المفتش وهو يقول لى : « تذكرتك ! » ، وكان لا بد لى أن أعترف بأننى لا أحمل تذكرة . ولا نقوداً لأدفع حالا ثمن الرحلة . وبدأت أترافع على أساس الاعتراف بالجريمة : وكنت نسيت فى بيتى بطاقتى الشخصية . ولم أكن أتذكر كيف غافلت العامل المكلف بثقب التذاكر ، ولكن اعترفت بأنى دخلت العربة بالخداع . ولم اعترض على سلطة المفتش ، بل أعلنت جهارا احترامى لوظيفته وخضوعى مقدما لقراره . وعند هذا الحد الأقصى من التذلل ، لم أكن أستطيع أن أنقذ نفسى إلا بقلب الوضع : فقد أعلنت أن أسباباً هامة وسرية استدعتنى إلى ديجون ، وهذه الأسباب تهم فرنسا وربما الانسانية كلها . وإن أخذت المسائل من هذه الزاوية الجديدة ، فإنه لن يوجد شخص فى كل القطار يكون له حق شغل مكان بقدر حقى . حقا إننا بصدد قانون أعلى يخالف القاعدة ولكن ، لو أخذ المفتش على مسئوليته قطع رحلتى ، فانه يسبب تعقيدات خطيرة تقع نتائجها على رأسه ؛ وتوسلت إليه أن يفكر : فهل من المعقول أن نعرض النوع كله للفوضى بحجة المحافظة على النظام فى قطار ؛ هذه هى الكبرياء : مرافعة التعساء . إن المسافرين حاملى التذاكر لهم وحدهم الحق فى أن يكونوا متواضعين . لم

أكن أعرف قط إن كنت قد ربحت دعواى . فقد لازم المفتش الصمت ؛ وكررت عليه الشرح ، وطالما كنت أتكلم ، كنت واثقا من أنه لن يجبرنى على النزول وجلسنا الواحد فى مواجهة الآخر ، أحدنا صامت والآخر لا ينضب له معين ، فى القطـــار الذى يحملنا إلى ديجون . فقـــد كنت القطار والمفتش والمذنب : وكنت كذلك شخصاً رابعا وهذا الشخص ـــ وهو النظم ـــ لم تكن لديه إلا رغبة واحدة أن يخدع نفسه ، ولو دقيقة ، أن ينسى أنه هو الذى أعد كل شيء . لقد خدمتنى التمثيلية العائلية : فقد كانوا يسموننى هبة من السماء ، كان ذلك مزاحا وكنت لا أجهله ، ولما كنت متخما بالحنان ، فقد كان دمعى سهلا وقلبى قاسيا . كنت أريد أن أصبح هـدية مفيدة تبحث عن الأشخاص الذين خصصت لهم ، لقد قدمت نفسى لفرنسا وللعالم كنت لاأعبأ بالناس ولـكن بما أنه لا بد من المرور بهم ، فان دموع فرحهم سوف تعلمنى أن الـكون يستقبلنى بعرفان الجميل. ولسوف يعتقدون بأنى كثير الزهو ؟ كلا لقد كنت يتيم الأب . ولما لم أكن ابن أحد ، فقد كنت سببى نفسه ،منتهى الـكبرياء والتعاسة، لقد ولدت بالاندفاع الذى رفعنى إلى الخير. إن التسلسل يبدو واضحا : لما كان حنان أمى قد أنثنى ، ولما كان غياب موسى الفظ الذى خلفنى قد مسخنى ، ولما كانت عبادة جدى لى قد فتنتنى ، فقد كنت شيئا خالصا حائرا إلى أعلى مراتب المازوكية ، لو أننى استطعت فقط أن أصدق التمثيلية العائلية . ولـكن كلا ، إن هذه التمثيلية لم تـكن تحركنى إلا سطحيا ، فى حين أن القاع كان يظل باردا ، بلا مبرر ؛ لقد أرعبنى هذا النظام ، وكرهت الاغماءات السعيدة ، النسيان ، هذا الجسم الذى

بولغ فى تدليله والعناية به ، لقد عثرت على نفسى وأنا أعارضها وألقيت بنفسى فى الكبرياء والسادية ، أو بمعنى آخر فى الكرم . وهذا الكرم ، كالبخل أو العنصرية ، ليس إلا بلسما معصوراً ليشفى جروحنا الداخلية وينتهى أمره بتسميمنا : وكى أهرب من عدم عون المخلوق ، فقد أعددت نفسى لأكثر العزلات البورجوازية بعداً عن الشفاء : ألا وهى عزلة الخالق . ولن تخلط ضربة القضيب هذه بثورة حقيقية : فالمرء يثور على الجلاد ولم يكن لى إلا محسنون . لقد ظللت شريكه مدة طويلة . ومع ذلك فهم الذين أسمونى هبة العناية الالهية : ولم أقم إلا باستخدام الأدوات التى تحت تصرفى لأغراض أخرى .

كل ذلك حدث فى رأسى ، ولما كنت طفلا خياليا ، فقد دافعت عن نفسى بالخيال . وعندما أرى حياتى ثانية ، من السادسة إلى التاسعة ، فانى أعجب لاستمرار تمريناتى الروحية . لقد تغيرت كثيراً من حيث المحتوى ولكن البرنامج لم يتغير ؛ كان دخولى خاطئا ، فانسحبت خلف حجاب وبدأت ولادتى من جديد فى الوقت المعين فى الدقيقـــة نفسها التى كان الكون يطلبنى فيها بصمت .

ولم تكن قصصى الأولى سوى اعادة : «العصفور الأزرق» و « القطة ذات الحذاء » وقصص موريس بوشور . كانت تتحادث وحدها خلف جبهتى ، بين اقواس حاجبى وتجرأت بعد ذلك فجملتها وأعطيت لنفسى دوراً . لقد غيرت طبيعتها ، فلم أكن أحب الجنيات ، إذ كان حولى الكثير منها : وحلت البطولات محل السحر . وأصبحت بطلا ؛

وتركت سحرى ؛ فلم تعد مسألة ارضاء الغير ولكن مسألة فرض نفس .
لقد تخليت عن عائلتى . إن كارل مامى وآن مارى أخرجوا من تخيلاتى .
ولما كنت قد شبعت أشارات وأوضاع فقد قمت بأفعال حقيقية فى الحلم ..
واخترعت كونا صعبا وفانيا — كون «كرى – كرى» ، «واللدهش» ،
و«بول ديفوال»[1] » — وفى مكان الحاجة والعمل اللذين كنت أجهلهما
وضعت الحظر . ولم أكن فى يوم من الأيام أبعد من الاعتراض على النظام
القائم : ولما كنت متأكدا من أنى أسكن خير العوالم ، فقد أعطيت نفسى
واجب تنظيفه من وحوشه ، ولما كنت شرطيا ومنفذ حكم ، فقد كنت أقدم
للتضحية كل مساء عصابة من قطاع الطرق . لم أخض قط حربا وقائية
ولا قمت بحملة تأديبية ؛ كنت أقتل بلا سرور ولا غضب لانتزع فتيات
من الموت . إن هذه المخلوقات الضعيفة كانت ضرورية لى : كانت تطلبنى ..
بيد أنها لم يكن فى استطاعتها أن تعتمد على مساعدتى لأنها لم تكن تعرفنى .
ولكنى كنت ألقى بها إلى مخاطر شديدة لدرجة ألا أحد كان يمكن أن
يخرجها سواى . وحين كانت الجنود الانكشارية تلوح بسيوفها المقوسة ،
كان أنين يتردد فى الصحراء وكانت الصخور تقول للرمل : « إن شخصا
ينقصنا هنا : إنه سارتر . » وفى لحظة كنت أبعد الحاجز وكنت أطير
الرؤوس تحت ضربات السيف ، كنت أولد فى بحر من دم . إنها سعادة
من الصلب ! لقد كنت فى مكانى .

كنت أولد لأموت : وكانت الطفلة بعد انقاذها ترتمى فى أحضانى

---

(١) أسماء أبطال قصص الأطفال التى كان المؤلف يقرأها فى مجلات الأطفال وكتبهم
(المترجم).

أبيها الأمير الألمانى ، وكنت أبتعد ، فكان لابد أن أصبح بلا فائدة من جديد أو أن أبحث عن سفاحين جدد . وكنت أجدهم . ولما كنت بطل النظام القائم ، فقد وضعت سبب وجودى فى فوضى دائمة ؛ كنت أخنق الشر فى ذراعى ، كنت أموت موته وأبعث بعثه ، لقد كنت فوضويا يمينيا .
ولم يتسرب شيء من هذه الأعمال العنيفة الطيبة ، فقد ظللت خدوما وذا غيرة : فالمرء لا يفقد بسهولة عادة الفضيلة ؛ ولكن ، كنت أنتظر كل مساء ، بفارغ صبر نهاية المزاح اليومى ، كنت أجرى إلى سريرى ، وأتلو صلاتى بسرعة وأدخل بين أغطيتى ، فقد كنت متشوقا للقاء جرأتى الجنونية . وكنت أشيخ فى الظلمات ، وأصبحت بالغا وحيداً ، بدون أب وبدون أم ، بلا نار ولا مكان ، وأكاد أكون بلا اسم . كنت أمشى على سطح مشتعل ، حاملا على ذراعى امرأة مغمى عليها ؛ ومن تحتى كان الجمهور يصرخ : كان واضحا أن العمارة ستنهار . وفى هذه اللحظة أنطق الكلمات القدرية : — « البقية فى العدد القادم » — وكانت أمى تسألنى « ماذا تقول ؟ » وكنت أجيبها بحذر : « إنى اترك نفسى معلقا . » والواقع أنى كنت أنام وسط الأخطار فى لا أمان لذيذ . ومساء الغد ، أمينا على الموعد ، كنت أجد سطحى والنيران وموتاً أكيدا . وفجأة كنت ألمح مزرابا لم أكن قد لاحظته البارحة . لقد أنقذنا يا إلهى ! ولكن كيف أتعلق فيه دون أن أترك حملى الغالى ؟ ولحسن الحظ تسترجع المرأة الشابة حواسها وأحملها على ظهرى وتشبك ذراعيها حول عنق . ولكن كلا ، فبعد تفكير أفقدتها وعيها من جديد : فمهما يضأل نصيبها فى عملية إنقاذها فإن ذلك سوف يقلل من فضلى . ولحسن الحظ ، كان هناك هذا الحبل

عند قدمى : فربطت الضحية بعنقها ربطا محكما ، ولم يكن الباقى شيئا يذكر . واحتضننى السادة — العمدة ورئيس الشرطة ورئيس المطافى — وقبلونى وأعطونى نيشانا وفقدت ثقتى بنفسى ، فلم أعد أعرف ما أفعله بنفسى : إن عناق هذه الشخصيات الكبيرة كان يشبه كثيراً عناق جدى . ومسحت كل شىء وبدأت من جديد : كان الوقت ليلا وفتاة تطلب النجدة وألقيت بنفسى فى المعركة . . « البقية فى العدد القادم » . كنت أخاطر بحياتى للخطة السامية التى تحول حيوانا أوجده الحظ إلى مار بعثته العناية الإلهية ، ولكن كنت أشعر بأننى لن أعيش بعد انتصارى وكنت سعيداً كل السعادة بأن أؤجل هذا الانتصار إلى الغد .

ومن الغريب أن يجد المرء أحلام المغامرة هذه عند تلميذ صغير معد لوظيفة كتابية ؛ إن قلق الطفولة هو قلق ميتافيزيقى ، ولتهدئته لاحاجة أبدا لإسالة الدماء . وهل لا تمنيت فى يوم من الأيام أن أكون طبيبا بطلا وأن أنقذ مواطنى من الطاعون الدملى أو من الكوليرا ؟ إنى اعترف بأن ذلك لم يحدث قط . ومع ذلك فلم أكن لا مفترساً ولا حربياً ، وليس ذنبى أن يجعلنى هذا القرن الطالع ملحميا . إن فرنسا المهزومة كانت ممتلئة بابطال خياليين تضمد مفاخرهم عزة نفسها . وقبل مولدى بثمانى سنين « انفجر سيرانو دى براجيراك[1] كموسيقى السراويل الحمراء النحاسية » وبعد ذلك بقليل لم يكن على مسرحية « النسر الصغير[2] » ، الفخور ، الجريح إلا أن

---

(١) مسرحية شعرية من خمسة فصول لأدمون روستان . مثلت فى سنة ١٨٩٧ (المترجم)

(٢) دراما شعرية من ستة فصول لأدمون روستان . قدمت سنة ١٩٠٠

تظهر لتمحو عار فاشوده[١] . وفى سنة ١٩١٢ كنت أجهل كل شىء عن هذه الشخصيات الكبيرة ، ولكنى كنت على علاقة دائمة مع خلفائهم : كنت أعبد سيرانو دى لابجر وأرسين لوبان[٢] ، دون أن أعرف أنه مدين بقوته الخارقة وشجاعته الخبيثة وذكائه الفرنسى الأصيل لهزيمتنا فى سنة ١٨٧٠ . إن الاعتدائية القومية وروح الأخذ بالثأر حولت جميع الأطفال إلى منتقمين. وأصبحت مثلهما كالكل : ولما كانت السخرية والمجد ، هذان العيان غير المحتملين عند المهزومين قد أغريانى ، فكنت أسخر من رجال السوء قبل أن أحطمهم . ولكن الحروب كانت تضايقنى ، فقد كنت أحب الألمان اللطاف الذين كانوا يترددون على منزل جدى ، ولم أكن أهتم إلا بالظلم الخاص ، وفى قلبى المجرد من الكراهية تحولت القوى الجماعية : فقد كنت استخدمها فى تغذية بطولتى الفردية . ولكن هذا لا يهم ، لقد وسمت ، وإن كنت قد أقترفت فى قرن من حديد الغلطة الجنونية بأن آخذ الحياة على أنها ملحمة فذلك لأنى حفيد الهزيمة . ولما كنت ماديا عن اقتناع ، فإن مثاليتى الملحمية سوف تعوض حتى موتى إهانة لم تنلنى وعارا لم أتألم منه ، ألا وهو فقد مقاطعتين عادتا إلينا منذ زمن طويل .

إن بورجوازيى القرن الماضى لم ينسوا قط أمسيتهم الأولى التى قضوها

---

(١) مدينة فى السودان واقعة على النيل بالقرب من بحر الغزال. احتلتها حملة فرنسيه بقيادة مرشان ١٨٩٨ ولكنه اضطر إلى تركها للانجليز بقيادة كتشنر (المترجم)

(٢) بطل القصص البوليسية .

فى المسرح وقد تولى كتابهم رواية ظروفها . وعندما ارتفع الستار خال الأطفال أنفسهم فى البلاط . فإن الذهب والأقمشة الأرجوانية والأضواء والمساحيق والفخفخة والحيل كانت تضع القداسة حتى فى الجريمة ؛ وعلى المسرح رأوا طبقة النبلاء التى قتلها أجدادهم تبعث حية . وفى الاستراحات كان وضع النظارة بعضهم فوق بعض يقدم لهم صورة المجتمع ، لقد أروهم فى المقاصير أكتافا عارية ونبلاء على قيد الحياة . وعادوا إلى بيوتهم مشدوهين متخاذلين ، وقد أعدوا بكر لأقدار عظيمة ، لأن يصبحوا جول فافر[١] وجول فرى[٢] وجول جريفى[٣] . إنى اتحدى معاصرى أن يذكروا لى تاريخ التقائهم الأول بالسينما . كنا ندخل تحسسا فى قرن بلا تقاليد كان سيختلف اختلافا كليا عن القرون الأخرى بسوء سلوكه وبالفن الجديد ، الفن العامى الذى صور لنا بربريتنا مقدما . لقد ولد فى مغارة لصوص ووضعته الإدارة الحكومية فى عداد ملاهى الموالد وهو يتوسل بطرق سوقية كانت تؤلم شعور الأشخاص الوقورين ، كان تسلية النساء والأطفال ، كنا نعبده أنا وأمى ، ولكننا قلما نفكر فيه ولم نكن

(١) محام وسياسى فرنسى ، ولد فى ليون ١٨٠٩ وتوفى فى سنة ١٨٨٠ . اقترح فى سنة ١٨٧٠ خلع نابليون الثالث عن العرش . كان عضوا فى حكومة الدفاع الوطنى واشترك فى المفاوضات التى سبقت معاهدة فرانكفورت (المترجم) .

(٢) أحد رجال الدولة الفرنسيين . ولد سنة ١٨٣٢ وتوفى سنة ١٨٩٣ . اشترك فى إعادة تنظيم التعليم الابتدائى وتوسع فرنسا الاستعمارى باحتلال تونس وتونكين وإقامة القوات الفرنسية فى الكونغو (برازافيل) . (المترجم) .

(٣) محام وسياسى فرنسى ولد فى ١٨٠٧ وتوفى فى ١٨٩١ . رئيس الجمهورية الفرنسية من سنة ١٨٧٩ إلى ١٨٨٧ . (المترجم) .

نتكلم عنه قط : فهل يتكلم الناس عن الخبز إن كان غير ناقص ؟ وعندما لاحظنا وجوده كان قد أصبح حاجتنا الأساسية منذ وقت طويل .

وفى الأيام المطرة ، كانت آن مارى تسألنى عما أعنى عمله ، وكنا نترددطويلا بين السرك والشاتليه[١] والبيتالكهربائى ومتحفجريفان[٢] وفى آخر لحظة وبإهمال محسوب نقرر دخول قاعة عرض سينمائى . وكان جدى يظهر بباب مكتبه حينما نفتح باب الشقة ؛ وكان يسأل « إلى أين أنتم ذاهبون يا أولاد ؟ » — وكانت أمى تجيب « إلى السينما » . فيقطب حاجبيه وتسرع أمى بالاضافة : « إلى سينما البانتيون ، إنها قريبة جداً ليس أمامنا إلا عبور شارع سوفلو . » وكان يتركنا نذهب وهو يرفع كتفيه ؛ وفى الخميس التالى كان يقول للسيد سيمونو : « قل لى ياسيمونو ، أنت الرجل الرزين ، هل تفهم هــذا ؟ إن ابنتى تصحب حفيدى إلى السينما » وكان السيد سيمونو يقول بلهجة المتساهل : « إنى لم أذهب قط إلى السينما ولـكن زوجتى تذهب أحيانا . »

وكان العرض قد بدأ . كنا نتبع العاملة المكلفة باجلاس النظارة فى أماكنهم ونحن نتعثر ، كنت أشعر بأنى أعمل فى الخفاء ؛ وفوق رؤوسنا كانت حزمة من الضوء الأبيض تجتاز القاعة ، وكان يتراقص فيها الغبار والدخان ؛ وكان بيانو يحمحم وكمثرى بنفسجية تلمع على الحائط ، وكانت رائحة مطهر مطلية تمسك بخناقى . وكانت رائحة هــذه الليلة

(١) يقصد مسرح الشاتليه (المترجم) .

(٢) متحف الشمع (المترجم) .

المسكونة وثمارها تختلط فى : كنت آكل مصابيح النجدة وأملأ نفسى بطعمها الحمضى . كنت أحك ظهرى على ركبة ، وكنت أجلس على مقعد ذى صرير وكانت أمى تضع غطاء مطويا تحت اليتى لترفعنى ، وأخيرا كنت أنظر إلى الشاشة ، وكنت اكتشف طباشيرا مشما بالضوء ، ومناظر متواترة الطرف ، مخططة بوابل من الأمطار ؛ كان المطر يهطل دائما حتى فى الشمس الواضحة وحتى فى الشفق ؛ ويحدث أن نرى كاً مشتعلا يجتاز حجرة استقبال بارونة دون أن تبدى تعجبها . كنت أحب هـذا المطر ، هذا القلق الدائب الذى كان يشكل الحائط . وكان عازف البيانو يستهل افتتاحية «كهوف فانجال» وكان الجميع يفهم أن المجرم سيظهر : وجنت البارونة خوفا . ولكن وجهها الجميل الفاحم كان يترك مكانه لإعلان بنفسجى مكتوب عليه : «نهاية الجزء الأول» . كان الضوء هو التطهير الفجائى . أين كنت ؟ هل كنت فى مدرسة ؟ هل كنت فى إدارة حكومية لم يكن هناك أية زخرفة : صفوف من الكراسى ذات القواعد المتحركة يظهر لولبها من تحتها ، وجدران مدهونة كما اتفق باللون الأصفر الباهت ، وأرضية من الخشب مغطاة بأعقاب السجائر والبصاق . ويملأ القاعة ضجيج كثيف ، إنهم يخترعون اللغة من جديد ، وكانت العاملة المكلفة بإجلاس النظارة تنادى على الملبس الإنجليزى وكانت أمى تشترى لى منه ، وكنت أضعه فى فمى وأمص مصابيح النجدة . وكان الناس يفركون عيونهم وكان كل واحد يكتشف جيرانه . فكان هناك جنود وخادمات الحى ؛ وعجوز تبرز عظامه يمضغ التبغ وعاملات بشعورهن المكشوفة يضحكن بأعلى صوت : إن هذا العالم كله لم يكن من عالمنا ؛ ولحسن الحظ

كانت قبعات كبيرة خافقةموضوعة هنا وهناك على هذه الأرضية من الرؤوس. تطمئن النفس .

إن التدرج الاجتماعى للمسرح غرس فى المرحوم والدى وجدى ، معتادى الجلوس فى الشرفة الثانية ، حب الاحتفالات : وعندما يكون عدد كبير من الناس معا ، يجب فصلهم بعضهم عن بعض بطقوس وإلا ذبحوا بعضهم بعضا وأثبتت السينما العكس : فإن هذا الجمهور المختلط يبدو أن كارثة تجمعه بدلا من عيد ؛ وبموت قواعد الآداب انكشف أخيرا رباط الناس الحقيقى ، ألا وهو الالتحام . وكرهت الاحتفالات وعبدت الجماهير؛ لقد رأيت جميع أشكالها ولكنى لم أعد إلى الالتقاء بهذا العرى . . . هذا الحضور دون تراجع ، من كل فرد نحو الجميع . . هذا الحلم اليقظ . . . هذا الوعى الغامض لخطر كوننا أناساً - إلا فى سنة ١٩٤٠ فى ستالاج[1] ١٢ د .

وتجاسرت أمى إلى حد مصاحبتى إلى دور السينما فى الشوارع الرئيسية: إلى الكينيراما ، والفولى دراماتيك ، والفودفيل والجومون بالاس،وكان يسمى آنئذ بالهيبودروم ورأيت زيجومار وفانتوماس ، ومغامرات ماسسته وأسرار نيويورك : ولكن طلاءات الذهب كانت تفسد لذتى . ولم يكن الفودفيل - ذلك المسرح الذى تحول إلى سينما - يريد أن يتنازل عن عظمته السالفة . وحتى آخر دقيقة كانت ستارة حمراء بطرر ذهبية تغطى

(١) معسكر خصصه الألمان فى الحرب العالمية الثانية لصف الضباط والجنود . (المترجم).

الشاشة ، وكانوا يدقون ثلاث دقات ليعلنوا بداية العرض ، وكانت الفرقة الموسيقية تعزف افتتاحية ، وكان الستار يرتفع والمصابيح تنطفيء . وكنت أتضايق من هذا الاحتفال غير اللائق ، وهـذه الأبهة المغبرة ، اللذين لم يكن لهما من نتيجة إلا إبعاد الأشخاص ؛ فى الشرفة وفى أعلى المسرح ، كان آباؤنا المندهشون بالثريات وبصور السقف ، لايستطيعون ولايريدون أن يصدقوا أن المسرح ملـكهم ، وإنما كانوا يقبلون فيه . أما أنا ، فـكنت أريد أن أرى الفيلم من أقرب ما يمكن .. ففى قلة الراحة التى تسوى بين الجميع فى دور السينما التى فى الأحياء ، علمت أن هذا الفن الجديد لى كما هو للجميع . كنا فى السن العقلى نفسه: كنت فى السابعة وأعرف القراءة وكان فى الثانية عشرة ولا يعرف الكلام . وكانوا يقولون إنه فى أوائله وأن هناك تقدما سوف يحققه ؛ وكنت أعتقد أننا سنكبر معا . لم أنس طفولتنا المشتركة : فحين يقدمون لى « ملبسة » إنجليزية وحين تقوم امرأة بالقرب منى بتلميع أظافرها ، وعندما استنشق — فى مراحيض فندق من فنادق الأقاليم — رائحة مطهر ، وفى قطار من قطارات الليل حين أنظر فى السقف إلى السهارة البنفسجية — فإنى أجـد فى عينى وفى خياشيمى وعلى لسانى أضواء ورائحة هذه القاعات التى اختفت . ومنذ أربع سنوات سمعت وأنا فى البحر عند كهوف « فنجال » صوت بيانو يعلو وسط الريح ، فى جو عاصف .

ولما كانت القداسة لا تجد إلى سبيلها إلى فقد عبدت السحر : فالسينما كانت ظاهرة مزيبة كنت أحبها حباً فاسداً بسبب ما كان لايزال ينقصها . إن هذا السيلان كان كل شيء .. ولم يكن شيئا . كان كل شيء محولا

إلى عدم . كنت أحضر هذيان حائط كبير ؛ لقد خلصوا الجوامد من ضخامة كانت تزحمنى حتى فى جسمى ، وكانت مثاليق الشابة تفرح بهذا التقلص اللانهائى ؛ وفيما بعد ، فإن تنقلات المثلثات ودورانها ذكرانى إنزلاق الأشكال على الشاشة . لقد أحببت السينما حتى فى الهندسة المسطحة . ومن الأسود والأبيض كنت أصنع ألوانا سامية كانت تختصر فى داخلها سائر الألوان الأخرى ، ولم تكن تكشف عنها إلا للمتصل . كنت سعيداً برؤية اللامرئى . وفوق كل ذلك كنت أحب بكم أبطالى الذى لا علاج له . ولكن لا : لم يكونوا بكما لأنهم كانوا يعرفون كيف يجعلون الناس يفهمونهم. كنا نتصل عن طريق الموسيقى ، صوت حياتهم الداخلية . إن البراءة المضطهدة كانت تفعل خيرا مما تقول أو مما تظهر من ألم . إنها كانت تشبعنى به بواسطة تلك الأنغام التى تنبعث منها. كنت أقرأ الأحاديث، ولكنى كنت أسمع الأمل والمرارة . كنت أفاجىء بأذنى الألم المتكبر الذى لا ينكشف . كنت محرجا ؛ لم أكن أنا ، تلك الأرملة الشابة التى كانت تبكى على الشاشة — ومع ذلك لم يكن لدينا أنا وهى إلا روح واحدة ، هى اللحن الجنائزى لشوبان . لم تكن ثمة حاجة إلى أكثر من ذلك كى يبلل بكاؤها عينى . كنت أشعر بأنى نبى دون أن أستطيع التنبؤ بشىء ؛ وحتى قبل أن يخون الخائن ، كان جرمه يدخل فى ؛ وحين كان يبدو كل شىء هادئا فى القصر ، كانت أنغام مشئومة تعلن عن وجود القاتل . وكم كانوا سعداء رعاة البقر هؤلاء، وأولئك الفرسان . والشرطى : إن مستقبلهم كان هناك ، فى هذه الموسيقى المحذرة وكان هذا المستقبل يحكم الحاضر . إن غناء غير منقطع كان يختلط بحياتهم .

ويجرهم نحو النصر أو نحو الموت كلما تقدم نحو نهايته . وكان فى انتظارهم الفتاة التى فى خطر ، واللواء ، والخائن الذى يترصد فى الغابة ، والزميل المقيد بالقرب من برميل بارود وهو ينظر بحزن إلى اللهب الذى يعدو فى الفتيل . إن عدو هذا اللهب ، وكفاح العذراء المستميت ضد مختطفها ، وركض البطل وسط الأحراش ، وتقابل كل هذه الصور وكل هـذه السرعات ، وفوق كل ذلك الحركة الجهنمية « للسباق إلى الهاوية » وهو تلك القطعة الأوركسترالية المأخوذة من أوبرا « لعنة فوست » والمقتبسة للبيانو — كل ذلك لم يكن إلا واحداً : ألا وهو « القدر » . كان البطل يترجل ويطفىء الفتيلة، ويلقى الخائن بنفسه عليه وتبدأ مبارزة بالسكاكين، ولكن مصادفات هذه المبارزة كانت تشترك بنفسها فى شدة التطور الموسيقى : كانت مصادفات مزورة لا تكاد تخفى النظام الكونى ، ويا للفرح حين توافق آخر طعنة سكين آخر نغمة فى اللحن ! كنت أسعد ما يكون ، لقد وجدت العالم الذى أريد أن أعيش فيه ، ولمست المطلق . ويا للمضايقة كذلك حين يعاد إضاءة المصابيح : لقد تحرقت حبا لهؤلاء الأشخاص وقد اختفوا حاملين عالمهم معهم ؛ لقد شعرت بانتصارهم فى عظامى ، ومع ذلك فقد كان انتصارهم هم لا انتصارى . وفى الشارع ، كنت أجد نفسى زائدا عن العدد .

وقررت أن أفقـد القدرة على الكلام وأن أعيش فى الموسيقى . وكانت لدى هـذه الفرصة فى كل مساء حوالى الساعة الخامسة . كان جدى يعطى دروسه فى معهد اللغات الحية ؛ وكانت جـدتى تنسحب إلى

حجرتها وتقرأ شيئا من (جيب)[١]؛ وكانت أمى قد أعطتنى أكلة العصر وأخذت فى إعداد العشاء وإعطاء الخادمة آخر النصائح؛ فكانت تجلس إلى البيانو وتعزف قصائد شوبان وسوناتا شومان والمنوعات السيمفونية لفرانك وأحيانا — بناء على طلبي — كانت تعزف افتتاحية «كهوف فنجال». كنت أنساب إلى المكتب؛ وكان الظلام قد ساد، وعلى البيانو شمعتان تحترقان. وكان الضوء الخافت يخدمنى، كنت أمسك بمسطرة جدى. وكانت سيفى الطويل، وقاطعة ورقة وكانت خنجرى. وكنت أتحول فى الحال إلى صورة مسطحة لفارس. وكان الوحى يتأخر أحيانا وكسبا للوقت كنت أقرر — أنا الذى اشتهرت مبارزا بالسيف — أن مسألة هامة تضطرنى إلى إخفاء شخصيتى! وكان يجب على أن أتلقى الطعنات دون أن أردها، وأن أضع شجاعتى فى التظاهر بالجبن. كنت أدور فى الحجرة مهدداً بعينى، خافضا رأسى، جارا قدمى؛ كنت أعبر برجفة بين آن وآخر بأننى صفعت أو أننى ركلت فى مؤخرتى، ولكنى كنت حريصا على عدم الرد. كنت أسجل اسم من يهيننى. وأخيراً كانت تعمل الموسيقى التى أتناولها بجرعات كبيرة، وكطبلة زنجية، كان البيانو يفرض على إيقاعه. وكان الخيال المرتجل يحل محل روحى، كان يسكننى ويعطينى ماضيا مجهولا، ومستقبلا لامعا ومميتا. كنت ممسوسا... كان الشيطان قد أمسك بى وهزنى كشجرة البرقوق. وعلى جوادى كنت أجتاز بسرعة عظيمة أراض بور وأراض محروثة،

---

(١) اسم أدبى مستعار للكاتبة الفرنسية سيبيل جابريل مارى أنتوانيت حفيدة ميرابو (١٨٤٩ — ١٩٣٢)

والمكتب من الباب إلى النافذة!! وكانت أمي تقول لي دون أن تكف عن العزف « إنك كثير الضوضاء ، إن الجيران سوف يشتكون » . ولم أكن أجيبها بما أنني كنت أبكما . وألمح الدوق وأترجل وأعلمه بحركات صامتة من شفتي أنني أعتبره هجينا . فيثير على جنوده المرتزقة ، ولكن ضربات سيفي تقف سداً من الصلب أمامي . ومن وقت لآخر كنت أطعن صدرا طعنة نافذة . وفي الحال كنت أدور على عقبي وأصبح السايف المطعون ، وكنت أسقط وأموت على السجادة ، ثم أنسحب في الخفاء من الجثة وأنهض واقفا وأستعيد دور الفارس الجوال ، وكنت أحرك كل الأشخاص : فارساً ، كنت أصفع الدوق وأدور على نفسي ؛ ودوقا كنت أتلقى الصفعة . ولكني لم أكن أتجسد الأشرار طويلا ، فقد كنت دائما أتعجل العودة إلى الدور الأول الكبير ... إلى نفسي . ولما كنت لا أقهر ، فقد كنت انتصر على الجميع .ولكن، كما في حكاياتي الليلية كنت أؤجل انتصاري إلى ما لانهاية، لأنني كنت أخاف من الركود الذي سوف يتبعه .

إني أحمي كونتيسة شابة من شقيق الملك : يا لها من مجزرة !ولكن أمي أدارت الصفحة ؛ وها هو ذا اللحن السريع الفرح يترك مكانه للحن بطيء حنون ؛ فأنهي المذبحة بسرعة ، وأبتسم للسيدة التي في حمايتي . هي تحبني ؛ إن الموسيقى هي التي تقول ذلك . وأنا أيضا قد أكون أحببتها: إن قلبا محبا وبطيئا يستقر في . .ما الذي يفعله الإنسان حين يحب ؟ لقد أخذتها من ذراعها ونزهتها في مرج : ولكن هذا لا يمكن أن يكفي . ودعا قطاع الطرق والمرتزقة على عجل فأخرجوني من ورطتي : لقد

هجموا علينا ، مائة ضد واحد ؛ فقتلت تسعين واختطف العشرة الباقون السكوتنيسة .

حان وقت دخولى فى سنواتى التعسة : إن المـــرأة التى تحبنى أسيرة ، وجميع شرطة المملكة يجدون فى أثرى، فأنا خارج على القانون، ومطارد وتعس . لم يبق لى سوى ضميرى وسيفى . كنت أذرع المكتب وقد بدا على الإنهاك ، كنت أملأ نفسى بحزن شوبان الحار . وأحيـانا كنت أقلب صفحات حياتى ، وكنت أتجاوز سنتين أو ثلاث سنوات لا تأكد من أن كل شىء سينتهى على خير وجه ، وأن ألقابى وأراضى ستعاد لى . وكذلك خطيبتى التى لم يلمسها أحد تقريباً ، وأن الملك سوف يطلب منى الصفح . ولـكنى كنت أنفز فى الحال إلى الخلف وأعود لأستقر ــ قبـل ذلك بسنتين أو ثلاث سنوات ــ فى التعاسة . كانت هذه اللحظة تسحرنى ، كان الخيـال يختلط بالحقيقة . وفى تشردى وحزنى الشديد ، سعيا وراء العدالة ، كنت أشبه شبها حميا طفلا متسكعا لا يدرى ماذا يصنع بنفسه ، يبحث عن سبب لحياته ، ويطوف على نغمات الموسيقى فى مكتب جـده . ودون أن أترك الدور ، كنت أستفيد من الشبه لأمزج بين مصيرينا . ولما كنت متأكدا من النصر الأخير فقد كنت أرى فى هذه الضجة طريق المأمون للوصول إليه .وخلال زلتى كنت ألمح مجد المستقبل الذى كان سببها الحقيقى.إن سوناتا شومان تنتهى باقتناعى بأنى كنت المخلوق الذى ييأس، وكنت الله الذى أنقذه منذ بداية العالم . يا للفرح أن نستطيع أن نأسف صوريا ! كان من حقى أن أظهر استيائى للكون . ولما كنت تعبا من النجاح البالغ السهولة ، فقد كنت أستطيب لذة الحزن ، ومرارة سرور

الحقد . ولما كنت هدفاً لأحنى الانايات وكنت متخماً وبلا رغبات ، كنت اندفع فى إملاق خيالى . إن ثمانى سنوات من السعادة لم تؤد إلا لأن تنفث فى نفسى حب الاستشهاد . كنت أحل محل قضاتى العادين الميالين كلهم لمحاباتى — محكمة عبوسة مستعدة لإدانتى دون أن تسمعنى . لسوف أنتزع منها البراءة والتهانى ومكافأة مثالية . كنت قرأت عشرين مرة بشغف قصة جرزيليديس[1] ، ولكنى لم أكن أحب التألم ، ورغباتى الأولى كانت قاسية إن الدافع عن هـــذا العدد من الأميرات لم يكن يتضايق من أن يضرب على الأليتين فى الخيال جارته الصغيرة التى تسكن فى الطابق نفسه . إن ما كان يعجبنى فى هذه القصة التى لا تستحق الكثير من الاهتمام ، هو سادية الضحية وهذه الفضيلة الثابتة التى تؤدى إلى أن تلقى بالزوج الجلاد جاثيا . ذلك ما كنت أريده لنفسى : أن أقسر القضاة على الركوع وأن أجبرهم على احترامى لأعاقبهم على موقفهم المسبق منى . ولكنى كنت أؤجل البراءة كل يوم إلى الغد ؛ ولما كنت دائماً بطل المستقبل ، فقد كنت أتحرق شوقاً لتثبيت كنت أؤجله باستمرار .

إن هذا الحزن المزدوج ،الذى كنت أحس به وألعبه ، أعتقد أنه كان يترجم خيبة أملى . إن ما ترى الموضوعة ، الواحدة فى طرف الأخرى ، لم تكن إلا مسبحة من الصدف؛ وحين كانت أمى تضرب آخر نغمات والخيال المرتجل ، كنت أعود إلى الزمن ، بدون ذاكرة اليتامى المحرومين من

(١) بطلة أسطورة مؤثرة هى نموذج الفضائل الزوجية . ويقال إن هذه السيدة عاشت فى القرن الحادى عشر . وقد استوحى قصتها بترارك وبوكاشيو وبيرو (المترجم) .

الأب ، والفرسان الهائمين المحرومين من اليتامى ؛ سواء كنت بطلا أو تلميذا ، كاتبا ومعيدا نفس تمرينات الاملاء ، ونفس المآثر ، كنت أظل محبوسا فى هذه الزنزانة : ألا وهى التكرار . ولكن المستقبل كان موجوداً ، لقد كشفته السينما لى ؛ كنت أحلم بأن لى مصيراً . إن استياءات جرزيلديس أضجرتنى آخر الأمر : عبثا بذلت جهدى فى تأجيل لحظة تمجيدى التاريخية إلى مالا نهاية ، إنى لم أكن أجعل منها مستقبلا حقيقياً ... لم تكن إلا حاضرا مؤجلا .

وفى حوالى تلك الفترة — ١٩١٢ أو ١٩١٣ — قرأت رواية « ميشيل ستروجوف » . لقد بكيت من الفرح : يا لها من حياة مثالية ! ولكى يظهر هذا الضابط شجاعته لم يكن فى حاجة لأن ينتظر إرادة قطاع الطرق المطلقة . إن أمراً من أعلى قد استدله من الظلام . لقد كان يعيش ليطيعه ويموت من نصره ؛ ذلك أن هذا المجد كان موتا . وعند إدارة آخر صفحة من الكتاب، كان ميشيل يحبس نفسه حيا فى تابوته الصغير المذهب الأطراف . لا وجود لأدنى قلق ... لقد كان مبررا منذ أول ظهوره ، ولا لأقل صدفة . حقيقة إنه كان يتنقل باستمرار ، ولكن مصالح عظيمة ، وشجاعته ، وتيقظ العدو وطبيعة الأرض ، ووسائل الاتصال ، وعشرين عاملا آخر أعطيت كلها مقدما — كانت تتيح فى كل لحظة أن يتحدد مكانه على الخريطة . ليس هناك تكرار : كل شىء كان يتغير ، وكان لا بد أن يتغير بلا انقطاع . إن مستقبله كان يضيئه ، وكان يستدل بنجم . وبعد ذلك بثلاثة أشهر قرأت هذه الرواية بالشعور نفسه ؛ غير أنى لم أكن أحب ميشيل ، كنت أجده مسرفا فى التعقل ... كنت أحسده على

مصيره . كنت أعبد فيه المسيحي الذي حالوا بيني وبين أن أكونه . إن قيصر روسيا كله ، كان الله الأب ؛ ولما كان ميشيل قد خلق من العدم بمرسوم غريب ، ولما كان مكلفا مثل كل المخلوقات برسالة وحيدة ورئيسية ، فقد عبر وادينا الملىء بالدموع مبعدا المغريات ومجتازا العوائق ، وأحب الاستشهاد واستفاد من إحدى المعجزات [١] ، ومجد خالقه ، ثم في نهاية عمله دخل الخلود . كان هذا الكتاب سما بالنسبة لي : يوجد إذن مختارون ؟ إن أعلى المطالب ترسم لهم الطريق ؟ كنت أكره القداسة ، ولكنها سحرتني عند ميشيل ستروجوف لأنها اتخذت مظاهر البطولة .

ومع ذلك فإني لم أغير شيئاً من ايماءاتي ، وفكرة الرسالة ظلت في الهواء كالشبح المائع الذي لا يتمكن من أن يتجسد ، والذي لا أستطيع التخلص منه . بيد أن الشخصيات الثانوية وملوك فرنسا كانوا تحت أوامري ، وكانوا ينتظرون الإشارة ليعطوني أوامرهم . ولم أعطهم إياها . فإن كانت المخاطرة بالحياة عن طاعة فماذا يصبح الكرم ؟ وكان مارسيل دونو الملاكم ذو القبضتين الحديديتين يدهشني كل أسبوع بأدائه في سماحة ما هو أكثر من واجبه ؛ وأما ميشيل ستروجوف الكفيف المغطى بالقروح المجيدة ، فبالكاد كان يستطيع أن يقول إنه أدى واجبه كنت أعجب بشجاعته وأنكر خشوعه . إن هذا الشجاع لم يكن فوق رأسه إلا السماء ؛ فلم كان ينحني أمام القيصر ، بينما كان على القيصر أن يقبل قدميه ؟ ولكن ، ما لم ننحن ، فمن أين يمكن أن نأخذ التصريح بالحياة ؟ إن هذا التناقض أوقعني في حيرة عميقة . حاولت أحيانا أن ألف حول

(١) أنقذ بمعجزة دمعة (المؤلف) .

الصعوبة : ولما كنت طفلا مجهولا فقد كنت أسمعهم يتكلمون عن رسالة خطيرة ، فذهبت لألقى بنفسى عند قدمى الملك ، ورجوته أن يعهد لى بها ، ولكنه رفض . لقــد كنت صغيراً جداً ، والمسألة غاية فى الخطورة . ونهضت وتحديت للمبارزة وهزمت بسرعة كل ضباطه . وسلم الملك بالواقع : « إذهب إذن ، ما دامت هذه ارادتك ! » ولكننى لم أكن لأ نخدع بحيلتى ، ولا حظت جيداً أننى فرضت نفسى . ثم إنى كنت أتقزز من هؤلاء القرود جميعا : كنت ثائرا وقاتلا للملك ، لقد حذرنى جدى من الطغاة سواء دعوا لويس السادس عشر أو بادانجيه . خاصة وأننى كنت أقرأ كل يوم فى صحيفة الساتان مسلسلة ميشيل زيفا كو : هذا المؤلف العبقرى ابتكر — بتأثير هوجو — رواية المغامرات الجمهورية . إن أبطاله يمثلون الشعب،إنهم يصنعون الامبراطوريات ويحطمونها ،ويتنبأون منذ القرن الرابع عشر بالثورة الفرنسية ويحمون بطيبة قلوبهم ملوكا أطفالا أو ملوكا مجانين من وزرائهم ، ويصفعون الملوك الأشرار . وأعظمهم جميعا ، بارديايان ، كان معلمى ! ولأقلده ، كنت أرتكز بتكبر على ساقى النحيلتين وقــد صفعت مائة مرة هنرى الثالث ولويس الثالث عشر . هل أذهب بعد ذلك لأضع نفسى تحت إمرتهم ؟ وبكلمة واحدة فإنى لم أكن أستطيع أن أسحب من نفسى الأمر الذى يبرر وجودى على هذه الأرض ، ولا أن أعترف لأحد بحق تسليمه لى . واستأنفت جولاتى بتراخ على ظهر جوادى وضعفت فى المعترك . ولما كنت ذباحا ذاهــلا ، وشهيدا بليدا ، فقد ظللت جرزليديس لعــدم وجود قيصر أو إله أو أب على الأقل .

كنت أعيش حياتين كلاهما كاذبتان : كنت مخادعا أمام الناس ـ الحفيد المعروف شارل شفايتزر المشهور ، وكنت أغوص وحدى فى عبوس خيالى . لقد صممت مجدى الكاذب بتخف كاذب . ولم يكن يصعب على قط أن انتقل من دور إلى آخر . وفى اللحظة التى كنت سأندفع بحذائى السرى ، دار المفتاح فى القفل ، وشلت فجأة يدا أمى وجمدت على مفاتيح البيانو ، ووضعت المسطرة فى المكتبة ، وذهبت لألقى بنفسى بين ذراعى جدى ، ودفعت كرسيه إلى الأمام وأحضرت له خفه المبطن بالفراء ، وسألته عن يومه ، ذاكرا تلاميذه بأسمائهم . ومهما يكن عمق حلمى فإنى لم أتعرض قط لخطر التيه فيه . ومع ذلك ، فقد كنت مهددا : إن حقيقتى كانت تخاطر كثيرا بتبادلها حتى النهاية مع أكاذيبى .

وكانت هناك حقيقة أخرى . فعلى شرفات حديقة اللوكسمبورج ، كان أطفال يلعبون ، وكنت أقترب منهم ، وكانوا يحفون بى دون أن ينظروا إلى ، كنت أنظر إليهم بعيون الفقير : كم كانوا أقوياء وسريعين ! كم كانوا ملاحا ! وأمام هؤلاء الأبطال من لحم وعظم ، كنت أفقد ذكائى العجيب وعلمى الواسع ومجموع عضلاتى القوية ومهارتى فى استخدام السيف . كنت أستند إلى شجرة وانتظر . ولو أن رئيس الجماعة وجه إلى مرة فى وحشية الكلام قائلا : « تقدم يا بردايان ، ستأخذ أنت دور الأسير » ، — لكنت تخليت عن امتيازاتى . إن مجرد دور أبكم كان يملأنى سعادة ؛ ولكنت قبلت فى وسط الحماس أن آخذ دور جريح على نقالة ، أو دور ميت . لكن الفرصة لم تعط لى : لقد قابلت قضاتى الحقيقيين ، معاصرى

أندادى ، وإن عدم مبالاتهم كانت تدينني . كنت فى دهشة من اكتشافى نفسى عن طريقهم : لم أكن لا أعجوبة ولا سمكة هيولية ، بل قزما هزيلا لايثير اهتمام أحد . كانت أمى لا تحسن إخفاء غضبها : إن هـذه المرأة الطويلة الجميلة كانت راضية كل الرضى عن قصر قامتى ، إنها لم تكن ترى فيها إلا كل ما هو طبيعى . إن عائلة شفايتزر طويلة القامة وعائلة سارتر قصيرتها ، وكنت كوالدى ، ذلك كل ما فى الأمر . كانت تحب ، وأنا فى سن الثامنة ، أن أظل سهل الحمل والتحريك ، وكان قطعى الصغير يبدو فى عينيها أنه مرحلة أولى ممتدة . ولكن ، عندما ترى أن لاأحد يدعونى للعب ، كان حبها يدفعها إلى الظن بأننى معرض لأن يرانى الناس قزما — الأمر الذى لم أكنه تماما — وكنت أنا أتألم لذلك . ولكى تنقذنى من اليأس كانت تصطنع الضجر : « ماذا تنتظر أيها الغبى الكبير ؟ إسألهم إذا كانوا يريدون أن يلعبوا معك ! » كنت أهز رأسى فقد كنت أفضل على ذلك أحقر الأعمال . وكانت كبريائى تمنعنى من أن أرجوهم . وكانت تشير إلى سيدات يجلسن على كراسى من حديد ويصنعن التريكو ، وتقول لى : « هل تريد أن أكلم أمهاتهم ؟ » كنت أتوسل إليها ألا تفعل شيئا ، فكانت تأخذ يدى ونرحل . كنا نذهب من شجرة إلى أخرى ومن جماعة إلى جماعة متوسلين دائما ومبعدين دائما وعند الغسق ، كنت أجد مجثمى تلك الأماكن العالية التى تهب عليها الروح ، أى أحلامى . كنت أثأر لخيبة أملى بست كلمات من كلام الأطفال وبذبح مائة من المرتزقة ! ولكن الأمور لم تكن على ما يرام .

وأنقذنى جدى : لقد ألقى بى دون أن يريد فى خدعة جديدة غيرت حياتى .

القسم الثاني

الكتابة

لم يعتقد شارل شفايتزر قط أنه كاتب ولكن اللغة الفرنسية كانت لا تزال تدهشه وهو فى السبعين من عمره ، لأنه تعلمها بصعوبة ، ولأنه لم يمتلكها تماما ؛ كان يلعب معها وكان يسر بالكلمات ، وكان يحب أن ينطق بها ، ولم يكن إلقاؤه القاسى يتساهل فى مقطع واحد ، وعندما كان يجد لديه الوقت ، كانت ريشته تنظمها فى باقات . كان يسجل بسرور أحداث عائلتنا وأحداث الجامعة بكتابات فى المناسبات . تمنيات بمناسبة السنة الجديدة وعيد الميلاد ، كلمات فى ولائم الأفراح ، وخطب بالشعر فى عيد القديس شارلمان ، وهزليات صغيرة وألغاز وقواف ، وكلمات لطيفة عادية . وفى المؤتمرات كان يرتجل رباعيات بالألمانية والفرنسية .

وفى بداية الصيف كنا نرحل إلى أركشون أنا والمرأتان قبل أن ينهى جدى دروسه . كان يكتب لنا ثلاث مرات فى الأسبوع : صفحتين للويز وحاشية لآن مارى وخطابا شعريا بكامله لى . وكى تزيدنى أمى تذوقا لسعادتى تعلمت قواعد العروض وعلمتها لى . وفاجأنى أحدهم وأنا أدبج إجابة بالشعر ، فحثنى على إنجازها وساعدنى فيها . وعندما بعثت المرأتان بالخطاب ضحكتا حتى دمعت أعينهما وهما تفكران فى دهشة المرسل إليه . وبعودة البريد تسلمت قصيدة تمجدنى ، فأجبت عليها بقصيدة . وصارت عادة . إن الجد وحفيده قد ارتبطا برباط جديد ، فقد كانا يتحدثان بعضهما إلى بعض، كالهنود وقوادى مون مارتر، فى لغة محظورة على النساء .وأهديت قاموسا للقوافى ، وجعلت من نفسى شاعراً : ونظمت قصيدة غزلية رقيقة.

لفيق ، وهى بنت صغيرة شقراء كانت لا تغادر كرسيها الطويل ، وقد ماتت بعد ذلك ببضع سنوات . ولم تكن البنت الصغيرة تبالى بهذه القصيدة . لقد كانت ملاكا ! ولكن كان يعزينى عن هذه اللامبالاة إعجاب جمهور كبير بها . لقد وجدت بعض هذه القصائد . وقال كوكتو فى سنة ١٩٥٥ لدى كل الأطفال عبقرية سوى مينو درويه. وفى سنة ١٩١٢ كان جميع الأطفال عباقرة ماعداى : كنت أكتب للتقليد وللبهرجة وكى أبدو كبيراً كنت أكتب على الخصوص لأنى كنت حفيد شارل شفايتزر . وأعطيت لى أمثال لا فونتين ، ولم تعجبنى : وكان المؤلف يأخذ منها ما يحلو له ! وقررت أن أكتبها فى أشعار ذات أثنى عشر مقطعا . وكان المشروع فوق طاقتى ، وبدا لى أنه يثير الابتسام : كان ذلك آخر تجربة شعرية لى . ولكن كنت قد تقدمت وانتقلت من الشعر إلى النثر ولم أجد أية صعوبة فى أن اخترع من جديد كتابة المغامرات الشيقة التى كنت أقرأها فى مجلة « كرى كرى »[1].

لقد حان الوقت الذى سأكتشف فيه عبث أحلامى . فخلال جولاتى الخيالية كنت أريد الوصول إلى الواقع . وحين كانت أمى تسألنى ، دون أن تحول نظرها عن نوتة الموسيقى : « ماذا تفعل يا بولو ؟ » كان يحدث لى أحيانا أن أقطع نذر الصمت الذى قطعته على نفسى وأن أجيبها : « أمثل للسينما » وبالفعل ، كنت أحاول أن انتزع الصور من رأسى وأن أحققها خارج نفسى ، بين قطع أثاث حقيقية وجدران حقيقية ، ساطعة ومرئية ، مثل الصور التى كانت تسيل على الشاشات الفضية ، عبثا ؛ فلم أكن أستطيع بعد أن أجهل خداعى : فكنت أتظاهر بأنى ممثل يتظاهر بأنه بطل .

(١) مجلة فرنسية للأطفال . (المترجم)

وبمجرد أن أبدأ الكتابة كنت أضع ريشتى لأبدى فرحى المظيم .. كان الخداع واحداً ، ولكنى قلت إننى كنت أعتبر الكلمات لباب الأشياء . ولم يكن هناك شىء يثير اضطرابى أكثر من أن أرى خطى الردىء يستبدل شيئا فشيئا بهاءه الزائل بالصلابة المعتمة للمادة : كان ذلك تحقيقا للعالم الخيالى ، وإذا وقع أسد أو ضابط من ضباط الإمبراطورية الثانية أو بدوى فى فخ الدور — فإنهم كانوا يدخلون إلى غرفة الطعام ، ويظلون فيها أسرى إلى الأبد وقد جندتهم شارات مناصبهم . لقد اعتقدت أننى أرسيت احلامى فى العالم « بخربشات » من قلم من صلب . وطلبت كراسة وزجاجة حبر بنفسجى وكتبت على الغلاف : « كراسة روايات » وأول رواية كتبتها حتى النهاية أسميتها : « من أجل فراشة » . إن عالما وابنته وأحد المستكشفين الشبان كانوا يصعدون مجرى نهر الأمازون بحثا عن فراشة ثمينة . وكنت قد استعرت الملخص والشخصيات وتفاصيل المغامرات وحتى العنوان من قصة بالصور كانت قد ظهرت فى الثلاثة الأشهر السابقة . إن هذه السرقة الأدبية المتعمدة كانت تخلصنى من قلقى الأخير كان طبيعيا أن يكون كل شىء حقيقيا بما أننى لم أكن أخترع شيئا . لم أكن أطمع أن تنشر رواياتى ، ولكننى كنت رتبت أمرى على أن تطبع مقدما وكنت لا أخط سطراً لا يكفله نموذجى . هل كنت أعتبر نفسى ناسخا ؟ لا . ولكننى كنت أعتبر نفسى مؤلفا أصيلا : كنت أنقح وأجدد ، فعلى سبيل المثال كنت قد عنيت بتغيير أسماء الشخصيات . إن هذه التغييرات الطفيفة كانت تسمح لى بمزج الذاكرة بالخيال . كانت جمل جديدة ومكتوبة كلها يعاد تكوينها فى رأسى بذلك الثبات الذى يبدو على ما نتلقاه بالإلهام . كنت أنقلها وكانت تأخذ تحت نظرى كثافة الأشياء . وإن كان

المؤلف الملهم ، كما يعتقد فى الغالب ، هو غير نفسه فى أعمق داخله ، فانى أكون قد عرفت الالهام بين السابعة والثامنة .

أن هذه « الكتابة الآلية » لم تخدعنى قط تماما . ولكن اللعبة كانت تسرنى أيضا لذاتها : ولما كنت ولدا وجيدا ، فكنت أستطيع أن ألعبها وحدى . وبين لحظة وأخرى ، كنت أوقف يدى ، وكنت أتظاهر بالتردد لأشعر بنفسى، وقد تقطب جبينى ، وشرد نظرى — إننى كاتب. كنت أعبد السرقة الأدبية تظاهراً وكنت أذهب بها متعمدا إلى أقصى حدودها ، كما سنرى .

إن بوسنار وجول فرن لم يتركا فرصة واحدة ليعلما الأطفال : ففى أحرج اللحظات يقطعان حبل القصة ويلقيان بانفسهما فى وصف نبات سام أو مسكن من مساكن الوطنيين . وكقارىء كنت أترك هذه الفقرات التعليمية ؛ وعندما أصبحت مؤلفا حشوت رواياتى بها . لقد عزمت على أن أعلم معاصرى كل ما كنت أجهله : عادات أهل أرض النار [1] ، والنباتات الأفريقية ومناخ الصحراء . إن هاوى جمع الفراشات وابنته كان الحظ يتدخل فيفصلهما ثم يركبان دون أن يعرفا على ظهر سفينة واحدة ، ويقعان ضحية حادث غرق واحد فيتعلقان بطاقة النجاة نفسها ويرفعان رأسيهما ويصرخ كلاهما : « ديزى ! » ، « بابا ! » . غير أن سمكة قرش كانت تجوس مع الأسف بحثا عن لحم طازج ، وكانت تقترب وكان

---

(١) مجموعة جزر جنوب أمريكا الجنوبية يفصلها عن القارة مضيق ماجلان (المترجم) .

بطنها يلمع بين الأمواج . هل سيغلت هذان التعسان من الموت ؟ وكنت أذهب لأحضر المجلد « ق » من قاموس لاروس الكبير ، وكنت أحمله بصعوبة حتى قمطرى وأفتحه فى الصفحة المطلوبة وأنقل حرفيا مبتدئا بسطر جديد : « إن سمك القرش مألوف فى المحيط الأطلسى الواقع بين المدارين . إن أسماك البحر هذه الكبيرة النهمة جدا يصل طولها إلى ثلاثة عشر متراً وتزن إلى ثمانية أطنان ... » كنت أنقل المقال على مهل. كنت أتلذذ فى شعورى بأننى ممل وبأننى فى مثل امتياز بوسنار . ولأننى لم أكن قد وجدت وسيلة أنقذها بطلى ، فإننى أغلى ببطء فى رعدة لذيذة .

كل شيء كان يؤدى بهذا النشاط الجديد لأن يكون تقليداً مضحكا جديداً . وكانت أمى تغمرنى بتشجيعها ، وكانت تدخل الزائرين إلى غرفة الطعام ليفاجئوا المبدع الجديد وهو جالس إلى قمطره ؛ وكنت أتظاهر بانشغالى التام كى أشعر بوجود المعجبين بى؛ فكانوا ينسحبون على أطراف أصابعهم وهم يهمسون بأنى غاية فى اللطف وأن ذلك لجميل للغاية . وأهدانى خالى إميل آلة كاتبة صغيرة لم استعملها ، واشترت لى السيدة بيكار خريطة العالم لكى أتمكن من أن أحدد ، دون أن أتعرض للخطأ ، طريق أبطالى الذين يدورون حول العالم على أقدامهم . ونسخت آن مارى من جديد روايتى الثانية « بائع الموز » على ورق لامع وانتقلت من يد إلى يد . وكانت مامى نفسها تشجعنى وكانت تقول : « إنه عاقل على الأقل ولا يحدث ضجيجاً » ، ولحسن الحظ تأجل الاحتفال بتمجيدى بسبب عدم رضى جدى .

إن كارل لم يقبل أبدا ما كان يسميه « مطالعاتي الضارة » . وحين أعلنت له أمي أني بدأت الكتابة ، سر في البداية كل السرور ، آملا على ما أعتقد — أن يرى تسجيلا لحياة أسرتنا اليومية وملاحظات لاذعة وسذاجات طريفة . وأخذ كراستي وقلب صفحاتها ولوى شفتيه ، وغادر غرفة الطعام ، وقد أغضبه أن يجد بقلمي « بلاهات » صحفي المفضلة . ولم يهتم بعد ذلك بعملي . وحاولت أمي مراراً ، وقد آلمها موقف جدي ، أن تتحايل عليه لكي يقرأ « بائع الموز » . فكانت تنتظر حتى يلبس شبشبه ويجلس على كرسيه الوثير . وبينما كان يستريح صامتا ، بعين ثابتة قاسية ويداه على ركبتيه ، كانت تستولى على مخطوطي وتقلب صفحاته دون أي انتباه ، ثم تأخذ في الضحك وحدها وقد أخذت فجأة . وكانت تقدمه أخيرا إلى جدي في تأثر لا يقاوم ، وتقول له : « إقرأ يا بابا ! إنه لمضحك للغاية . » ولكنه كان يبعد الكراسة بيده أو — إن ألقى عليها نظرة — فليشير إلى أخطائي الإملائية في غضب . وانتهى الأمر بأمي إلى الخوف : فلما كانت لا تجرؤ على تهنئتي ولما كانت تخشى أن تؤلمني فقد كفت عن قراءة كتاباتي حتى لا تجد ما تقوله لي .

ولما كان نشاطي الأدبي مسموحا به بصعوبة ومتجاهلا ، فقد انحدر إلى ما يشبه السرية ، ومع ذلك فقد تابعته بمثابرة : في أوقات الفسح ، وفي يومي الخميس والأحد[1] وفي العطلة الصيفية ، وعندما يسعدني الحظ وأمرض في سريري . وإني أتذكر نقاهة سعيدة ، كراسة سوداء بأطراف

(١) العطلة الأسبوعية لتلاميذ المدارس في فرنسا (المترجم)

حمراء كنت آخذها وأتركها كأنها نسيج مطرز . وقل عملى فى السينما إذ أن رواياتى حلت عندى محل كل شىء . وبالاختصار كنت أكتب لسرورى .

وتعقدت عقد رواياتى ،فأدخلت فيها الحوادث المختلفة أشد الاختلاف. وصببت كل مطالعاتى ، الجيدة والرديئة ، بلا نظام فى هذه الأجربة . لقد تأثرت القصص من هذا الحشو ؛ ومع ذلك فقد كان كسبا : إذ كان لابد من إيجاد وصلات وكان أن قلت سرقتى الأدبية . ثم قسمت نفسى قسمين. ففى العام الماضى حين كنت « أعمل فى السينما » كنت أؤدى دورى وكنت أنغمس تماما فى عالم الخيـال وفـكرت أكثر من مرة فى أن أتعمق فيه بكليتى . ولما كنت مؤلفا ، كنت لا أزال البطل ، وكنت أعكس عليه أحلامى الملحمية . ومع ذلك فقد كنا اثنين : لم يكن يحمل اسمى وكنت لا أتكلم عنه إلا بضمير الغائب . وبدلا من أن أعيره حركاتى ، كنت أصنع له بكلمات جسما كنت أزعم أنى أراه . إن هذا « البعد » الفاجىء كان فى استطاعته أن يخيفنى : ولـكنه سحرنى ؛ فقد فرحت بأن أكون « هو » دون أن يكوننى تماما . كان دميتى ، وكنت أطوعه حسب أهوائى، كان فى استطاعتى أن أعجم عوده ، أن أطعن جنبه بحربة ثم أعالجه ، كما كانت أمى تعالجنى،وأشفيه كما كانت تشفينى . وكان المؤلفون الذين أفضلهم، بما تبقى لهم من حياء ، يتوقفون فى منتصف الطريق إلى السمو : وحتى عند زيفاكو لم يحدث قط أن تحدى شجاع أكثر من عشرين قاطع طريق فى وقت معا أردت تطوير روايات المغامرات ، خلصتها من كل ما هو محتمل ، وضاعفت عدد الأعداء والمخاطر : فـكى ينقذ المـكتشف الشاب

خطيئته وأباها فى رواية « من أجل فراشة » صارع ثلاثة أيام وثلاث ليال سمك القرش؛ وأصبح البحر أحمر فى نهاية الأمر ؛ وهرب المكتشف نفسه وقد أصيب بجراح من العزبة المحاصرة بقبيلة الأباش واجتاز الصحراء ماسكا أمعاءه بيديه ورفض أن يخاط بطنه قبل أن يتحدث إلى اللواء . وبعد ذلك بقليل قام المكتشف نفسه تحت اسم جوتز فون برليشنجن بدحر جيش . كانت قاعدتى : واحد ضد الجميع ؛ ولبحث عن مصدر هذا الحلم الحزين والعظيم فى الفردية البورجوازية والبيوريتانية اللتين كانت تتميز بهما يثنى .

بطلا ، كنت أ كافح الطغيان ؛ وخالقا، كنت أجعل من نفسى طاغية وعرفت كل إغراءات السلطة : كنت غير مؤذ فأصبحت شريرا . ماالذى يمنعنى من أن أفقأ عينى ديزى ؟ كنت أجيب نفسى ، وقد مت خوفا : لا شىء . وكنت افقأهما لها كما لو كنت انتزع جناحى ذبابة . وكنت أكتب وقلبى يخفق : « وضعت ديزى يدها على عينيها : لقد أصبحت كفيفة ، وكنت أظل مرعوبا وقلبى فى الهواء . لقد انتجت فى المطلق حدثا صغيرا كان يحرجنى بلذة . لم أكن ساديا حقيقة : إن فرحى الفاسد كان يتحول بسرعة إلى رعب، وكنت ألغى كل مراسيمى وكنت املأها شطبا كى أجعلها غير مقروءة . كانت الفتاة تستعيد بصرها أو بالأحرى إنها لم تفقده قط . ولكن ذكرى نزواتى كانت تعذبنى طويلا : فقد كنت أقلق نفسى قلقا خطيرا .

إن العالم المكتوب كان يقلقنى أيضا : وحين كنت أمل الذابح الرقيقة

للأطفال ، كنت أترك نفسى تغرق ، وكنت أكتشف فى القلق إمكانيات مرعبة وعالما بشعا لم يكن إلا الوجه الآخر لقدرتى الفائقة . وكنت أقول فى نفسى : كل شىء يمكن أن يحدث ! وهذا كان يعنى أننى أستطيع أن أتخيل كل شىء . ودائما وأنا على وشك تمزيق ورقتى كنت أقص وأنا أرتعد فظائع تفوق الطبيعة . وحين يتفق لأمى أن تقرأ من فوق كتفى كانت تصيح صيحة الانتصار والخطر : « يا له من خيال ! » كانت تعض شفتيها وكانت تريد أن تتكلم ولا تجد ما تقوله فتهرب فجأة ، وكانت هزيمتها تملأنى قلقا . ولكن الخيال لم يكن السبب . لم أكن أخترع هذه البشاعات ، بل كنت أجدها مثل غيرها فى ذاكرتى .

وفى ذلك العهد كان الغرب يموت اختناقا : وكان ذلك ما أسموه « عذوبة الحياة » ! ولعدم وجود أعداء مرئيين ، كانت البورجوازية تتلذذ بإخافة نفسها بأشباحها . كانت تبادل مللها بقلق موجه . وكان الناس يتحدثون عن مناجاة الأرواح والأشباح . وفى شارع لوجوف رقم ٢ فى مواجهة عمارتنا كانوا يجعلون الموائد تدور . كان ذلك يحدث فى الطابق الرابع : « عند المجوسى » ، كما كانت تقول جدتى . وكانت أحيانا تدعونا ، وكنا نصل فى الموعد لنرى أزواجا من الأيدى على مائدة مستديرة قائمة على عمود واحد . ولكن أحدهم كان يقترب من النافذة وكان يسدل الستائر . وكانت لويز تدعى أن هذا المجوسى كان يستقبل أطفالا فى سنى تصحبهم أمهاتهم . وكانت تقول « إنى أراه : إنه يضع يديه على رؤوسهم . » وكان جدى يهز رأسه منكراً ، ولكن على الرغم من إنكاره لهذه العادات فإنه لم يكن يجرؤ على السخرية منها ؛ كانت أمى

تخافها ، ولأول مرة كان يبدو القلق على جدتى أ كثر مما يبدو علنها الشك . وأخيرا اتفقوا على أنه : « يجب على الخصوص عدم الاهتمام بذلك لأنه يؤدى إلى الجنون ! » وكانت القصص الغريبة شائعة ، وكانت الصحف ذات الاتجاه الدينى تنشر قصتين أو ثلاث قصص منها فى الأسبوع لهذا الجمهور الذى تجرد من مسيحيته والذى كان يندم على فقده أبهة الإيمان . وكان القصاص ينقل بكل موضوعية حلما مقلقا ، كان يترك نصيبا للوضعية ، وكان لابد للحدث على الرغم من غرابته ، أن يقتضى تفسيراً عقليا . وهذا التفسير كان المؤلف يبحث عنه ويجده ويقدمه بأمانة. ولكن لا يلبث أن يتفنن فى إقناعنا بعدم كفايته وبخفته . وكانت القصة تنتهى بعلامة استفهام ولا شيء غير ذلك ولكن هذه العلامة كانت كافية: كان العالم الآخر موجودا ، وكان رهيبا إلى حد عدم ذكره باسمه .

وحين كنت أفتح جريدة « الماتان » كان الرعب يجمدنى . وأثرت فى قصة من هذه القصص جميعا . ومازلت أتذكر عنوانها : « ريح فى الأشجار ». فى أمسية صيف كانت امرأة مريضة وحدها فى الطابق الأول من منزل ريفى تتقلب فى سريرها ؛ ومن النافذة المفتوحة ، تدخل شجرة كستناء أغصانها فى الغرفة ؛ وفى الطابق الأرضى كان يجتمع عدد كبير من الأشخاص وكانوا يتحدثون وينظرون إلى الليل وهو يهبط على الحديقة. وفجأة أشار أحدهم إلى شجرة الكستناء : « أنظروا ! أنظروا ! توجد ريح إذن ؟ » ويتعجب القوم ويخرجون إلى الشرفة فلا يشعرون بنسمة واحدة ؛ ومع ذلك فأوراق الشجر تتحرك . وفى هذه اللحظة تسمع صرخة ! ويصعد زوج المريضة درجات السلم بسرعة ويرى زوجته الشابة

واقفة على سريرها مشيرة إلى الشجرة باصبعها وتسقط ميتة. وعاد إلى شجرة الكستناء جمودها الطبيعي. ما الذى رأته ؟ مجنون فر من الملجأ : وهو الذى أظهر وجهه المكشر وهو مختبيء فى الشجرة. إنه هو ، يجب أن يكون هو بالعقل الذى لا يمكن لأى تفسير آخر أن يرضيه. ومع ذلك ... كيف لم يره أحد وهو يصعد ؟ ولا وهو ينزل ؟ كيف لم تنبح الكلاب ؟ كيف أمكن إلقاء القبض عليه بعد ست ساعات على بعد مائة كيلو متر من المنزل ؟ أسئلة بدون إجابة. وبدأ القصاص فقرة جديدة واختتم القصة فى عدم اكتراث بقوله : « إن كان لابد من تصديق سكان القرية فإن الموت هو الذى كان يهز أغصان شجرة الكستناء. » وألقيت بالجريدة وضربت الأرض بقدمى وقلت بصوت عال : « كلا ! كلا ! » كان قلبى يخفق بشدة واعتقدت ذات يوم أنه سيغمى على وأنا فى قطار ليموج أتصفح تقويم هاشيت[1] ؛ فقد وقع نظرى على صورة يقشعر لها البدن : رصيف تحت ضوء القمر وملقط طويل خشن يخرج من الماء وينشب فى رجل سكران ويسحبه إلى قاع البركة. والصورة توضح نصا قرأته بشغف وينتهى — أو يكاد — بهذه الكلمات : « هل كانت تهيئات سكير ؟ هل انفتحت جهنم ؟ » وخفت من الماء والسراطين والأشجار. وخفت من الكتب على الخصوص : ولعنت الجلادين الذين يحشون قصصهم بهذه الأشكال الرهيبة. ومع ذلك فقد قلدتهم.

---

[1] دار فرنسية للنشر والتوزيع (المترجم) .

كان لا بد طبعاً من مناسبة .عند جنوح النهار مثلا : كان الظلام يغطي غرفة الطعام ، كنت أدفع مكتبي الصغير إلى النافذة ، وكان القلق يبدو من جديد : وإن وداعة أبطالي الذين لا يفارقهم السمو ، هؤلاء الذين أنكروا وأعيد لهم اعتبارهم — قد انكشف تقلبهم . وكان الالهام يأتي حينئذ في هيئة كائن يترنح غير مرئي يسلب لبي ؛ وكي أراه كان لا بد من وصفه . كنت أختم المغامرة الجارية بسرعة ، وأذهب بشخصياتي إلى منطقة أخرى من الكرة الأرضية ، تحت البحر أو تحت الأرض عموما ، وكنت أسرع بتعريضهم لأخطار جديدة . وسواء كانوا غطاسين أو علماء جيولوجيين مرتجلين ، فقد كانوا يعثرون على أثر الكائن ويقتفونه ويلتقون به فجأة . وإن ما كان يظهر عندئذ تحت قلمي — أخطبوط بعينين من نار ، وقواقع تزن عشرين طنا وعنكبوت ضخم يتكلم — كان أنا نفسي ، المسخ الطفلي. كان مللي من الحياة وخوفي من الموت ، كان تفاهتي وفسادي. كنت لا أتعرف على نفسي : فبمجرد ولادته كان المخلوق الدنس ينقلب علي وعلى علماء المياه الجوفية الشجعان . كنت أخاف على حياتهم ، كان قلبي يتحمس... كنت أنسى يدي وأنا أخط الكلمات. . كنت أتخيل أني أقرأها. وغالباً ما كانت تقف الأشياء عند هذا الحد : لم أكن أسلم الناس للوحش ؛ ولكني لم أكن أخلصهم من ورطتهم أيضاً ؛ وكان يكفي بالاختصار أن أصلهم بعضهم ببعض : كنت أنهض وأذهب إلى المطبخ أو إلى المكتبة ؛ وفي الغد كنت أترك صفحة أو صفحتين بيضاوين وألقي بشخصياتي في مشروع جديد. «روايات ، غريبة ، دائما بلا نهاية ، ومعادة ، أو مكملة دائما كما اتفق تحت عناوين أخرى . نفايات من قصص سوداء ومغامرات بيضاء وأحداث

غربية ومقالات مأخوذة من القاموس. لقد فقدتها وأقول فى نفسى أحيانا:
يا للخسارة لو أنى فكرت فى تخبئتها لأسلمتنى اليوم كل طفولتى .

وقد بدأت أكتشف نفسى . لم أكن شيئا يذكر ، كنت على الأكثر
نشاطا بلا محتوى ، ولكن لم تكن هناك حاجة لأكثر من ذلك . كنت
أهرب من المنزل : لم أكن أعمل بعد ولكن كنت توقفت عن اللعب ،
وكان الكذاب يجد حقيقته فى إعداد أكاذيبه . لقد ولدت من الكتابة
وقبل ذلك لم يكن هناك سوى حركة مرايا ؛ ومنذ روايتى الأولى ، عرفت
أن طفلا دخل فى قصر المرايا . كان وجودى فى الكتابة ، وكنت أهرب
بها من الأشخاص الكبار ؛ ولكنى لم أكن أوجد إلا لأكتب .
وإذا قلت : أنا ، فذلك يعنى : أنا الذى أكتب . ومهما يكن الأمر ، فقد
عرفت السرور ؛ إن « الطفل العام » ضرب لنفسه مواعيد خاصة .

كان هذا أجمل من أن يستمر : ولو كنت حافظت على سرى
لظللت صادقا . لقد انتزعت منها . وكنت قد وصلت إلى السن التى اتفق
الناس عندها على القول بأن الأطفال البورجوازيين يظهرون أولى
علامات ميولهم . لقد أعلمونا منذ زمن أن أولاد خالى من أسرتى
شفايتزر ودى جيرينيي سوف يصبحون مهندسين كأبيهم . لم تكن هناك
دقيقة واحدة يمكن إضاعتها . وأرادت السيدة بيكار أن تكون أول من
يكتشف العلامة التى كنت أحملها على جبهتى . قالت مقتنعة « إن هذا
الصغير سوف يكتب ! » . وانزعجت لويز وابتسمت ابتسامتها الصغيرة
الجافة ؛ والتفتت بلانش بيكار نحوها وأعادت بقسوة : « لسوف يكتب !
لقد خلق ليكتب : » وكانت أمى تعلم أن شارل لم يكن يشجعنى أبدا :

لقد خشيت أن تتعقد الأمور وفحصتني بعين حسيرة وقالت « هل تعتقدين يابلانش ؟ هل تعتقدين ؟ » ولكن فى المساء بينما كنت أثب على سريرى لا بسا قميصى ، ضغطت بقوة على كتفى وقالت لى وهى تبتسم : « إن رجلى الصغير سوف يكتب ! » وأخبر جدى فى حذر خشية إغضابه . واكتفى بهز رأسه منكرا ، وسمعته يسر للسيد سيمونو ، الخميس التالى ، أن لا أحد ، فى خريف الحياة ، يستطيع أن يشاهد يقظة عبقرية دون أن يتأثر . واستمر يتجاهل خربشاتى ، ولكن حين كان التلاميذ الألمان يأتون لتناول العشاء فى المنزل ، كان يضع يده على رأسى ويعيد وهو يفصل المقاطع الصوتية كى لا يفوت فرصة دون أن يعلمهم تعبيرات فرنسية بالطريقة المباشرة : « إنه ميال للأدب . »

لم يكن يؤمن بكلمة واحدة مما يقول ، ولكن ما العمل ؟ لقد حدث الضرر ؛ وقد يستفحل بمقاومتى : ولربما أعاند . لقد أعلن كارل ميلى ليحتفظ بفرصة إثنائى عنه . كان لا يحتقر ما توافق عليه المجتمع ، ولكنه كان يتقدم فى السن . وكان حماسه يتعبه ، ففى داخل فكره ، وفى صحراء باردة لا ترتاد إلا قليلا ، أنا واثق أنهم كانوا يعرفون جيداً ما يريدونه منى ومن العائلة ومنه . وذات يوم بينما كنت أقرأ مستلقيا بين قدميه ، فى وسط هذا الصمت المتحجر الذى لا ينتهى والذى كان يفرضه علينا — خطرت له فكرة أنسته وجودى ؛ ونظر إلى أمى مؤاخذا: « وإذا صمم على أن يعيش من قلمه ؟ » إن جدى كان يقدر فرلين وكان لديه نخبة من قصائده . ولكنه يذكر أنه رآه ، فى سنة ١٨٩٤ ، داخلا « وهو يترنح كالخنزير » — حانوت بيع نبيذ فى شارع سان جاك . لقد

غرست فيه هذه المصادفة احتقاره للكتاب المحترفين ، صانعى المعجزات الهزأة الذين يطلبون جنيها ذهبيا ليروا لنا القمر ، وينتهى بهم الأمر بأن يروا لنا عجزهم لقاء مائة صولدى [١] . وبدا على أمى الخوف ولكنها لم تجب . لقد كانت تعلم أن لشارل أهدافا أخرى لى . فى أغلب مدارس الليسيه كانت كراسى اللغة الألمانية مشغولة بأساتذة ألزاسيين اختاروا فرنسا [٢] فكوفئوا على وطنيتهم . ولما كانوا بين أمتين وبين لغتين ، فقد كانت دراساتهم غير منتظمة وكانت ثقافتهم ناقصة ؛ وكانوا يتألمون من ذلك ؛ كما كانوا يشكون من أن عداء زملائهم كان يحول بينهم وبين مجتمع المعلمين . سأثأر لهم ، سأثأر لجدى : كنت حفيدا لإلزاسى وفرنسيا من فرنسا فى وقت معا . سوف يجعلنى كارل أحصل على معرفة عالية . سأسير فى الطريق الملكى : إن الألزاس الشهيدة ستدخل فى شخصى مدرسة المعلمين العليا وتنجح نجاحا باهراً فى مسابقة الأجريجاسيون [٣] وتصبح هذا الأمير : أستاذ آداب . وذات مساء ، أعلن أنه يريد أن يكلمنى كلام رجال ، فانسحبت المرأتان ووضعنى على ركبتيه وحدثنى بوقار ، إنى سوف أكتب وهذا أمر مفروغ منه ، وكنت أعرفه معرفة كافية بحيث لا أخشى أن يقاوم رغباتى ، ولكن كان يجب

---

(١) عملة فرنسية قديمة كانت تساوى $\frac{1}{20}$ من الفرنك (المترجم)

(٢) بعد هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية سلخت منها مقاطعتا الألزاس واللورين وضمتا إلى ألمانيا (المترجم)

(٣) مسابقة لاختيار مدرسين لمدارس الليسيه ولبعض الكليات .

أن نواجه الأشياء بجلاء .. إن الأدب لا يعول صاحبه . هلا أعلم أن كتابا مشهورين ماتوا جوعا ؟ وأن آخرين أضطروا أن يبيعوا أنفسهم ليأكلوا؟ فإن كنت أريد أن أحتفظ باستقلالى كان من الأنسب أن أختار مهنة ثانية. إن التعليم يترك أوقات فراغ ؛ إن شواغل الجامعيين قريبة من شواغل الأدباء وسوف أمر كثيرا من كهنوت إلى آخر ؛ سوف أعيش فى صحبة كبار المؤلفين ؛ وبجهد واحد سوف أكشف لتلاميذى عن مؤلفاتهم واتهل منها وحي . سوف أسلى وحدتى الريفية بنظم القصائد وبترجمة هوراس بأشعار غير مقفاة ، وسوف أبعث للصحف المحلية أعمدة أدبية قصيرة ، وللمجلة التربوية مقالا رائعا عن تعليم اللغة اليونانية ، وآخر عن سيكولوجية المراهقين . وبعد موتى سوف يجدون فى أدراجى مؤلفات لم تنشر ، وتأملا فى البحر ، وملهاة من فصل واحد ، وبحثا عميقا ومؤثرا فى بضع صفحات عن آثار أورياك تصلح أن تكون كتيبا يعنى بنشره تلاميذى القدماء .

ومنذ بعض الوقت ، حين كان جدى يبدى دهشته أمام فضائلى ، كنت أظل جامدا ؛ إن الصوت الذى كان يرتجف حبا وهو ينادينى « هبة السماء » ، كنت أتظاهر بالإصغاء إليه ، ولكن انتهى بى الأمر بعدم سماعه . لم أصغيت إليه فى ذلك اليوم ، فى الوقت الذى كانت فيه أذنى تكذب عن عمد تام ؟ وبأى سوء فهم جعلته يقول عكس ما كانت تزعم أن تعلمنى ؟ ذلك أنها تغيرت : لقد جفت وتصلبت ، فخلتها أذن الغائب الذى جعلنى أرى النور. كان لشارل وجهان : فحين كان يلعب دور الجد، كنت أعتبره مهرجا من نوعى فلا أحترمه . ولكن إذا تحدث إلى السيد

سيمونو وإلى أبنائه ، وإذا جعل امرأتيـه تخدمانه على المائدة وهو يشير باصبعه — دون أن ينبس بكلمة — إلى وعاء الزيت أو سلة الخبز ، كنت أعجب بسلطته . إن حركة سبابته على الخصوص كانت تجعلني أهابه . كان يحرص على عدم مدها وعلى تحريكها فى الهواء بغموض ، وهى نصف مثناة ، كى يكون المشار إليـه غير محدود وكى تخمن خادمتاه أوامره . وكانت جدتى تخطىء وقد عيل صبرها ، فتقدم له وعاء الفاكهة المطبوخة بالسكر ، بينما كان يطلب ماء . كنت ألوم جدتى ، وأنحنى أمام رغباته الملكية التى تريد أن تسبق أكثر من أن تلبى . ولو أن شارل صاح من بعيد وهو يفتح ذراعيه : « ها هو ذا هوجو الجديد ، هـذا شكسبير الصغير ! » ، لـكنت اليوم رساما صناعيا أو معلم آداب . ولـكنه حرص على تجنب ذلك . ولأول مرة توجهت فيهـا للبطريرك ؛ كان يبدو حزينا ووقورا إلى الحد الذى جعله ينسى أن يعبدنى ! كان موسى وهو يعطى الشريعة الجديدة ، شريعتى ! إنه لم يذكر ميـلى إلا لينبهنى إلى أضراره ، فاستنتجت أنه اعتبره أمرا مفروغا منـه لو تنبأ لى بأننى سأبلل ورقتى بدموعى أو أننى سأتمرغ على السجادة ، لأجفل اعتدالى البورجوازى . لقد اقنعنى بموهبتى بأن جعلنى أفهم أن هـذه الفوضى الفخمة لم تكن مخصصة لى . فللبحث فى أورياك أو فى التربية ليست هناك حاجة إلى حمى مع الأسف ولا إلى ضوضاء .إن نحيب القرن العشرين الخالد سوف يتكفل به آخرون . ورضيت بألا أكون زوبعة أبدا ولا صاعقة ، وأن ألمع فى الأدب بصفات بيتية ... بظرفى واجتهادى .وبدت لى مهنة الكتابة نشاطا للكبار.. إنها غاية فى الجدية وتافهة ، وفى الحقيقة غير ذات أهمية إلى الحد

الذى جعلنى لا أشك لحظة أنها خصصت لى . قلت فى نفسى فى آن واحد : « ليس سوى ذلك » و « أنـا موهوب » . وككل الذين يعيشون على أوهام كاذبة خلطت زوال الوهم بالحقيقة .

لقد سلخنى كارل كما يسلخ جلد الأرنب : كنت أعتقد أننى لن أكتب إلا لأثبت أحلامى ، بينما — لو صدقته — لا أحلم إلا لأدرب قلمى ! إن قلقى وأهوائى الخيالية لم تكن إلا حيل ملكتى ، ولم يكن لديها عمل سوى أن تعيدنى كل يوم إلى قمطرى وأن تقدم لى الموضوعات القصصية التى تناسب سنى فى انتظار الاملاءات الكبيرة التى سأتلقاها عن التجربة والنضوج . لقد فقدت أوهامى الخرافية . وكان جدى يقول : « لا يكفى أن تكون لنا عينان ، يجب أن نتعلم كيف نستخدمها . هل تعلم ماذا كان يفعل فلوبير حين كان موباسان صغيرا ؟ كان يجلسه أمام شجرة ويعطيه ساعتين ليصفها » . فتعلمت إذن أن أرى . ولما كنت المنشد الموعود بصروح أوريلاك ، فقد نظرت بحزن إلى هذه الآثار الأخرى : كارتونة المكتب والبيانو والساعة التى سوف تخلدها هى أيضاً — ولم لا ؟ — أعمالى المستقبلة . وجعلت ألاحظ . كانت لعبة محزنة ومخيبة للأمل ، كان لا بد من الوقوف أمام الكرسى ذى المساند المنجد بالمخمل الجيد وفحصه . ما الذى يمكن أن يقال عنه ؟ إنه مغطى بقماش أخضر ، وخشن وإن له ذراعين وأربع أرجل ومسندا على أعلاه بجوزتى صنوبر من خشب . كان ذلك كل شىء حتى تلك اللحظة ، ولكننى سأعود إليه وسأكون أحسن فى المرة القادمة ، وسوف ينتهى الأمر بى إلى معرفته معرفة دقيقة مفصلة . وبعد ذلك سوف أصفه ، ولسوف يقول القراء :

« يا لها من ملاحظة دقيقة ، إننا نراه ، إنه هو ! هذه قسمات لا تخترع ! ».
ولما كنت أصور أشياء حقيقية ، بكلمات حقيقية كتبت بقلم حقيقى ، فإنه
من المؤسف ألا أصبح أنا أيضاً حقيقيا . وبالاختصار كنت أعرف نهائيا
بم يجب الرد على المفتشين الذين يطلبون منى تذكرتى .

كنت أقدر بلا شك سعادتى ! وما كان يضايقنى هو أننى لم أكن
أتمتع بهذه السعادة . كنت صاحب وظيفة ، لقد تفضلوا وجادوا على بمستقبل.
وكنت أعلن أنه ساحر ، ولكنى كنت أكرهه سرا . هل طلبت وظيفة
الكاتب هذه ؟ إن معاشرة الرجال الكبار أقنعتنى بأنه لا يمكن للمرء أن
يصبح كاتبا دون أن يصبح مشهورا ؛ ولكن ، حين كنت أقارن المجد الذى
أصابنى بالمؤلفات الصغيرة التى سوف أتركها خلفى ، كنت أشعر بانخداعى :
هل أستطيع أن أتصور حقيقة أن أحفاد أخوالى سوف يقرأوننى كذلك ،
وأنهم سوف يتحمسون لعمل بهذا الصغر ، لموضوعات كانت تبعث فى الملل
مقدما ؟ كنت أقول فى نفسى أحيانا أننى سوف أنقذ من النسيان بفضل
« أسلوبى » ، هذه الفضيلة اللغزية التى كان جدى ينكرها على ستندال
ويعترف بها لرينان . ولكن هذه الكلمات التى بلا معنى لم تتوصل
إلى طمأنتى .

كان لا بد من أن أتخلى عن نفسى قبل كل شىء . كنت قبل ذلك
بشهرين مبارزا بالسيف ومصارعا : ولكن ذلك قد انتهى . وأمرت بأن
أختار بين كورنى وبارداياڤ الذى كنت أحبه حبا حقيقياً ؛ واخترت
كورنى خضوعا . لقد رأيت الأبطال يجرون ويتصارعون فى اللوكسمبورج ؛

ولما كنت قد هزمت بجمالهم ، فقد فهمت أننى من فصيلة أدنى . كان لا بد من إعلان ذلك ووضع السيف فى غمده واللحاق بالماشية العادية، ومعاودة الاتصال بكبار الكتاب ، هؤلاء الأقزام الذين لم يكونوا يخيفوننى . لقد كانوا أطفالا كسحاء ، وكنت أشبههم فى ذلك على الأقل ، ثم أصبحوا بالغين ضعاف البنية وشيوخا مصابين بالنزلة الشعبية ، وأسوف أشبههم فى ذلك . لقد أرسل أحد النبلاء من يضرب فولتير ، وربما يضربنى بالسوط ضابط مدع قديم من هؤلاء الذين تراهم فى الحدائق العامة .

واعتقدت مسلما بأنى موهوب : ففى مكتب شارل شفايتزر ، بين الكتب المرهقة ذات الأغلفة الممزقة والأجزاء الناقصة ، كانت الموهبة هى أحقر ما يوجد على الأرض . وهكذا ، فى عهد ما قبل الثورة ، كان عدد كبير من الجيل الأصغر المعدين منذ ولادتهم للكهنوت ، يفضلون بذل نفوسهم من أجل قيادة فرقة من الجند . لقد أجملت فى نظرى إحدى الصور زمنا طويلا — أبهة الشهرة المشئومة : مائدة طويلة مغطاة بمفرش أبيض عليها قنينات شراب البرتقال وزجاجات النبيذ المزبد . كنت آخذ كأسا ، يحيط بى رجال بحللهم الرسمية — كانوا خمسة عشر على الأقل — يشربون نخب صحتى ، وتبينت خلفنا رحابة قاعة مغبرة من القاعات التى تؤجر للحفلات . من الواضح أنى لم أكن أنتظر شيئاً بعد ذلك من الحياة سوى أن تجدد لى فى أواخر الحياة العيد السنوى لمعهد اللغات الحية.

وهكذا تشكل مصيرى فى المنزل رقم ١ شارع لوجوف فى شقة بالطابق الخامس ، تحت جوته وشيلر ، وفوق موليير وراسين ولا فونتين

وفى مواجهة هنرى هينى[1] وفكتور هوجو . وخلال أحاديث أعيدت مائة مرة : كنت أنا وكارل نطرد المرأتين ونتعانق عناقا شديدا ، وكنا نتابع همسا محاورات الصم هذه ، وكانت كل كلمة منها تؤثر فى . وبلمسات صغيرة أحسن وضعها ، كان شارل يقنعنى بأنى لست عبقريا وبالفعل فأنا لست عبقريا ، كنت أعلم ذلك ولا أبالى به . ولما كانت البطولة غائبة وغير ممكنة فقد كانت هدف هواى الوحيد . إنها شعلة النفوس الفقيرة ، وإن تعاستى الداخلية ، وشعورى بأنى نافلة كانا يمنعانى من العدول عنها تماما . لم أكن أجرؤ على الفرح بعملى القادم ولكنى فى الواقع كنت مرعوبا . لا بد أنهم أخطأوا فى الطفل أو فى الموهبة . ولما كنت طائعا فقد قبلت ، طاعة لكارل ، المهنة المواظبة لكاتب قاصر . وبالاختصار فقد ألقى بى فى الأدب بالعناية التى بذلها لصرفى عنه : إلى الحد الذى يدعونى حتى اليوم إلى أن أسأل نفسى ، حين يكون مزاجى عكرا ، إن لم أكن أنفقت كل هذه الأيام والليالى ، وملأت كل هذا الورق بحبرى ، وألقيت فى السوق كل هذه الكتب التى لا يتمناها أحد فى سبيل أمل وحيد ، مجنون ، أن أرضى جدى . إنه لمضحك أن أجد نفسى، وأنا فوق الخمسين ، سائرا ، كى أحقق رغبات رجل مات من زمن بعيد ، فى مشروع لن يتوانى عن إنكاره .

وفى الحقيقة إننى أشبه سوان الذى شفى من حبه ويقول متنهدا :

---

(١) شاعر ألمانى ولد فى دسلدورف ١٧٩٧ وتوفى فى باريس سنة ١٨٥٦ . أشتهر بأشعاره الساخرة الحزينة (المترجم)

« لو أقول أنى أضعت حياتى من أجل امرأة لم تكن تناسبنى ! » إنى أكون أحيانا فظا فى الخفاء : إنه تدبير صحى بدائى . ولكن الفظ دائما على حق ، ولكن إلى حد ما . صحيح أننى غير موهوب للكتابة ؛ لقد قالوها لى ، وعاملونى على أنى قوى فى الترجمة إلى لغة أخرى : أنا واحد من هؤلاء ، وتنبعث من كتبى رائحة العرق والتعب ، إنى أعترف أنها تزكم أنوف أرستقراطيينا . وغالبا ما كتبتها على الرغم منى ، أى على الرغم من الجميع[1] ، فى جهد عقلى مفرط انتهى به الأمر أن أصبح توترا فى أوعيتى الدموية . لقد خاطوا لى وصاياى تحت جلدى : فإذا ظللت يوما دون كتابة آلمتنى الندبة ؛ وإذا كتبت عنتهى السهولة آلمتنى أيضا . إن هــذا المطلب المعقد يدهشنى اليوم بصلابته وخرقه : إنه يشبه هذه السراطين المزركشة التى تعود إلى ما قبل التاريخ والتى يلقى بها البحر على شواطىء نويج ايلاند . إنه يظل حيا مثلها ، بعد أزمنة ولت . لقد حسدت زمنا طويلا بوابى شارع لاسبيد حين يخرجهم المساء والصيف على الطوار وقد ركبوا على كراسيهم . إن عيونهم البريئة ترى دون أن تكلف بالنظر .

غير أنه : فيما عــدا بعض المسنين الذين يغمسون أقلامهم فى ماء الكولونيا وبعض المتحذلقين الذين يكتبون كالجزارين ، فإن الأقوياء فى الترجمة إلى لغتهم لا وجود لهم . ويعود ذلك إلى طبيعة الكلمة . إننا نتحدث بلغتنا ونكتب بلغة أجنبية . استنتج من ذلك أننا جميعا سيان فى مهنتنا :

---

(١) سايروا أنفسكم بحبكم المسايرون الآخرون ، مزقوا جاركم فإن الجيران الآخرين سوف يضحكون . ولكن إن ضربت روحك فإن كل الأرواح سوف تصرخ .

جميعنا محكوم علينا بالأشغال الشاقة،وجميعنا موشومون . وقد فهم القارىء أيضا أننى أ كره طفولتى وما هو باق منها : صوت جدى ، هـذا الصوت المسجل الذى يوقظنى مرتجفا ويقذف بى إلى منضدتى ، وما كنت لأصغى إلى هذا الصوت لو لم يكن صوتى ، لو لم استرد لحسابى ، فى غطرستى ، وأنا بين الثامنة والتاسعة ، الأمر الصارم الذى كنت قد تلقيته أيام ذلك .

« إنى أعلم جيداً أننى لست إلا آلة
لعمل الكتب . »

(شاتوبريان)

كدت أنقض وعدى . إن الموهبة التى اعترف كارل لى بها كرها ، وقد رأى أنه ليس من الحكمة إنكارها تماما — كنت لا أرى فيها فى الواقع إلا صدفة غير قادرة على تحليل هذه الصدفة الأخرى التى هى أنا . كان لأمى صوت جميل ، فكانت تغنى إذن . ولكنها كثيراً ما كانت تسافر بلا تذكرة . أما أنا ، فكنت ميالا للأدب : سوف أكتب إذن ، سوف أستغل هذا المنجم طول حياتى . حسن . ولكن الفن فقد — على الأقل بالنسبة لى — سلطاته المقدسة . سوف أظل مشرداً — ولكن مجهزاً أحسن قليلا ، هذا كل مافى الأمر . وكى أشعر بضرورتى ، لا بد من أن أطلب . لقد ربتنى عائلتى بعض الوقت فى هذا الوهم ؛ وكررت على أننى هبة السماء ، وأننى منتظر جدا وضرورى لجدى ولأمى ، ولم أعد أصدق ذلك ، ولكننى احتفظت بهذا الشعور : إن المرء يولد زائدا عن الحاجة ، إلا إذا جاء لهذا العالم خصوصا — من أجل شىء ينتظره . إن كبريائى ووحدتى وصلا فى ذلك الوقت إلى الحد الذى جعلنى أتمنى الموت أو أن تطلبنى الأرض كلها .

لم أعد أكتب : إن تصريحات السيدة بيكار أضفت على مناجيات

قلمى أهمية لم أجرؤ معها بعد ذلك على متابعتها . وعندما أردت العودة إلى رواياتى ، لأنقذ على الأقل الفتى والفتاة اللذين تركتهما دون مؤن ولا قبعة المناطق الحارة فى وسط الصحراء — عرفت أهوال العجز . فما أن أجلس حتى يمتلىء رأسى بالضباب. كنت أقضم أظافرى وأنا أكشر بوجهى . لقد فقدت البراءة . كنت أقف وأجول فى الشقة بروح مضرم النار ؛ ولكنى ، ويا للأسف ، لم أشعل النار فيها قط . فلما كنت وديعاً بوضعى وذوقى وعادتى ، فإنى لم أعد إلى التمرد بعد ذلك إلا لأنى كنت قد وصلت بخضوعى إلى أقصى حد . لقد اشتروا لى « كراسة واجبات » مغلفة بقماش أسود وباطراف حمراء . لم تكن فيها أية علامة خارجية تميزها عن « كراسة رواياتى ». وما أن نظرت إليها حتى اختلطت واجباتى المدرسية والتزاماتى الشخصية بعضها ببعض ، كنت أطابق المؤلف على التلميذ ، والتلميذ على معلم المستقبل . كانت الكتابة وتعليم قواعد اللغة شيئا واحداً ؛ لقد أمم قلمى وسقط من يدى وظللت عدة شهور دون أن أعود إلى الإمساك به . كان جدى يبتسم فى سره حين كنت أجر عبوسى إلى مكتبه : لاشك أنه كان يقول فى نفسه أن سياسته كانت تحمل ثمراتها الأولى .

ولكنها أخفقت لأن رأسى كانت ملحمية . لقد تحطم سيفى وألقى بى مع العامة ، وغالبا ما كنت أحلم بهذا الحكم المقلق ، كنت أحلم أنى فى اللوكسمبورج ، بالقرب من البركة فى مواجهة مجلس الشيوخ ؛ كان على أن أحمى من خطر غير معروف — بنتا صغيرة شقراء تشبه فيفى التى كانت قد ماتت قبل ذلك بعام . كانت الصغيرة تتطلع إلى بعينيها الرزينتين

فى هدوء وثقة ؛ وغالبا ماكانت تمسك بطوق . كنت أنا الخائف : كنت أخشى أن أتركها لقوى غير مرئية . ومع ذلك كم كنت أحبها أى حب حزين ! وما زلت أحبها ! لقد بحثت عنها وفقدتها ، ووجدتها وضممتها بذراعى وفقدتها ثانية . هذه هى الملحمة . وفى الثامنة من عمرى ، فى الوقت الذى كنت سأسلم فيه انتابتنى رجفة عنيفة . وكى أنقذ هـذه الميتة الصغيرة ، ألقيت بنفسى فى عملية بسيطة وجنونية حولت مجرى حياتى : لقد أعطيت للكاتب سلطات البطل المقدسة .

لقد كان هناك اكتشاف أو بالأحرى تذكر فى الأصل — ذلك أن قلبي حدثنى به قبل ذلك بسنتين : حدثنى أن المؤلفين الكبار يعتون إلى الفرسان الجائلين بأن هؤلاء وأولئك يثيرون الشواهد المفعمة بعرفان الجميل . وبالنسبة لبارديان ، لم تكن هناك حاجة إلى برهان : إن دموع اليتيمات الشاكرات قد حفرت مجرى فى ظهر يده . ولكن إذا صدقنا قاموس لاروس الكبير وتراجم المتوفين التى كنت أقرأها فى الجرائد ، فإن الكاتب لم يكن أقل حظوة . فإذا حدث وطال به العمر ، ينتهى به الأمر حتما إلى أن يتسلم خطابا من مجهول يشكره . ومنذ هـذه اللحظة لاينقطع سيل خطابات الشكر ، وتتراكم على مكتبه وتزحم شقته ؛ ويجتاز بعض الأجانب البحار ليحيوه ؛ وبعـد موته يكتتب مواطنوه ليشيدوا له نصبا تذكاريا ؛ فى المدينة التى ولد فيها . وأحيانا فى عاصمة بلده تحمل اسمه بعض الشوارع . إن هـذا التكريم لم يكن يهمنى فى ذاته : إنه يذكرنى كثيرا بالتمثيلية العائلية . غير أن صورة أهاجتنى : إن ديكنز الروائى الشهير سيصل بالبحر بعد بضع ساعات إلى نيويورك ، وتشاهد من بعيد السفينة التى تقله

ويتجمع الجمهور على الرصيف ليرحب به ويفتح كل أفواهه ويلوح بألف قبعة . إن الزحام شديد لدرجة أن الأطفال يختنقون ، ومع ذلك فهذا الجمهور وحيد ويتيم وأرمل وقفر لغياب واحد ، وهو الرجل الذى ينتظر وصوله . وهمست: « ينقص شخص واحد هنا،وهذا الشخص هو ديكنز ! » وصعدت الدموع إلى عينى . ومع ذلك فقد نحيت هذه التأثرات ورجعت رأساً إلى أسبابها ، وقلت فى نفسى : كى يهتف لرجال الأدب هذا الهتاف الجنونى لابد أنهم يواجهون أشد المخاطر ، ويقدمون للانسانية أجل الخدمات . لقد حضرت مرة واحدة فى حياتى مثل هذا الحماس الشديد . وكانت القبعات تتطاير ، وكان الرجال والنساء يصيخون : مرحى ، مرحى . كان ذلك في عيد ١٤ يوليو[١] ، وكان القناصة الجزائريون يمرون فى الاستعراض العسكرى . إن هذه الذكرى انتهت بإقناعى : فعلى الرغم من عيوبهم الجسمية وتكلفهم وأنثويتهم الظاهرة ، كان زملائى أنواعا من الجنود ، كانوا يخاطرون بحياتهم جنوداً غير نظاميين فى معارك غامضة . إنهم يصفقون لشجاعتهم العسكرية أكثر مما يصفقون لموهبتهم . قلت فى نفسى : هذا حق إذن ! إننا فى حاجة إليهم.فى باريس ونيويورك وموسكو ينتظرونهم فى قلق شديد أو فى إعجاب شديد قبل أن ينشروا كتابهم الأول قبل أن يبدأوا فى الكتابة ، بل قبل أن يولدوا .

ولكن ... أنا ؟ أنا الذى رسالته الكتابة ؟ إنهم كانوا ينتظروننى . لقد حولت كورنى إلى بارديان : احتفظ بساقيه المعوجتين وصدره الضيق

---

(١) عيد الثورة الفرنسية الكبرى ثورة ١٧٨٩ (المترجم) .

ووجهه الشاحب ، ولكنى نزعت عنه بخله وحبه للربح ، لقد خلطت عمداً فن الكتابة بالكرم . وكان من السهل بعد ذلك أن أحول نفسى إلى كورنى وأن أعطى نفسى هذا التوكيل:حماية النوع . إن خدعتى الجديدة كانت تعد لى دوراً غريباً ؛ لقد ربحت فى الحال كل شىء . ولما كنت ردىء الطبع ، فقد بحت بمجهوداتى لأولد ثانية : إن توسلات البراءة التى فى خطر قد أثارتنى ألف مرة. ولكن كان ذلك للمزاح . ولما كنت فارسا مزوراً ، فقد قمت ببطولات مزورة ، أدى عدم صلابتها إلى تقززى منها . ولكن ها هم يردون لى أحلامى وتتحقق هذه الأحلام . ذلك أن دعوتى كانت واقعية ، ولا أستطيع أن أشك فى ذلك بما أن الكاهن الكبير قد كفله. ولما كنت طفلا خيالياً ، فقد أصبحت مغامراً حقيقياً قد تكون مفاخره كتباحقيقية . كنت مطلوبا ! كانوا ينتظرون عملى ، ولم يظهر جزؤه الأول على الرغم من جهدى قبل سنة ١٩٣٥ . وفى حوالى سنة ١٩٣٠ بدأ صبر الناس ينفد ، ويقولون فيما بينهم : « إن هذا الرجل يتباطأ ! إنه يطعم منذ خمس وعشرين سنة دون أن يفعل شيئا!هل سنموت دون أن نقرأه؟» وكنت أجيبهم بالصوت الذى كان لى فى سنة ١٩١٣ : « أتركوا لى وقتا للعمل ! »ولكن بلطف. كنت أرى جيداً ــ والله وحده يعرف السبب ــ أنهم فى حاجة إلى مساعداتى ، وأن هذه الحاجة قد جعلتنى أنا الوسيلة الوحيدة لإجابة هذه الحاجة . كنت أجتهد لمباغتة هذا الانتظار العالمى فى أعماق نفسى ، ينبوعى الحى وسبب وجودى ، كنت أعتقد أحيانا أننى على وشك النجاح ، ولكن بعد لحظة ، كنت أترك كل شىء فى سبيله . ومهما يكن الأمر : فإن هذه الايحاءات كانت تكفينى . وأنظر إلى الخارج

مطمئنا فلربما كنت ناقصا فى بعض الأماكن . ولكن لا : فما زال الوقت مبكراً . ولما كنت هدفا جميلا لرغبة ما زالت تجهل نفسها ، فقد قبلت بفرح أن أظل بعض الوقت متنكراً . وكانت جدتى تصحبنى أحياناً إلى قاعة المطالعة ، فكنت أتسلى برؤية سيدات طويلات القامة ، حالمات وغير راضيات ، ينتقلن من حائط إلى آخر بحثا عن المؤلف الذى يشفى غليلهن: ولكن كن لا يعثرن عليه لأنه كان أنا ،هذا الطفل الذى كان بين أرجلهن ولا ينظرن إليه .

كنت أضحك خبثا وأبكى شفقة : لقد قضيت حياتى القصيرة مبتكراً لنفسى أذواقا وآراء متحيرة كانت لاتلبث أن تذوب . ولكن ها هم يسبرون غورى ويصطدمون بالصخر . كنت كاتبا كما كان شارل شفايتزر جداً : بالولادة وإلى الأبد ! ولكن كان يحدث أن يبرز قلق تحت الحماس : إن الموهبة التى كنت أعتقد أن شارل كفلها ، كنت أرفض أن أعتبرها حادثة ورتبت أمرى لأجعل منها انتدابا ، ولكن لعدم وجود تشجيع ومطالبة حقيقية ، فإنى لم أكن أستطيع أن أنسى أننى كنت أعطى هـذه الموهبة لنفسى . ولما كنت خارجا من عالم ما قبل الطوفان ، فى اللحظة التى كنت أنفلت فيها من الطبيعة لأصبح أخيراً أنا ، هذا الآخر ، الذى كنت أدعى أننى هو فى عيون الآخرين ، كنت أواجه مصيرى ، وقد تعرفت عليه : لم يكن سوى حريق واقفة أمامى بفضل جهودى ، كأنها سلطة غريبة . وبالاختصار ، فإنى لم أتوصل إلى خداع نفسى تماما . ولا أن أتيقظ تماما . كنت أتذبذب . وبعث ترددى مشكلة قديمة إلى الحيـاة : كيف أضم يقين ميشيل ستروجوف إلى كرم بردايان ؟ وحين كنت فارسا لم أتلق

أوامر قط من الملك ؟ هل يجب أن أقبل أن أكون مؤلفا بالأمر ؟ ولم يكن الضيق يطول كثيراً أبداً ؛ كنت فريسة لاعتقادين متعارضين ، ولكنى كنت أرتضى تناقضهما تماما . بل كان ذلك يلائمنى فأكون هبة السماء وابن أعمالى فى نفس الوقت . وفى أيام اعتدال مزاجى ، كان كل شىء ينبعث من داخلى . وكنت أنفلت من العدم بقواى الذاتية لكى أقدم للناس المطالعات التى يتمنونها . ولما كنت طفلا خاضعا ، فإنى سوف أطيع حتى الموت ، ولكن ... نفسى . وفى ساعات الحزن ، حين كنت أشعر بالتفاهة المنفرة لاستعدادى، لم أكن أستطيع أن أهدىء نفسى إلاباستعجال قدرى . لقد استدعيت النوع الإنسانى وأسندت إليه مسئولية حياتى فأنا لم أكن إلا نتاج مطلب جماعى . وفى أغلب الأحيان ، كنت أراعى راحة قلبى ، مجتهداً ألا استبعد استبعادا كاملا — الحرية التى تحمس ، ولا الضرورة التى تبرر .

كان فى استطاعة بارديان وستروجوف أن يعيشا متفقين . كان الخطر فى مكان آخر ، وقد وجدتنى شاهداً فى مواجهة مكروهة ، اضطرتنى فيما بعد أن أتخذ بعض الاحتياطات . إن المسئول الكبير هو زيفاكو الذى لم أكن أشك فيه ؛ هل أراد أن يضايقنى أو أن يحذرنى ؟ الواقع أنه ذات يوم فى مدريد وفى خان ، حين كنت لا أنظر إلا لبرديان ، وكان هذا المسكين يستريح وهو يشرب كأسا من النبيذ يستحقه تماما ، لفت هذا المؤلف انتباهى إلى زبون لم يكن سوى سرفانتيس . وتعارف الرجلان وأبدى كل منهما تقديره للآخر وذهبا ليحاولا معا القيام بهجوم فاضل . والأسوأ من ذلك أن سرفانتيس أسر ، وهو كله سعادة ، إلى صديقه

الجديد ، أنه يريد أن يكتب كتابا . وحتى ذلك الوقت ، كانت الشخصية الرئيسية للكتاب لا تزال غير واضحة . ولكن ظهر بحمد الله بردايان ليكون نموذجا له . واستولى على الغضب وكدت ألقى بالكتاب . يا لها من قلة ذوق ! لقد كنت كانبا فارساً ، وكانوا يقسموننى نصفين ، وكان كل نصف يغدو إنسانا كاملا ويقابل النصف الآخـــر وينازعه . لم يكن بردايان أبله ، ولكنه لم يكن قط ليكتب دون كيشوت . إن سرفانتيس يتعارك جيداً ، ولكن لم يكن من المتوقع أن يهزم وحده عشرين من الجنود المرتزقة الهاربين. إن صداقتهما نفسها كانت تؤكد حدودهما . وكان الأول يقول فى ذاته « إن هذا المدعى المضحك لضعيف الصحة بعض الشيء ولكن الشجاعة لا تنقصه . » ويقول الثانى فى نفسه : « بالنسبة لجندى من الجنود المرتزقه ، فإن تفكير هذا الرجل ليس سيئاً للغاية . » ثم إنى لم أكن أحب قط أن يعتبر بطلى نموذجا لفارس « الوجه الحزين » . ففى أيام « السينما » أهديت الطبعة المهذبة لدون كيشوت، ولم أقرأ منها أكثر من خمسين صفحة . كانوا يسخرون علانية من بطولاتى ! وها هو ذا زيفاكو نفسه ... فيمن أثق إذن ؟ لقد كنت فى الحقيقة عاهرة، بنتا من البنات اللواتى يعابثن الجنود . إن قلبى ، قلبى الجبان كان يفضل المغامر على المفكر ؛ كنت خجلا لأننى لم أكن سوى سرفانتيس . وكى أمنع نفسى من أن أخون ، جعلت السيادة للارهاب فى رأسى وفى مجموعة مفرداتى ، فقد كنت أطارد كلمة البطولة وبديلاتها ، وأبعدت الفرسان الجائلين ، وكلمت نفسى دون انقطاع عن رجال الأدب وعن الأخطار التى يتعرضون لها ، وعن قلمهم الحاد الذى كان يطعن الأشرار . وتابعت

قراءة بردايان وفاوست والبؤساء وأسطورة القرون ، وبكيت على جان فالجان[1] وايفيرادنوس ، ولكن حين كنت أقفل الكتاب ، كنت أمسح أسماءهم من ذاكرتي وكنت أتمم على فيلق الحقيق . سيلفيو بليكو : المسجون مدى الحياة . أندريه شنييه[2] : الذى ضرب عنقه بالمقصلة . اتيين دوليه[3] : الذى أحرق حيا . بايرون الذى مات من أجل اليونان . واجتهدت بانفعال فى تغيير وجه موهبتى بأن صببت فيها أحلامى القديمة ولم يثننى شىء : فلويت الأفكار ، وحرفت معنى الكلمات ، وتجنبت من العالم خوفا من الالتقاءات السيئة والمقارنات . وحلت التعبئة الكاملة والدائمة مكان فراغ نفسى : فقد أصبحت دكتاتورية عسكرية

واستمر القلق فى شكل آخر : ليس هناك أفضل من شحذ ملكتى . ولكن ما جدواها ؟ لقد كان الناس فى حاجة إلى .. ولم ؟ لقد سألت نفسى للأسف عن دورى وعن مصيرى . وسألت : « وأخيرا ... ما الأمر؟ »

وفى هذه اللحظة ، خلت كل شىء قد ضاع . لا شىء ! ليس بطلا كل من يريد أن يكون بطلا ، ولا تكفى لا الشجاعة ولا الموهبة ... لا بد من وجود أفاع ذات سبعة رؤوس وتنانين . لم أكن أرى منها شيئاً فى أى مكان . إن فولتير وروسو تصارعا بهمة قعساء فى زمانهما : ذلك أنه كان لا يزال هناك طغاة . وأنزل هوجو صواعقه من جزيرة جرنيزيه على

---

(١) بطل رواية البؤساء لفكتور هوجو (المترجم)

(٢) شاعر فرنسى ولد فى الأستانة سنة ١٧٦٢ ، اشترك فى الحركة الثورية أول الأمر ثم احتج على تطرف عهد الارهاب فاعدم على المقصلة سنة ١٧٩٤ .

(٣) فقيه فى اللغة وطابع فرنسى ولد فى سنة ١٥٠٩ . أحرق فى باريس سنة ١٥٤٦ لآرائه الجريئة (المترجم) .

بادانجيه[1] ، الذى كان جدى علمنى أن أكرهه . ولكننى لم أكن أحس بعزة فى إعلان كراهيتى ، ذلك أن هذا الامبراطور كان قد مات منذ أربعين سنة . وظل شارل صامتا فيما يتعلق بالتاريخ المعاصر . إن هذا الشايع للضابط دريفوس لم يحدثنى قط عن دريفوس . يا للأسف ! فبأى حماس كنت سألعب دور زولا[2] ، فإذا قرعت وأنا خارج من المحكمة فإنى كنت عندئذ التفت ورائى وأنا على درج عربتى ، وأحطم أكثر هؤلاء المقرعين هياجا . كلا ، كلا : كنت سأجد كلمة مرعبة تردهم على أعقابهم . وأرفض أنا بلا شك أن أفر إلى انجلترا . ويا لها من سعادة أن أصبح جريزليديس ثانية ، بعد أن أنكرونى وخذلونى ، وأن أذرع طرقات باريس ، دون أن أشك لحظة أن البانثيون[3] ينتظرنى .

كانت جدتى تتسلم كل يوم صحيفة « الماتان» ، وإن لم أخطىء ، صحيفة « الاكسلسيور » . لقد عرفت وجود اللصوصية والاحتيال اللذين كنت أكرههما مثل كل الشرفاء . ولكن هذه النمور ذات الوجه البشرى لم تكن لترضينى : إن السيد ليبين[4] الجسور كان يكفى لكبحها . وكانت العمال يغضبون أحيانا فلا تلبث رؤوس الأموال أن تطير ، ولكنى لم أعلم

(١) الأمبراطور نابليون الثالث الذى هاجم حكمه الكاتب الفرنسى فكتور هوجو (المترجم) .

(٢) دافع أميل زولا الكاتب الفرنسى عن دريفوس وطالب باعادة محاكمته (المترجم)

(٣) مثوى عظماء فرنسا وقد دفن فيه أميل زولا (المترجم) .

(٤) مدير الشرطة الفرنسية من سنة ١٨٩٣ إلى سنة ١٩١٢ (المترجم)

شيئاً عن ذلك وإني لأجهل أيضاً رأى جدى فى ذلك . كان يؤدى بدقة واجباته كناخب . كان يخرج بعد أن يدلى بصوته وقد استرد شبابه وبدا مزهوا بعض الشيء . وحين كانت امرأتانا تغيظانه بسؤاله « قل لنا لمن تعطى صوتك ! » كان يجيب بجفاء : « إنها مسألة تخص الرجال ! » ولكن حين انتخب رئيس الجمهورية الجديد ، أفهمنا ، فى لحظة عدم تكلف ، أنه يرثى لترشيح بامز[1] ، وصاح بسورة غضب : « إنه بائع سجاير ! » . إن هذا المثقف الذى ينتمى إلى الطبقة البورجوازية الصغيرة كان يريد أن يكون الموظف الأول فى فرنسا أحد أترابه ، مثقفاً من الطبقة البورجوازية الصغيرة ... بوانكاريه[2] . وتؤكد لى أمى اليوم أنه كان يعطى صوته للحزب الراديكالى ، وأنها كانت تعلم ذلك جيداً . إنى لا أدهش لذلك : فقد اختار حزب الموظفين . ثم إن الراديكاليين كانوا باقين على قيد الحياة ، وكان شارل يجد الرضى بأن يصوت لحزب نظام باعطائه صوته لحزب حركة . وبالاختصار ، فإن السياسة الفرنسية ، إن صدق ، كانت تسير على ما يرام .

وكان ذلك يحزننى : فقد تسلحت لأدافع عن البشرية ضد أخطار مروعة . وكان الجميع يؤكدون لى أنها كانت تسير ببطء نحو الكمال . لقد ربانى جدى على احترام الديمقراطية البورجوازية التى من أجلها كنت أخرجت قلمى من غمده عن طيب خاطر ؛ ولكن فى عهد رئاسة فاليير[3]

---

(١) يقصد الرئيس فاليير (المترجم)

(٢) رئيس الجمهورية الفرنسية من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٠ (المترجم)

(٣) أرمان فاليير رئيس الجمهورية الفرنسية من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩١٣ (المترجم)

كان الفلاح له حق التصويت : فما الذى يمكن أن يطلب فوق ذلك ؟ وما الذى يعمله جمهورى ما دام قد سعد بالعيش فى جمهورية ؟ إنه يطرقع أصابعه ، أو يعلم اليونانية ويصف آثار أورياك فى أوقات فراغه . لقد عدت إلى النقطة التى بدأت منها ، وتخيلت أننى أختنق مرة أخرى فى هذا العالم الذى لا منازعات فيه ؛ والذى يؤدى بالكاتب إلى البطالة .

إنه شارل كذلك الذى أخرجنى من حيرتى ، دون علمه بالطبع .. فقبل ذلك بسنتين ، كى ينبهنى لاحياء الآداب القديمة ، قدم لى أفكارا لم يعد ينطق منها بكلمة ، خوفا من أن يشجع جنونى . ولكن هذه الأفكار كانت قد انحفرت فى ذهنى . لقد عاودت ، دون جلبة ، مفعولها . ولإنقاذ ما هو جوهرى ، حولت شيئاً فشيئاً الكاتب الفارس إلى كاتب شهيد . كنت قد ذكرت كيف أن هذا الراعى الناقص ، الأمين على رغبات أبيه ، قد احتفظ بالإلهى ليصبه فى الثقافة . ومن هذا المزيج الغريب ولد الروح القدس ، صفة الجوهر اللانهائى ، حامى الآداب والفنون واللغات الميتة أو الحية وطريقة التعليم المباشرة ، حمامة بيضاء كانت تفيض على عائلة شفايتزر بظهورها ، وكانت ترفرف يوم الأحد فوق الأرغن والفرق الموسيقية ، وتحط فى أيام العمل على رأس جدى . وإن أحاديث كارل القديمة بعد جمعها فى رأسى قد ألفت خطبة : إن العالم فريسة الشر ، وليس هناك إلا خلاص واحد : أن نتصرف تماما عن أنفسنا ، عن الأرض ، وأن نتأمل من أعماق ما غرق — الأفكار المستحيلة . ولما كان لا يمكن التوصل إلى ذلك إلا بتدريب صعب وخطر فقد عهد بهذا العمل إلى هيئة من الإخصائيين . لقد تولى الكهنوت عبء البشرية وأنقذها بفكرة.

الشفاعة : إن لوحوش العالم الدنيوى ، صغارا وكبارا الوقت الكافى ليقتتلوا أو ليعيشوا فى خدر حياة بلا حقيقة ، بما أن الكتاب والفنانين يتأملون الجمال والخير وهم قابعون فى أماكنهم . ولاقتلاع النوع كله من الحيوانية لا بد من شرطين فقط : أن تحتفظ فى دور محروسة بمخلفات رجال الثقافة المتوفين وهى اللوحات والكتب والتماثيل ؛ أن يظل عالم واحد على الأقل على قيد الحياة ليكمل المهمة ويصنع ذخائر المستقبل .

إنه لعبث قذر : كنت أزدرده دون أن أفهمه تماما ، كنت مازلت أومن به وأنا فى العشرين من عمرى . ومن أجل هذا العبث ، اعتبرت العمل الفنى طويلا حدثا ميتافيزيقيا يهتم لمولده الكون . لقد أخرجت من تحت التراب هذا الدين المفترس واتخذته دينا لى لأطلى بالذهب دعوتى المعتمة : لقد ابتلعت ضغائن وفظاظات لم تكن لى أبدا ولم تكن لجدى كذلك ، لقد سممنى غيظ فلوبير وجونكور وجوتييه القديم ؛ إن كراهيتهم المجردة للانسان والتى أدخلت فى تحت قناع الحب عدتنى بادعاءات جديدة . وقد أصبحت ملحدا وخلطت بين الأدب والصلاة وجعلت منها ضحية بشرية . وقررت أن اخوانى سوف يطلبون منى فقط أن أكرس قلمى لا فتدائهم : إنهم يتألمون من عدم كفاية وجودهم التى ، لولا شفاعة القديسين ، يكون مآلها الفناء الدائم ؛ وإن فتحت عينى كل صباح وإن رأيت ، وأنا أجرى إلى النافذة ، رجالا ونساء يمرون فى الشارع ولا يزالون أحياء ، فذلك لأن عاملا فى غرفة كافح من الغسق إلى الشفق ليكتب صفحة خالدة تعطينا مهلة يوم . وسوف يعاود الكرة عندما يأتى

الليل ، هذا المساء وغدا ، حتى يموت من البلى ؛ وأحل محله : وأنا أيضاً سوف أوقف الجنس البشرى على حافة الهاوية بقربانى الصوفى ، بعملى ؛ لقد ترك العسكرى مكانه فى السر للكاهن : ولما كنت بارسيفال(١) فاجعا فقد قدمت نفسى كفارة . ومنذ اليوم الذى اكتشفت فيه شانتكلير(٢) ، تكونت عقدة فى قلبى : عقدة أقاع كان لا بد من ثلاثين سنة لحلها : إن هذا الديك يجد طريقه لحماية حظيرة الطيور كلها ، على الرغم من تمزيقه وادمائه وضربه ، إن صياحه كاف لجعل الصقر يولى الأدبار والجمهور الدنىء يتملقه بعد أن سخر منه ؛ وعندما يختفى الصقر يعود الشاعر إلى المعركة ، إن الجمال يوحى إليه ويضاعف قواه ويهجم على عدوه ويجندله . وبكيت : إن جريزيليديس وكورنى وبردايان كنت أجدهم جميعا فى شخص واحد : إن شانتكلير هو أنا . كل شىء بدا لى بسيطا : إن الكتابة هى إضافة لؤلؤة لعقد عرائس الشعر ، هى ترك ذكرى حياة مثالية للأجيال القادمة ، هى الدفاع عن الشعب ضد نفسه وضد أعدائه ، هى انزال بركة السماء على الناس بقداس احتفالى . ولكن لم يطرأ على بالى أنه يمكننا الكتابة كى نقرأ .

---

(١) دراما موسيقية من ثلاثة فصول . نظمها ولحنها ر. واجنر فى سنة ١٨٨٢ . وهى آخر عمل من أعمال هذا الملحن ومن أكثرها تأثيرا . إن فكرة الفداء تنحو نحو تعبير صوفى (المترجم)

(٢) تمثيلية شعرية تأليف أدمون روستون (١٩١٠) أشخاص هذه التمثيلية حيوانات ترمز إلى اعوجاج الإنسان وأهوائه (المترجم)

إننا نكتب لجيراننا أو لله . وقررت أن أكتب لله لأخلص جيرانى . كنت أريد عارفين بالجميل لا قراء : إن الاحتقار كان يفسد كرمى . فمن الوقت الذى كنت أحمى فيه اليتيمات ، بدأت أتخلص منهن بارسالهن ليختبئن . ولما أصبحت كاتباً لم تتغير طريقتى : فقبل أن أخلص البشرية ، سوف أبدأ بتعصيب عينيها ؛ وعندئذ فقط ، أنبرى للمرتزقة الصغار السود السريعين ، أنبرى للكلمات ؛ وحين تجرؤ يتيمتى الجديدة على أن تفك العصبة ، سوف أكون بعيداً ؛ ولن تلحظ فى أول الأمر ، وقد أنقذتها شجاعة وحيـــدة ، المجلد الصغير الذى يشع على رف من رفوف المكتبة الأهلية ، والجديد كل الجدة الذى سوف يحمل اسمى .

إنى أترافع على أساس الظروف المخففة ، وهى ثلاثة . كنت أطرح للمناقشة أولا ، خلال حلم صاف ، حتى فى الحياة . فى هذه البشرية التى لا تحمل جواز مرور والتى تنتظر ارادة الفنان التحكمية ، تتعرف على الطفل المتخم بالسعادة الذى يتململ على مجثمه ، لقد قبلت خرافة القديس البغيضة ، هذا القديس الذى يخلص السوقة ، ذلك لأن السوقة هى أنا آخر الأمر : وأعلنت أننى المنقذ الرسمى للجماهير فضلا عن تحقيق خلاصى سرا وبالمناسبة ، كما يقول اليسوعيون .

ثم إنى كنت فى التاسعة من عمرى . ولما كنت ابنا وحيدا وبدون رفيق ، لم أكن أتخيل أن يكون لعزلتى نهاية . يجب أن أعترف بأنى

كنت مؤلفا مجهولا تماما . فقد عاودت الكتابة . إن رواياتى الجديدة لعدم توافر ما هو أفضل منها — كانت تشبه القديمة بحذافيرها ، ولكن لا أحد كان يعرف ذلك ، حتى أنا الذى كنت أكره أن أعاود قراءة ما أكتب : كان قلمى سريعاً بحيث كثيراً ما كان معصمى يؤلمنى ؛ كنت ألقى على الأرضية الخشبية الكراسات ممتلئة،وكان ينتهى بى الأمر بنسيانها وكانت تختفى ؛ ولهذا السبب لم أكن أنهى شيئا : فما جدوى أن أقص نهاية قصة ما دامت بدايتها قد فقدت . ومن ناحية أخرى ، لو أن كارل تفضل وألقى نظرة على هذه الصفحات ، لما كان « قارئا » فى نظرى ، ولكن قاضياً أعلى ، ولخشيت أن يحكم على . إن الكتابة ، عملى الأسود ، لم تكن تحيل إلى شىء ، وكانت تعتبر نفسها غاية فى ذاتها : كنت أكتب للكتابة . وإنى لا أندم على ذلك : ولو كنت أقرأ لحاولت أن أرضى ولعدت عجيبا . ولأنى كنت أكتب سرا ، فقد كنت صادقا .

وأخيراً فان مثالية العالم الأديب كانت تقوم على واقعية الطفل . لقد قلت ذلك آنفا لأنى اكتشفت العالم خلال اللغة ، فقد اعتبرت اللغة العالم زمنا طويلا . إن الوجود كان امتلاك تسمية محققة ، فى مكان ما على الجداول اللانهائية للكلمة ؛ وكانت الكتابة حفر كائنات جديدة على هذه الجداول أو — وكان ذلك أعند أوهامى — صيد الأشياء الحية بفخ الجمل : لو أنى كنت أرتب الكلمات بمهارة ، لكبلت الموضوع بالرموز المعبرة عنه وهى تلك الكلمات . وبدأت فى اللوكسمبورج أتعجب من صورة شجرة صنار لا معة : كنت لا أراقبها بل على العكس تماما ، كنت أضع ثقتى فى الفراغ ، وانتظر ؛ وبعد لحظة ، كان ورقها الحقيقى يخرج

فى مظهر صفة بسيطة أو أحيانا فى مظهر جملة كاملة : لقد أثريت الكون بمخضرة رجراجة . ما وضعت قط على الورق الأشياء التى عثرت عليها : كنت أقول فى نفسى إنها تتراكم فى ذاكرتى . والواقع أننى كنت أنساها ولكن كانت تشعرنى مقدما بدورى فى المستقبل . سوف أفرض أسماء . ومنذ عدة قرون فى أورياك ، كانت هناك أكوام من البياض لا قيمة لها تطالب بحدود ثابتة ، بمعنى أننى سوف أصنع منها آثارا حقيقية . ولما كنت إرهابيا فانى لم أكن أهدف إلا لذاتها : سوف أكونها باللغة ؛ ولما كنت عالما فى البيان فانى لم أكن أحب سوى الكلمات : سوف أشيد كاتدرائيات من الكلام تحت العين الزرقاء لكلمة سماء . سوف أبنى لآلاف السنين . حين كنت آخذ كتابا ، كنت عبثا أفتحه وأقفله عشرين مرة فأرى جيدا أنه لم يكن يتغير . وحين كان نظرى يمر على النص ، هذا الجوهر الذى لا يفسد ، فانه لم يكن سوى حادث سطحى صغير ، إنه لم يكن يضايق شيئا ولا يبلى . أما أنا فقد كنت سلبيا وسريع الزوال ، بعوضة مبهورة تحترقها أضواء منارة ؛ وغادرت المكتب وأطفأت الضوء : غير مرئى فى الظلام كان الكتاب لا يزال يشع ؛ لذاته . سوف أعطى لمؤلفاتى عنف هذه الأضواء الفجائية القارضة وسوف تعيش بعد الانسان فى المكتبات المهدمة.

لقد رضيت بظلامى وتمنيت أن أطيله وأجعل منه فضلا لى . وحسدت المعتقلين المشهورين الذين كتبوا فى زنزانات على ورق كان يستعمل أيام الاضاءة بالشموع . لقد كانوا قد احتفظوا بواجب افتداء معاصريهم وفقدوا واجب معاشرتهم . وبالطبع فان تقدم العادات قلل فرصى فى أن

أستمد ملكتى من الحبس ، ولكنى لم أفقد أملى تماما : إن العناية ، وقد أذهلها تواضع طموحى ، سوف تهتم بتحقيقه . وإلى أن يتحقق سوف أحجر على نفسى سلفا .

ولما كان جدى يحاول خداع أمى ، فانها لم تكن تترك فرصة دون أن تصور أفراحى المستقبلة : وكى تغرينى كانت تضع فى حياتى كل ما كان ينقص حياتها : هدوء البال ، ووقت الفراغ ،والوئام ؛ فحين أغدو مدرسا شابا لا يزال عزبا سوف تؤجر لى سيدة عجوز جميلة غرفة مريحة تنبعث منها رائحة الخزامى والبياضات النظيفة ، سوف أذهب إلى الليسيه فى قفزة وأعود فى قفزة ؛ وفى المساء سوف أقف على عتبة بابى لكى أثرثر مع صاحبة الغرفة التى سوف تشغف بى ؛ وعلى أى حال فان الجميع سوف يحبوننى لأننى سأكون مجاملا وحسن التربية . كنت لا أسمع سوى كلمة واحدة : غرفتك ، وكنت أنسى الليسيه وأرملة الضابط الكبير ورائحة الأقاليم ، وكنت لا أرى غير دائرة من الضوء على منضدتى : فى وسط غرفة غارقة فى الظلام ، الستائر مسدلة ، كنت منحنيا على كراسة من التيل الأسود . كانت أمى تستمر فى قصتها فتقفز عشر سنوات إلى الأمام : إن مفتشا عاما سوف يحمينى ، ومجتمع أورياك الراقى يرغب فى استقبالى ، وزوجتى الشابة تكن لى أحن حب ، وأنجب منها أطفالا جمالا مكتملى الصحة ، ولدين وبنتا ، وترث وأشترى أرضا فى أطراف المدينة ونبنى منزلا وكل أحد تذهب العائلة جميعها لتتفقد أشغال البناء . كنت لا أصغى لشىء : خلال هذه السنوات العشر لم أترك منضدتى : قصير وذو شارب مثل أبى وجالس على كومة من القواميس ، كان شاربى يبيض ، إن

معصمى يجرى دائما وتسقط الكراريس على الأرضية الخشب الواحدة بعد الأخرى . إن الإنسانية نائمة ، والوقت ليل ، امرأتى وأولادى نائمون مالم يكونوا قد ماتوا وصاحبة غرفتى نائمة ؛ إن النوم قد محانى من كل الذاكرات . يالها من عزلة : ملياران من الناس بالطول وأنا فوقهم الرقيب الوحيد .

...

كان الروح القدس ينظر إلى . كان فى التو قد اتخذ قرار العودة إلى السماء والتخلى عن البشر ؛ لم يكن لدى إلا الوقت الذى أقدم فيه نفسى ، وأريته جروح روحى ، والدموع التى تبلل ورقتى ، كان يقرأ من فوق كتفى وسكن غضبه . هل هدأ بسبب عمق الآلام أو بسبب عظمة العمل؟ كنت أقول فى نفسى : بسبب العمل ؛ وكنت أفكر خفية . بسبب الآلام. بيد أن الروح القدس لا يقدر إلا الكتابات الفنية حقيقة ولكننى كنت قد قرأت « موسيه » وعرفت أن « الأغانى الأكثر يأسا هى أجمل الأغانى » وكنت قد قررت التقاط الجمال بيأس واقع فى الفخ . إن كلة عبقرية بدت لى دائما كلة مشكوكا فيها : وذهبت إلى حد التقزز منها تماما . أين يكون القلق ، أين يكون الاختبار ، أين يكون الاغراء الفاشل ، أين يكون الفضل أخيرا ، إن كانت لدى الملكة ؟ كنت أتحمل بصعوبة أن يكون لى نفس الجسم ونفس الرأس كل الأيام ، كنت لن أترك نفسى تسجن فى جهاز . لقد قبلت تعيينى على شرط ألا يستند على شىء ، أن يلمع ، مجانا ، فى الفراغ المطلق . كانت لى مفاوضات مع روح القدس : كان يقول لى « سوف تكتب » . وكنت أقول له وأنا ألوى يدى : « ما الذى عندى ، أيها السيد ، كى تختارونى ؟ » — « لا شيئا خاصا . » — « لم أنا إذن ؟ ».

— « بدون سبب . » — « هل لدى على الأقل بعض السهولة فى الكتابة ؟ » — « ليست لديك أية سهولة . أتعتقد أن الأعمال الكبرى تولد من الأقلام السهلة ؟ » « يا سيد ، بما أننى على هذا القدر من العجز، فكيف أستطيع أن أؤلف كتابا ؟ » — « باجتهادك . » — « فأى إنسان يمكن أن يكتب إذن ؟ » — « أى إنسان ، ولكن أنت الذى اخترت . » إن هذا التحايل كان مريحاً جداً : كان يسمح لى بإعلان تفاهتى وفى الوقت نفسه بأن أبجل فى نفسى مؤلف روائع المستقبل . لقد انتخبت ووسمت ولكن بدون موهبة : كل شيء سوف يأتى بصبرى الطويل وبعصابى ؛ كنت أنكر كل تفرد فى نفسى : إن ملامح الطبع تبرز ؛ لم أكن مخلصا لشيء سوى للارتباط الملكى الذى يقودنى إلى المجد بالعذابات . بقى أن أجد هذه العذابات ؛ كانت المشكلة الوحيدة ولكن كان يبدو أنها غير قابلة للحل بما أنهم نزعوا منى أمل العيش تعيسا :سواء كنت مجهولا أو مشهوراً ، فإنى سوف أكون مقيداً فى ميزانية التعليم ، ولن أجوع أبداً : ووعدت نفسى بأحزان حب كبيرة ولكن بلا حماس: كنت أكره المحبين المرتعدين ؛ كان سيرانو يخنقنى ، هذا البردايان المزور الذى كان يقول هراء أمام النساء : إن بردايان الحقيقى كان يجر كل القلوب خلفه دون أن ينتبه لذلك ؛ ومن الصواب أن نقول إن موت فيوليتا ، حبيبته ، قد طعنت قلبه إلى الأبد . ترمل وجرح لا يندمل : بسبب ، بسبب إمرأة ولكن لا بخطأ منه ؛ إن ذلك سوف يسمح لى بأن أرد مساعى كل الأخريات . وإن تعمقت فى الموضوع . ولكن ، لوسلمت على أى حال ، بأن زوجتى الشابة التى من أورياك تموت فى حادثة ، فإن

هذه الصبية لن تكفي لانتخابي : إنها طارئة وعادية جداً في وقت معاً .
لقد انتصرت غضبتي على كل شيء ؛ إن بعض المؤلفين الذين سخر منهم
وضربوا ، ظلوا حتى النفس الأخير في العار والظلام ولم يكلل المجد إلا
جثثهم : ذلك ما سأكونه . سوف أكتب عن أورباك وعن تماثيلها
بموجب الضمير . ولما كنت عاجزاً عن أن أكرَه ، فإني لن أهدف إلا
للتوفيق والخدمة . ومع ذلك ، فإن كتابي الأول سوف يطلق الفضيحة
بمجرد ظهوره ، سوف أصبح عدوا عاما : سوف تسبني الجرائد التي تصدر
في مقاطعة الأوفرني وسوف يرفض التجار خدمتي وسوف يحطم المتحمسون
زجاج نوافذي ؛ ولأنجو من تنفيذ الجماهير حكم الاعدام في ، لابد لي من
الهرب . سوف أصاب بالصرع أول الأمر وأقضي أشهرا في البلاهة ،
مكرراً بلا انقطاع : « ليس هذا سوى سوء تفاهم ! لأن الناس جميعا
طيبون ! » وبالفعل فإن ذلك لن يكون إلا سوء تفاهم ، ولكن الروح
القدس لن يسمح بزواله . ولسوف أبرأ ؛ وذات يوم سوف أجلس إلى
منضدتي ولسوف أكتب كتابا جديداً : عن البحر أو عن الجبل . ولن
يجد هذا الكتاب ناشراً . ولما كنت مطارداً ومتخفيا وربما منفيا، فسوف
أكتب كتباً أخرى ، كتبا كثيرة أخرى ، سوف أترجم هوراس بالشعر
سوف أعرض أفكاراً متواضعة ومعقولة جداً عن علم التربية . ولكن
عبثا : سوف تتكوم كراساتي في حقيبة كبيرة دون نشر .

إن للقصة خاتمتين؛ سوف اختار الواحدة أو الأخرى حسب مزاجي .
ففي أيامي العابسة أتصور نفسي أموت على سرير حديدي مكروها من الجميع
يائسا في الساعة نفسها التي يضع المجد فيها فمه على نفيره . وأحيانا أخرى

كنت أمنح نفسى بعض السعادة . ففى سن الحسين ، لأجرب قلما جديدا كتبت اسمى على مخطوط ضاع بعد وقت قليل . ووجده أحدهم فى الطابق الذى تخزن فيه الحبوب ، فى النهر ، فى خزانة داخل حائط بالمنزل الذى تركته أخيراً ، قرأه ، وحمله مضطربا إلى أرتيم فايار الناشر الشهير لمؤلفات ميشيل زيفاكو . كان ذلك نصراً : عشرة آلاف نسخة تخاطفها الناس فى يومين . كم من ندم فى القلوب . وأنبرى مائة مخبر صحفى للبحث عنى ولم يعثروا على . ولما كنت معتزلا عن الناس فقد جهلت زمنا طويلا هذا التحول فى الرأى . وذات يوم أخيرا ، دخلت مقهى لأحتمى من المطر فلمحت جريدة متروكة ورأيت فيها « جان بول سارتر ، الكاتب المقنع ، الذى تغنى بأورياك ، شاعر البحر . » ينبط كبير على ستة أعمدة وحروف التاج . فطرت فرحا . كلا : إنى أتلذذ بسوداويتى . وعلى أى حال فقد عدت إلى غرفتى وبمساعدة صاحبتها قفلت وربطت الحقيبة الكبيرة التى تحوى الكراسات وشحنتها إلى فايار دون أن أعطى عنوانى . وفى هذه اللحظة من قصتى ، توقفت لأخوض فى تدابير لذيذة : لو أنى أرسلت الطرد من ذات المدينة التى أقيم فيها لأسرع الصحفيون إلى اكتشاف عزلتى حملت إذن الحقيبة إلى باريس ، وأرسلتها بواسطة وكيل نقل إلى دار النشر ؛ وقبل أن آخذ القطار ، عدت إلى أماكن طفولتى ، إلى شارع لوجوف وشارع سوفلو وحديقة اللوكسمبورج. لقد اجتذبتنى حانة البلزار وتذكرت أن جدى — وقد توفى منذ ذلك الوقت — كان يصحبنى إليها أحيانا ، فى سنة ١٩١٣ : وجلسنا جنبا إلى جنب على المقعد ، وكان الجميع ينظرون إلينا وكأنهم متواطئون معنا ، وكان يطلب كوبا كبيراً من البيرة

ويطلب لى كوبا صغيراً ، كنت أشعر بأننى محبوب.إذن ، وأنا فى الخمسين من عمرى وآسف على الماضى ، دفعت باب الحانة وطلبت كوبا صغيراً . وإلى المائدة القريبة جلست شابات حسناوات يتحدثن بحيوية وينطقن اسمى . وقالت إحداهن: « آه ! قد يكون عجوزا وقد يكون دميا ولكن ما أهمية ذلك : إنى أعطى ثلاثين سنة من حياتى كى أصبح زوجته ! » لقد وجهت إليها ابتسامة فخورة وحزينة وأجابتنى بابتسامة متعجبة وقمت واختفيت .

قضيت وقتا كثيراً فى تأليف هذه الحلقة ومئات الحلقات الأخرى التى أعفى القارىء منها . سوف يتعرفون خلالها على طفولتى نفسها وقد أسقطت على عالم مستقبل ، وعلى وضعى وابتكارات سنتى السادسة وعلى تمرد فرسانى المغامرين الذين لم يعترف بقدرهم . لقد تمردت أيضا وأنا فى التاسعة من عمرى وكنت أفرح بذلك فرحا بالغاً : وبالتمرد كنت أحافظ ، وأنا شهيد قاس ، على سوء فهم كان الروح القدس نفسه يبدو أنه سئمه . لماذا لم أقل اسمى لهذه المعجبة الساحرة ؟ لقد قلت فى نفسى : لقد جاءت متأخرة كثيرا — ولكن بما أنها تقبلنى بأى حال ؟ — إذن لأننى فقير للغاية — فقير للغاية ! وحقوق التأليف ؟ إن هذا الاعتراض لم يوقفنى : لقد كتبت إلى فايار أن يوزع على الفقراء المال العائد لى . ولكن كان لابد من الخاتمة : حسنا ! فقد انطفأت فى غرفتى الصغيرة ، وقد تركنى الجميع ولكننى كنت مشرقا : فقد أديت رسالتى .

إن شيئا أثر فى ، فى هذه القصة التى تكررت ألف مرة : فمنذ اليوم

الذى رأيت فيه اسمى فى الجريدة ، فإن لولبا قد انكسر ، لقد انتهيت ؛ إنى أتمتع بحزن بشهرتى ولكنى لم أعد أكتب . إن النهايتين ليستا إلا نهاية واحدة : سواء مت لأولد للمجد أو آتى المجد أولا وقتلنى ، فإن شهية الكتابة تختفى رفضا للحياة . فى حوالى ذلك العصر هزت قصة مشاعرى لا أعرف أين قرأتها : حدثت فى القرن الماضى ؛ فى محطة صغيرة فى سيبيريا كاتب يتمشى ذهابا وإيابا فى انتظار القطار . ليس هناك أى كوخ فى الأفق ولا أثر لحياة . إن الكاتب يتألم وهو يحمل رأسه الضخمة الحزينة . إنه مصاب بقصر النظر وعزب وفظ ودائم الغضب ؛ إنه يتضايق ، ويفكر فى بروستاته وفى ديونه . وتظهر كونتيسه شابة فى عربتها على الطريق الذى يسير فى محاذاة القضبان الحديدية: إنها تقفز من العربة وتجرى نحو المسافر الذى لم تره أبداً ولكن تدعى أنها تعرفه عن صورة فوتغرافية أروها لها ، إنها تنحنى وتأخذ يده اليمنى وتقبلها . إن القصة تقف عند هـذا الحد ولا أعرف ما الذى تريد أن تفهمنا إياه . ففى التاسعة من عمرى كنت أتعجب لهذا المؤلف المتذمر الذى وجد قارئات له فى الاستبس ، ولأن سيدة على هذا القدر من الجمال جاءت لتذكره بالمجد الذى نسيه : إنها ولادة . ولكنها موت فى الواقع : كنت أشعر بذلك وكنت أريده كذلك ؛ إن أحد أفراد عامة الشعب لم يكن ليستطيع أن يحصل من ارستقراطية على مثل هذا الدليل على الإعجاب . كان يبدو على الكونتيسة أنها تقول له : « إن كنت تمكنت من المجيء إليك ومن لمسك ذلك أنه لم تعد هناك أية حاجة للمحافظة على ارتفاع الطبقة ؛ إنى لا أهتم بما سوف تراه من عملى ، فلم أعد أعتبرك إنسانا ولكن رمزاً لعملك . » لقد قتل بقبلة على يده : على

بعد ألف فرست[1] من سانت بطرسبورج وعلى مدى خمس وخمسين سنة من مولده ، إن مسافراً قد ثار إن مجده يغنيه ولا يترك منه بحروف من لهب إلا قائمة مؤلفاته . ورأيت الكونتيسة تصعد إلى عربتها وتختفي ويعود الاستبس إلى عزلته؛ وفي الغسق لا يقف القطار في المحطة ليعوض تأخيره، لقد شعرت في تجويف كليتي بقشعريرة الخوف ، وتذكرت « ريح في الأشجار » وقلت في نفسي : « إن الكونتيسة هي الموت » لسوف تأتي : ذات يوم في طريق مقفر ، وتقبل أصابعي .

كان الموت دواري لأنني لم أكن أحب الحياة : ذلك ما يفسر الهلع الذي كان يوحيه إلي . وبتماثله مع المجد جعلته وجهتي . أردت الموت ؛ وأحيانا كان الهول يجمد فراغ صبري : ولكن ليس لزمن طويل ؛ كان فرحي القدس يبعث من جديد ، وأنتظر لحظة نزول الصاعقة لأشتعل حتى العظم . إن نياتنا العميقة هي مشروعات وهروب مترابطة دون فكاك : إن مشروع الكتابة المجنون الذي يجيز وجودي أرى جيداً أن فيه بعض الواقع على الرغم من التبجحات والأكاذيب : والبرهان على ذلك أنني ما زلت أكتب بعد خمسين سنة . ولكن إن رجعت إلى الأصول رأيت هروبا إلى الأمام ، وانتحاراً ساذجا ، نعم كنت أبحث عن الموت أكثر من بحثي عن اللحمة والاستشهاد . لقد خشيت زمنا طويلا أن أنتهي كما بدأت في أي مكان وبأية طريقة ، وأن يكون هذا الموت المبهم انعكاسا لولادتي

---

(١) الفرست يساوي ١٠٦٧ متراً . وكان مستعملا في روسيا القيصرية. (المترجم)

المبهمة . إن موهبتي غيرت كل شيء : إن ضربات السيف تزول ، ولكن الكتابات تبقى ، واكتشفت أن المعطى ، في الآداب ، يمكن أن يتحول إلى عطائه نفسه ، أي إلى شيء خالص . لقد جعلتني الصدفة إنسانا وسوف يجعلني الكرم كتابا ، سوف استطيع أن أصب رسالتي وضميري في حروف من برونز وأن أحل محل ضوضاء حياتي كتابات لا تمحى ومحل لحمي أسلوبا ومحل لولبية الزمن الرخوة ، الأبدية وأن أبدو أمام الروح القدس ترسيبا للغة ، وأن أصبح فكرة ملحة على الجنس البشري ، وأخيراً أن أكون مختلفا ، مختلفا عن نفسي وعن الآخرين وعن كل شيء . سوف أبدأ بإعطاء نفسي جسما لا يبلى ثم أسلم نفسي للمستهلكين. لن أكتب للسرور الذي تجلبه الكتابة ولكن كي أنحت جسم المجد هذا في الكلمات. وعندما أتأمل ولادتي من أعلى قبري فإنها تبدو لي شراً لا بد منه ، وتجسيداً مؤقتا يعد تغير هيأني : كي أولد من جديد كان يجب أن أكتب ، وكي أكتب كان لابد من مخ ومن عينين وذراعين ؛ فإذا ما انتهى العمل فإن هذه الأعضاء تختفي من تلقاء نفسها : ففي حوالي سنة ١٩٥٥ انفجرت يرقة وخرج منها خمس وعشرون فراشة من القطع الكبير ترفرف بكل صفحاتها لتحط على رف من رفوف المكتبة الأهلية ، إن هذه الفراشات ليست سواي . أنا : خمسة وعشرون مجلدا وثمانية عشر ألف صفحة مكتوبة وثلاثمائة صورة ، من بينها صورة المؤلف . إن عظامي من جلد ومن الورق المقوى ولحمي شاحب تنبعث منه رائحة الصمغ وعش الغراب وخلال ستين كيلو جراما من الورق أتعاظم بكل راحة . إني أولد من جديد ، وأصبح أخيراً إنسانا كاملا ، يفكر ويتكلم ويغني ويصيح ويثبت

بوجوده بفضل القصور الذاتى. ويأخذوننى ويفتحوننى ويبسطوننى على المنضدة ويتحسسوننى براحة اليد وأحيانا يجعلوننى أقرقع . وأتركهم يفعلون ما يريدون ثم ألمع فجأة ، وأبهر وأفرض نفسى من بعد ، إن سلطاتى تعبر الفضاء والزمان وتصعق الأشرار وتحمى الأبرار . لايستطيع أحـــد أن ينسانى أو ألا يتحدث عنى : إننى تعويذة كبيرة ، سهلة التداول ومرعبة . إن ضميرى متفتت : وهذا أفضل . إن ضمائر أخرى تولت أمرى . إنهم يقرأوننى وأنا واضح ؛ ويكلموننى وأنا على كل الألسنة ، لغة عالمية وفريدة ، وأجعل من نفسى بالنسبة لملايين الأنظار تحفة جديرة بالدراسة وبالنسبة للذى يعرف كيف يحبنى ، فأنا موضع قلقه الكامن فى أعماقه ، ولكن إن أراد أن يلمسنى ، فإنى أمحى وأختفى : إنى لا أوجد فى أى مكان ، إنى أكون أخيراً ! أكون فى كل مكان ، متطفلا على الإنسانية فإن حسناتى تعذبها وتجبرها دائما على بعث غيابى .

وتنجح هذه الخدعة : وأكفن الموت فى كفن المجد ، لم أعد أفكر إلا فى هـــذا المجد لا فى هذا الموت أبدا ، دون أن ألاحظ أنهما ليسا إلا واحداً . وفى الوقت الذى أكتب فيه هذه الأسطر ، فإنى أعرف أننى أخذت زمنى تقريبا . ومع ذلك فإنى أتخيل بوضوح ، دون ابتهاج كبير ، الشيخوخة التى تقترب وهرمى القادم ، هرم وموت الذين أحبهم ؛أما موتى فأبدا . ويحدث لى أن ألمح لأقربائى — وبعضهم يصغرنى بخمس عشرة أو بعشرين أو بثلاثين سنة — بأننى سوف أحزن كثيراً على بقائى حياً بعدهم : فيسخرون منى وأضحك معهم ولكن لن يحدث ذلك: ففى التاسعة من عمرى حرمتنى عملية جراحية فى عينى من القدرة على الاحساس بأشياء

لازمة لهنتنا . وبعد ذلك بعشر سنوات ، وفي مدرسة المعلمين أيقظت فجأة
هذه الحالة بعضا من خير أصدقائي . مرعوبين أو مغتاظين : كنت أنخر
كقارع الأجراس . بعد مرض خطير أكد لنا أحدهم أنه عرف أهوال
الاحتضار حتى آخر نفس ؛ كان نيزان أكثرهم قلقا . فكان أحيانا يرى
نفسه جثة فى عز سهاده ؛ وكان ينهض ، وقد امتلأت عيناه بالدود ويأخذ
وهو يتحسس فى الظلام قبعته الإيطالية ذات القلنسوة المستديرة ويختفى ؛
وكان يعثر عليه فى اليوم الثالث سكران مع بعض الأشخاص غير المعروفين .
وأحيانا ، فى غرفة ، كان هؤلاء المحكوم عليهم يقصون بعضهم لبعض لياليهم
البيضاء وتجاربهم السالفة عن العدم : كانوا يفهمون بعضهم بعضا بالتلميح
السريع . وكنت أصغى إليهم وكنت أحبهم بحيث كنت أعنى بكل جوارحى
أن أشبههم ، ولكن عبثا ، فإنى لم أكن أفهم ولم أكن أحفظ إلا أقوالا
عادية من التى تردد فى المآتم : إننا نعيش ونموت ، ولا نعرف من الذى يعيش
ومن الذى يموت ؛ قبل الموت بساعة واحدة نكون أحياء بعد .. لم أكن
أشك أنه يوجد فى حديثهم معنى لا أفهمه ؛ كنت أسكت تأكلنى الغيرة
وكأنى فى النفى . وكانوا يلتفتون إلى آخر الأمر متضايقين سلفا : « ألا
يؤثر ذلك فيك ؟ » وكنت أفرد ذراعى دليلا على عجزى واستكانتى .
وكانوا يضحكون غيظا وقد بهرهم الوضوح المخيف الذى لم يتمكنوا من
نقله لى « ألم تقل فى نفسك أبدا وأنت تنام أن هناك أناسا يموتون أثناء
نومهم ؟ ألم تفكر أبدا وأنت تنظف أسنانك ؟ أن تلك هى المرة ، وذلك
هو يومى الأخير ؟ ألم تشعر أبدا بأنه يجب الاسراع ، الاسراع ، الاسراع
وأن الوقت غير كاف ؟ أتعتقد أنك خالد ؟ » كنت أجيب نصف متحد

ونصف مندفع : « نعم : أعتقد أنى خالد . » لم يكن هناك أكثر زيفا من ذلك : فقد كنت توقيت من الموت الفجائى، هذا كل ما فى الأمر ؟ لقد طلب منى الروح القدس مؤلفا ضخما ، وكان لابد أن يترك لى الوقت لإكماله . ولما كنت ميتا شرفيا ، فإن موتى الذى كان يحمينى من حوادث خروج القطارات من الخطوط واحتقان الرئة والتهاب البريتون : لقد ضربنا لأنفسنا موعدا أنا وهو ؛ فإذا وصلت إلى الموعد مبكرا ، فإننى لن أجده ، وفى استطاعة أصدقائى أن يأخذوا على عدم تفكيرى فيه : إنهم يجهلون أننى لم أنقطع دقيقة واحدة من العيش فيه .

واليوم فإنى أعطيهم الحق : لقد قبلوا كل شىء فى وضعنا ، حتى القلق ؛ بينما اخترت الاطمئنان ؛ وفى الواقع ، كان اعتقادى بأنى خالد أمراً حقيقيا جداً : لقد قتلت نفسى سلفا ذلك لأن الموتى هم وحدهم الذين يتمتعون بالخلود . كان « نيزان » و « ماهو » يعرفان أنهما سوف يـكونان موضع اعتداء وحشى ، وأنهما سوف ينتزعان من العالم وهما ممتلئان حياة ودما . أما أنا ، فـكنت أكذب على نفسى : ولانتزع من الموت بربريته ، فقد جعلته هدفى ، ومن حياتى الوسيلة المعروفة للموت : إنى أذهب وئيدا إلى نهايتى، وليس لى من آمال ورغبات إلا ما يلزم لأملأ كتبى ، متأكدا من أن آخر نبضة من قلبى سوف تسجل على آخر صفحة من آخر مجلد من مؤلفاتى وأن الموت لن يأخذ إلا ميتا . كان « نيزان » ينظر ، وهو فى العشرين من عمره ، النساء والسيارات وكل متاع هذا العالم فى عجلة شديدة يائسة : كان لابد أن يرى كل شىء وأن يأخذ كل شىء فى الحال . وكنت أنا أيضاً أنظر نظرة بها من الحماسة أكثر مما بها من

الاشتهاء : فلم أكن على الأرض لأتمتع ولكن لأضع قائمة حساب. كان ذلك مرمحا جداً : فبخجل طفل مسرف فى التعقل وعن جبن ، تراجعت أمام مخاطر وجود مفتوح وحر ، وبلا ضمان صادر من العناية الإلهية ، أقنعت نفسى بأن كل شىء مكتوب من قبل ، بل منته .

بيد أن هذه العملية المزورة كانت توفر على مايغرينى بحب نفسى . ولما كان كل واحد من أصدقائى مهددا بالفناء ، فإنه كان يحتمى بصفة حياته المائتة ، تلك الصفة التى لا يمكن احلال شىء آخر محلها ويحسب نفسه مؤثرا وثمينا وفريدا ؛ كان كل واحد راضيا عن نفسه ؛ أما أنا ، الميت ، فلم أكن راضيا : كنت أجد نفسى عاديا جدا ، أكثر إضجارا من كورنى الكبير وإن غرابة موضوعى لم تكن لها أهمية فى نظرى إلا فى أنها تعد اللحظة التى تحيلنى إلى شىء . هل كنت فى ذلك أكثر تواضعا ؟ كلا ، لقد كنت أكثر مراوغة : لقد كلفت أعقابى بأن يحبونى مكانى ؛ وبالنسبة لرجال ونساء لم يكونوا قد ولدوا بعد ، سوف يكون لى سحر ، فى يوم من الأيام ، شىء لا أعرف ماهو ، سوف أصنع سعادتهم . كنت أدهى أيضا وأكثر مراءاة : إن هذه الحياة التى كنت أجدها مملة والتى لم أعرف أن أصنع منها سوى أداة موتى ، كنت أعود إليها سراً لأنقذها ؛ كنت أنظر إليها خلال عيون مستقبلة وكانت تبدو لى قصة مؤثرة وعجيبة ، كنت قد عشتها من أجل الجميع ، وبفضلى لن يتحتم على أحد أن يعيشها من جديد وأنه يكفى أن تحكى . لقد وضعت فيها فورة حقيقية : لقد أخذت كمستقبل ماض ميت كبير وحاولت أن أعيش بالعكس . فبين التاسعة والعاشرة أصبحت عملا منشوراً بعد وفاة مؤلفه .

لم يكن ذلك خطئى كله : فقد ربانى جدى فى الوهم المتعلق بالماضى . وليس هو أيضاً مذنبا وأنا لا أحقد عليه : إن هذا السراب يولد تلقائيا من الثقافة . وحين يختفى الشهود ، فان موت رجل عظيم يكف إلى الأبد عن أن يكون حجراً خفياً ، إن الزمن يجعل منه عملا صادراً من طبيعة المرء . إن الراحل العجوز هو مائت أساساً ، إنه كذلك فى التعميد وفى المسحة الأخيرة[1] ، لا أكثر ولا أقل ، إننا ندخل فيه من طرف ، ومن آخر ومن الوسط ونزل منه ونصعد مجراه كما نشاء : ذلك أن الترتيب الزمنى قد إنهار ؛ ومن المحال اعادته:إن هذا الشخص لايتعرض لأى خطر وأنه لا ينتظر إلا أن تؤدى دغدغة منخره إلى العطس . إن لوجوده مظاهر تسلسل الأحداث ولكن ، ما أن يراد أعادة قليل من الحياة إليه، فإنه يسقط من جديد فى المعية[2] . إنك عبثاً تحاول أن تضع نفسك فى فى مكان الراحل ، وأن تتظاهر بأنك تشاطره أهواءه وجهله وأحكامه المسبقة ، وبأنك تبعث إلى الحياة مقاومات قد ألغيت ، وشيئاً من قلة الصبر أو الخوف ، فانك لا تستطيع أن تمنع نفسك من تقدير سلوكه على ضوء نتائج لم يكن فى الامكان استدراكها ، ومعلومات لم تكن لديه ، ولا أن تضفى رسمية خاصة على أحداث وسمتها نتائجها ولكن كان قد عاشها باهمال. هذا هو السراب : المستقبل أكثر واقعية من الحاضر . إن ذلك لن يدهش : ففى حياة تمت ، تؤخذ النهاية على أنها حقيقة البداية . إن الراحل

---

(١) عند المسيحيين يقوم الكاهن بمسح جبين المحتضر بالزيت القدس (المترجم)

(٢) لم أجد تعبيراً آخر لترجمة Simultanéité أى وقوع الحوادث كلها فى آن واحد (المترجم)

يظل في منتصف الطريق بين الكائن والقيمة بين الواقع الخام وتجديد البنيان؛ إن قصته تصبح نوعا من الجوهر الدائرى الذى يتلخص فى كل لحظة من لحظاته . فى صالونات أراس[١] ، نرى محامياً شاباً ، جامداً ومتدللا يحمل رأسه تحت ابطه لأنه المرحوم روبسبيير ، إن هذه الرأس تقطر دما ولكنها لاتوسخ السادة؛إن أحدا من المدعوين لا يلحظها ونحن لا نرى غيرها ؛ إن أمامها خمس سنوات لتتدحرج فى السبت ، ومع ذلك هاهى ذى تنشد قصائد قصيرة وهى مقطوعة ، على الرغم من فكها التدلى . إن خداع النظر هذا ، وقد عرف ، لا يضايق : فلدينا وسائل تصحيحه ؛غير أن أدباء ذلك العهد كانوا يخفونه ، لأنهم كانوا يغذون مثاليتهم به . وكانوا يلمحون : إن ارادت فكرة كبيرة أن تولد فإنها تذهب إلى بطن امرأة لتستولى على الرجل العظيم الذى سوف يحمل هذه الفكرة ؛ وهى تختار له بيئته وتحدد بدقة درجة ذكاء أقربائه وعدم إدراكهم،وتعين تربيته وتخضعه للتجارب اللازمة وتكون له فى لمسات متلاحقة طبعاً غير ثابت تتحكم فى عدم توازنه حتى ينفجر الشىء موضع هذه العناية الزائدة وهو يلدها . إن ذلك لم يعلن عنه فى أى مكان ، ولكن كل شىء يوحى بأن تسلسل الأسباب يغطى نظاما معكوسا وسريا .

كنت أستخدم هذا السراب بحماس لأفرغ من ضمان مصيرى . وأخذت الوقت ووضعته أسفله فوق رأسى واتضح كل شىء . لقد بدأ ذلك بكتاب صغير كحلى داكن ذى حليات مذهبة اسودت بعض الشىء وكانت تفوح من

---

(١) مسقط رأس روبسبير (المترجم) .

أوراقه السميكة رائحة الجثث وكان عنوانه : « طفولة العظماء » ؛ وعليه بطاقة تبين أن خالى جورج حصل عليه فى سنة ١٨٨٥ كجائزة ثانية فى الحساب . وكنت قد اكتشفته خلال رحلاتى العجيبة وقلبت صفحاته ثم ألقيت به عن ضيق . إن هؤلاء المختارين الصغار لايشبهون الأطفال النوابغ فى شىء . إنهم لايقتربون منى إلا بتفاهة صفاتهم ، وكنت أسأل نفسى لماذا يتكلمون عنهم .وأخيراً اختفى الكتاب : فقد قررت أن أعاقبه بإخفائه . وبعد ذلك بسنة قلبت كل الأرفف بحثا عنه : لقد تغيرت . إن الطفل النابغة قد أصبح رجلا كبيراً فريسة للطفولة . ويالها من مفاجأة : لقد تغير الكتاب هو أيضا . كانت الكلمات هى ذاتها ولكنها كانت تحدثنى عن نفسى . لقد شعرت بأن هذا الكتاب سوف يضيعنى ، فكرهته وخفت منه . وكل يوم ، قبل أن أفتحه ، كنت أذهب للجلوس إلى النافذة : ففى حالة الخطر ،سوف أدخل إلى عينى الضوء الحقيقى للنهار . إن هؤلاء الذين يرثون لتأثير فانتوماس أو أندريه جيد يضحكوننى اليوم كثيراً : هل يعتقدون أن الأطفال لايختارون سمومهم بأنفسهم ؟ كنت أبلع سمى بالصرامة القلقة لمدمنى المخدرات ، وكان يبدو مع ذلك غير مضر . كانوا يشجعون القراء الصغار قائلين إن حكمة الأبناء وتقواهم تؤديان إلى كل شىء ، حتى إلى أن يصبحوا رامبرانت أو موزار . كانوا يروون فى قصص قصيرة الاهتمامات العادية جداً لصبيان عاديين ولكنهم حساسون ورعون يتسمون بجان سبستيان أو بجان جاك أو بجان باتيست ، وكانوا يسعدون أقرباءهم كما كنت أسعد أقربائى . ولكن هاهنا السم : فقد كان المؤلف ، دون أن يلفظ قط اسم روسو وباخ وموليير ، يتفنن فى التلميح فى كل مكان إلى

عظمتهم القادمة ، وفى التذكير فى غير احتفال عن طريق تفاصيل صغيرة عؤلفاتهم أو بأشهر أعمالهم ، وفى تدبير هذه القصص تدبيراً محكما بحيث لا يمكن فهم أتفه حادث دون ربطه بأحداث لاحقة ؛ وفى وسط الصخب اليومى ، كان ينزل سكونا كبيراً أسطوريا ، يغير هيئة كل شىء . وهذا السكون كان المستقبل . إن المدعو سانزيو[1] كان يتحرق شوقا إلى رؤية البابا ؛ لقد بلغ به الشوق مبلغا جعل أهله يصحبونه إلى الميدان العام فى يوم مرور الأب الأقدس فيه ؛ وأصفر وجه الصغير وحملق بعينيه ، وقال له أحدهم أخيراً : « أعتقد أنك مسرور يارافايللو ؟ هل نظرت إلى أبينا الأقدس جيداً على الأقل ؟ » ولكنه أجاب شاردا : « أى أب أقدس ؟ إنى لم أر سوى ألوان ! » وفى يوم آخر ، كان الصغير ميجيل[2] ، الذى كان يريد أن يصبح جنديا ، جالسا تحت شجرة يتلذذ بقراءة رواية فروسية حين سمع فجأة دوى حدائد جعله يرتجف . كان مجنونا عجوزاً من الجيران ، وهو نبيل من الريف فقد ماله وكان يتجول على فرس ضعيف ويسدد حربته التى علاها الصدأ إلى طاحونة . وعلى العشاء قص ميجيل الحادث بأسلوب فكاهى لطيف أضحك الجميع وملأ أشداقهم ؛ ولكن بعد ذلك ، حين خلا لنفسه فى حجرته ، ألقى بروايته على الأرض وداسها بقدميه وأجهش بالبكاء طويلا .

---

(١) هو المصور والمهندس المعمارى وعالم الآثار الايطالى المشهور المولود فى سنة ١٤٨٣ والمتوفى سنة ١٥٢٠ (المترجم) .

(٢) يقصد ميجيل دى سيرفانتيس الكاتب الأسبانى مؤلف دون كيشوت والمتوفى ١٦١٦ (المترجم) .

إن هؤلاء الأطفال كانوا يعيشون فى الخطأ : كانوا يعتقدون أنهم يعملون ويتكلمون صدفة ، فى حين أن أقل ما يقولونه كان له هدف حقيقى ألا وهو إعلان مصيرهم . كنت أتبادل مع المؤلف ، من فوق رؤوسهم ، ابتسامات مشفقة . كنت أقرأ حياة هؤلاء العاديين المزورين كما كونها الله: مبتدئا من النهاية . كنت أتهلل أولا : إنهم أخوتى وجدهم هو جدى . ثم يسقط كل شيء : وأجد نفسى فى الجهة الأخرى من الصفحة، فى الكتاب: إن طفولة جان بول تشبه طفولة جان جاك[1] وجان سباستيان[2] ولم يكن يحدث له شيء دون أن يكون له دلالته الواسعة . ولكن فى هذه المرة كان المؤلف يغمز بعينه لأحفاد أخوالى . فمن موتى إلى ولادتى كان أطفال المستقبل هؤلاء يروننى ، ولم أكن أتخيلهم ، ولم أكن أتوقف عن أن أبعث إليهم برسائل لا أستطيع حل طلاسمها . كنت أرتجف مرتعداً من موتى ، المعنى الحقيقى لكل حركاتى ، وكنت أحاول ، وقد خرجت عن ذاتى ، أن أعبر الصفحة من جديد فى الاتجاه العكسى وأن أجد نفسى فى جانب القراء . ورفعت رأسى وطلبت النجدة من الضوء : ولكن هذا أيضا كان رسالة ؛ هذا القلق الفجائى ، هذا الشك ، حركة العينين والعنق هذه ، كيف سوف تفسر فى سنة ٢٠١٣ ، حين يملكون المفتاحين اللذين كان عليهما أن يفضا غلافى : العمل والموت ؟ لم أستطع الخروج من الكتاب : لقد انتهيت من قراءته منذ زمن طويل ولكنى ظللت شخصا فيه . كنت أراقب نفسى : قبل ذلك بساعة كنت قد انتهيت من الثرثرة:

---

(١) يقصد جان جاك روسو (المترجم) .

(٢) يقصد جان سباستيان باخ (المترجم)

مع أمى : ما الذى أعلنته ؟ لقد تذكرت بعض أقوالى ، وكررتها بصوت عال ولكن ذلك لم ينفعنى بشىء . كانت الجمل تنزلق مغلقة ؛ وكان صوتى يطن فى أذنى كصوت أجنبى . وكأن ملاكا مختلسا يسلبنى أفكارى حتى داخل رأسى ، وهذا الملاك لم يكن سوى طفل أشقر بعض الشىء من القرن الثلاثين ، جالس إلى نافذة يراقبنى خلال كتاب . وفى رعب لذيذ شعرت بنظرته تعلقنى بآلاف سنة التى أنتمى إليها . إنه يرى أننى أتحايل على نفسى فأصنع كلمات ذات معنيين كنت أطلقها علانية . كانت آن مارى تجدنى عند قمطرى « أشخبط » وكانت تقول : « يا له من ظلام ! إن ابنى العزيز يعمى عينيه . » وكانت فرصتى للزد بكل براءة : « أستطيع أن أكتب حتى فى الظلام . » كانت تضحك وتسمينى العبيط الصغير ، وتضىء الغرفة . لقد تمت الحيلة وكلانا يجهل أننى قد أخبرت توا عام ثلاثة آلاف بماهتى المستقبلة . وبالفعل ففى نهاية حياتى ، وقد أصبحت أكثر عمى مما كان يتهوفن أصم ، سوف أصنع آخر مؤلفاتى تحسسا فى الظلام . سوف يعثر على المخطوط فى أوراقى ولسوف يقول الناس وقد خلب ألبهم : « ولكن هذا لا يمكن قراءته ! » ويذهب بهم التفكير إلى حد إلقائه فى صندوق القمامة . وتطالب به مكتبة البلدية فى أورياك آخر الأمر من قبيل الوفاء الخالص ، ويظل فيها منسيا مائة سنة . ثم ذات يوم ، حبا لى ، سيحاول بعض العلماء الشبان حل طلاسمه ، ولسوف يقضون كل حياتهم لإعادة إنشاء ما سوف يكون بطبيعة الحال تحفتى . كانت أمى قد غادرت الغرفة ، وكنت وحـــدى ، وكنت أكرر لنفسى ، ببطء ، دون أن أفكر فيها على الخصوص هذه العبارة « فى الظلام ! » وسمعت صفقة قوية : إن حفيد حفيد

ابن خالى ، وهو فوق ، كان يقفل كتابه : كان يحـــلم بطفولة خال خاله وكانت الدموع تسيل على خديه وكان يقول متنهدا « إن ذلك لحقيقى ، لقد كتب فى الظلمات ! » .

كنت أتبختر أمام أطفال سوف يولدون كانوا يشبهوننى تماما . كنت أستدر من نفسى دموعا وأنا أتذكر الدموع التى سوف أجعلهم يذرفونها . كنت أرى موتى بعيونهم . لقد حدث ، وكان ذلك حقيقى ، وأصبحت ترجمة وفاتى .

وبعد أن قرأ صديق لى ما تقدم ، نظر إلى نظرة يبدو عليها القلق ، وقال لى : « لقد كنت مصابا أكثر مما كنت أتصور . » مصاب ؟ لا أعرف . أن هذيانى كان متقنا بوضوح . وكانت أهم مسألة فى نظرى هى الصدق . ففى التاسعة من عمرى كنت أجلس بالقرب منه ؛ وبعد ذلك ذهبت بعيداً جداً عنه .

فى البداية كنت سليما كالعين : كنت مزوراً صغيراً يعرف أن يقف فى الوقت المناسب . ولـكننى كنت اجتهد . وحتى فى الخـداع ظللت قويا فى الترجمة إلى لغة الغير ، واليوم أعتبر اتصالاتى تمرينات روحية ، وعـــدم صدقى كاريكاتورا لصدق تام كان لا يتوقف عن ملامستى ثم ينفلت منى . إنى لم أختر رسالتى : لقد فرضها على غيرى . والواقع أنه لم يحدث شىء . كلمات فى الهواء ألقت بها امرأة عجوز ، ثم مكيافيلية شارل . ولـكن كان يكفى أن أكون مقتنعا . إن الأشخاص الـكبار القائمين فى نفسى كانوا يشيرون بأصبعهم إلى نجمى الذى لم أكن أراه وإنما كنت أرى

الإصبع وكنت أومن بهم وكانوا يدعون أنهم يؤمنون بى . لقد أخبرونى بوجود أموات كبار — أحدهم سيكون فى المستقبل — نابليون وتمستوكليس وفيليب أوغطس وجان بول سارتر . إنى لم أكن أشك فى ذلك : وإلا كان ذلك شك فيهم . وكنت ببساطة أود أن التقى بالأخير وجها لوجه .
كنت أحلق وكنت أتلوى لأثير الوحى الذى يغمرنى ، كنت امرأة باردة اختلاجاتها تحرض لكى تحل محل الإشباع الجنسى . هل يقال عن هذه المرأة إنها متصنعة أو إنها مجتهدة أكثر من اللازم ؟ وعلى أى حال فإنى لم أحصل على شىء ، فقد كنت دائما قبل أو بعد الرؤية المستحيلة التى سوف تكشفنى لنفسى ، وكنت أجد نفسى فى آخر تمريناتى ، متشككا ، ولم أربح شيئا سوى بعض الاهتياج . ولما كان تفويضى قائما على مبدأ السلطة ، وعلى طيبة الأشخاص الكبار ، تلك الطيبة التى لا تنكر ، فإن شيئا لم يستطع أن يؤكد هذا التفويض أو يكذبه . ولما كان فى مأمن ومختوما عليه ، فقد كان يمكث فى . ولكن ضعف ملكيتى له جعلنى لا أتمكن أبداً ، ولو للحظة ، من أن أشك فيه ، ولا أن أقدر أن أذوبه وأتمثله .

إن الإيمان لايكون أبدا كاملا حتى لو كان عميقا . يجب ألا نكف عن دعمه أو على الأقل أن نمنع نفسنا من هدمه . كنت معدا لأن أكون عظيما ، وكان قبرى فى الأب لاشيز[1] ورعا فى البانتيون[2] وكان لى شارع فى باريس وحدائق العامة وميادينى فى الأقاليم وفى الخارج : ولكن داخل

(١) مدافن باريس (المترجم) .
(٢) مدفن كبار رجال فرنسا (المترجم) .

التفاؤل غير المرئى وغير المسمى كنت احتفظ بالشك فى عدم صلابتى . فى مستشفى القديسة آن صاح مريض وهو فى فراشه: « أنا أمير اليلق القبض على الغرندوق . » وكانوا يقتربون منه ويقولون له فى أذنه :« أخطأ !» وكان يخطئ ؛ وكانوا يسألونه : « ماهى صنعتك ؟ » ، فكان يجيب برقة: « صانع أحذية » ثم يستأنف الصياح . أعتقد أننا نشبه جميعا هذا الرجل. وعلى أية حال ، كنت أشبهه وأنا فى بداية التاسعة من عمرى : كنت أميرا وصانع أحذية .

وبعد ذلك بسنتين اعتبروا أنى شفيت : لقد اختفى الأمير ، ولم يكن صانع الأحذية يؤمن بشىء، ولم أعد أكتب؛ لقد ألقيت كراسات الروايات فى الزبالة أو ضاعت أو أحرقت وتركت مكانها لكراسات اعراب الجمل والاملاء والحساب . ولو أن أحداً دخل فى رأسى المفتوحة لكل ريح لصادف فيها بعض التماثيل النصفية ، وجدول ضرب غير عادى ، والقاعدة الثلاثية ، واثنين وثلاثين مقاطعة بعواصمها ولكن بدون مراكزها ، وتصريف الأسماء اللاتينية ، وآثار تاريخية وأدبية ، وبعض حكم الأدب محفورة على نصب وأحيانا حلم يقظة سادى كوشاح من ضباب ممتد فوق هذه الحديقة الحزينة . لا « فتاة يتيمة » ولا أثر لفارس شجاع ! إن الكلمات : بطل وشهيد وقديس لم تكن مكتوبة فى أى مكان ، ولم يكن هناك أى صوت يرددها . إن ردديان سابقا كان يتسلم كل ثلاثة شهور نشرات صحية مرضية . طفل متوسط الذكاء وعلى جانب عظيم من الخلق ، موهبته قليلة فى العلوم الدقيقة ، خيالى بدون مبالغة ، حساس ؛ طبيعية كاملة على الرغم من بعض التكلف الآخذ فى التقلص. غير أنى كنت

أصبحت مجنونا تماما . حدثان أحدهما عام والآخر خاص قد طيرا القليل الباقي من عقلي .

كان الحدث الأول مفاجأة حقيقية :ففي شهر يوليو سنة ١٩١٤ ،كان لايزال يوحد بعض الأشرار ؛ ولكن في ٢ أغسطس[١] استولت الفضيلة على السلطة فجأة وأصبحت الحاكمة : وأصبح جميع الفرنسيين أخيارا . وكان أعداء جدى يرتمون بين ذراعيه ، وتطوع بعض الناشرين ، وكان السوقة يتنبأون ، وكان أصدقاؤنا يجمعون العبارات البسيطة العظيمة التي يقولها البواب وساعي البريد والسباك وكانوا ينقلونها إلينا ، وكان الجميع يهللون تعجبا ، عدا جدتي المتشككة حقا . كنت سعيدا : كانت فرنسا تمثل على ، وكنت أمثل على فرنسا . ولكن ما لبثت الحرب أن سببت لي الملل : إذ كانت تضايق حياتي قليلا جداً بحيث أني نسيتها حتما ؛ ولكني تقززت منها حين لاحظت أنها تحطم مطالعاتي . فقد اختفت مطبوعاتي المفضلة من أكشاك الجرائد ؛ وترك أرنو جالوبان وجوفال وجان دى لاهير أبطالهم الألوفين ، هؤلاء المراهقين إخواني الذين كانوا يدورون حول العالم بطائرة ذات جناحين وبطائرة مائية والذين كانوا يتصارعون اثنين أو ثلاثة ضد مائة ؛ وتركت روايات ما قبل الحرب الاستعمارية مكانها للروايات الحربية المتلئة بالبحارة الصغار والشبان الألزاسيين والأيتام وتعاويذ الفرقة . كنت أكره هؤلاء القادمين الجدد . كنت أعتبر مغامري الغابات الصغار أطفالا نوابغ ، لأنهم كانوا يذبحون السكان

(١) يشير المؤلف إلى اليوم الذي أعلنت فيه ألمانيا الحرب على فرنسا في سنة ١٩١٤ (المترجم) .

الأصليين الذين هم كبار بعد كل شيء . ولما كنت أنا نفسى طفلا نابغا فقد كنت أتعرف على نفسى فيهم . ولكن كل شيء كان يحدث خارج هولاء الأطفال المجندين . فالبطولة الفردية تترنح ، فأمام المتوحشين كان يدعمها التفوق فى السلاح ؛ ولكن ما العمل أمام مدافع الألمان ؟ كان لابد من مدافع أخرى ورجال مدفعية وجيش . ووسط الجنود الشجعان الذين كانوا يربتون على رأسه والذين كانوا يحمونه، كان الطفل النابغة يعود إلى الطفولة، وكنت أعود إليها معه . وكان المؤلف يكلفنى من آن لآخر ــ شفقة بى ــ أن أحمل رسالة ، وكان الألمان يلقون القبض على ، وأجاوبهم بعض الإجابات المتكبرة ثم أهرب وأعود إلى خطوطنا وقد أتممت مهمتى . وكانوا يهنئوننى بكل تأكيد ولكن بدون حماس حقيقى ، ولم أكن أجد فى عينى الجنرال الأبوية النظرة المفتونة التى كانت للأرامل والأيتام . لقد كنت فقدت المبادأة : كانوا يكسبون المعارك وسوف يكسبون الحرب بدونى ؛ إن الأشخاص الكبار استردوا احتكار البطولة ، كان يحدث أن التقط بندقية قتيل وأن أطلق بعض الرصاصات ، ولكن لم يحدث قط أن سمح لى أرنو جالوبان وجاندى لاهير أن أهجم بالسونكى . ولما كنت صبيا بطلا فقد كنت أنتظر بفارغ صبر سن دخول الجندية . ولكن بالأحرى لا : كان الطفل الذى يتبع الجيش الذى كان ينتظر ، كان يتيم الألزاس . لقد انسحبت منهم وأقفلت الكتاب . كنت أعرف أن الكتابة عمل طويل غير مثمر ، ولسوف أكون صبوراً كل الصبر . ولكن القراءة كانت عيدا : كنت أريد كل الأمجاد فى الحال . وأى مستقبل يعرضونه على ؟ أن أصبح جنديا ؟ يالها من صفقة رائعة ! إن الجندى حين يكون وحيداً

لا يعتبر أكثر من طفل . إنه يهجم مع الآخرين وإن الفرقة هي التي تكسب المعركة . لم أكن أهتم بأن اشترك في انتصارات جماعية . وحين كان أرنو جالوبان يريد أن يعز جنديا لم يكن يجد خيراً من أن يرسله لنجدة ضابط جريح . إن هذا التفاني الخفي كان يضايقني : إن العبد ينقذ السيد . ثم إنها لم تكن إلا شجاعة مناسبة ، ففي زمن الحرب تقسم الشجاعة خير تقسيم. وبشيء من الحظ يؤدي أي جندي آخر العمل نفسه. وكان ذلك يثيرني : لأن ما كنت أفضله في بطولة ما قبل الحرب كان هو الوحدة وتلقائيتها . كنت أترك ورائي الفضائل اليومية الشاحبة ، كنت ابتكر الرجل لي وحدي عن كرم ؛ « الدوران حول الأرض بطائرة مائية» و « مغامرات صبي من باريس » و « الكشافون الثلاثة » إن كل هذه النصوص المقدسة كانت توجهني على طريق الموت والبعث . ولكن ها هم المؤلفون يخونونني فجأة : لقد وضعوا البطولة في متناول الجميع ؛ إن الشجاعة والتضحية بالنفس أصبحتا فضائل يومية ؛ والأنكى من ذلك أنهم كانوا ينزلونهما إلى مصاف الواجبات البدائية جداً . وكان تغير الديكور على صورة هذا التغير : فقد حل ضباب الأرجون[1] الجماعي محل الشمس الكبيرة الوحيدة والضوء الفردي في خط الاستواء .

وبعد انقطاع دام بضعة أشهر ، قررت أن أعود إلى القلم لأكتب رواية حسب وحي قلبي ولأعطي لهؤلاء السادة درساً طيباً . كان ذلك في أكتوبر سنة ١٩١٤ ولم نكن قد تركنا أركشون . اشترت أمي كراسات.

---

(١) منطقة تتألف من التلال والغابات تقع إلى شرق باريس . كانت مسرحاً لبعض المعارك الحربية في الحرب العالمية الأولى (المترجم) .

من نوع واحد كلها : وعلى غلافها البنفسجي صورة جان دارك وعلى رأسها خوذة ، علامة الزمن - وفى حمى هذه القديسة(١) أخذت أكتب قصة الجندى بيران الذى يخطف أمبراطور المانيا ويأتى به داخل خطوطنا مكبلا ، ثم يدعوه إلى المبارزة أمام الفيلق مجتمعاً ، ويلقيه أرضاً ويجبره ، وسيفه على عنقه ، أن يوقع صلحا شائنا وأن يعيد إلينا مقاطعتى الألزاس واللورين. وبعد أسبوع أضجرتنى قصتى ، لقد أخذت فكرة المبارزة من روايات الطعن والنزال : إن ستورت بكر وهو من أبناء البيوتات ومنفى يدخل حانة لقطاع الطريق . فيسبه عملاق . هو رئيس العصابة ، فيقتله ضربا بقبضتى يديه ، ويأخذ مكانه ويخرج ملكا على المرتزقة فى اللحظة المناسبة لانزال جيشه فى سفينة القرصنة . كانت قوانين ثابتة تحكم الحفلة : كان يجب أن يظهر بطل الشر بمظهر الإنسان الذى لايقهر وأن يتصارع بطل الخير وسط السخرية ، وأمام انتصاره غير المتوقع يتجمد الذين كانوا يسخرون منه من شدة الهلع غير أنى فى تجربتى الفجة خالفت كل القواعد وفعلت عكس ما كنت أعنى : فعلى الرغم من قوة الإمبراطور فإنه لم يكن مفتول الذراع. وكانوا يعرفون مقدماً أن بيران المصارع العظيم سوف يلتهمه لقمة سائغة . ثم كان الجمهور معاديا له ، إن جنودنا يصرخون فى وجهه بكراهيتهم على نحو تركنى مبهوتا ، واغتصب غليوم الثانى المجرم ولكنه الوحيد ، وقد أوسع سخرية وبصقا ، عزلة أبطالى الملكية تحت بصرى .

وكان هناك ماهو أنكى . فحتى ذلك الحين لم يكن هناك مايثبت أو

(١) جان دارك (المترجم) .

يكذب ما كانت لويز تسميه « أعمالى التى أنهكت نفسى فى تأليفها » : كانت أفريقيا واسعة وبعيدة وقليلة السكان ، والأخبار ناقصة ، ولم يكن أحد قادرا على أن يثبت أن مستكشفى لم يكونوا هناك وأنهم لم يكونوا يطلقون الرصاص على الأقزام فى نفس الساعة التى كنت أصف فيها قتالهم . لم أكن أذهب إلى حد أعتبارى نفسى مؤرخهم ، ولكن من كثرة ماسمعت عن حقيقة الروايات الخيالية فقد اعتقدت أننى أقول الحقيقة خلال أساطيرى . بطريقة لم أكن أدركها بعد ولكنها سوف تكون واضحة كالشمس بالنسبة لقرائى فى المستقبل . ولكن فى شهر أكتوبر المشئوم هذا ، حضرت ، عاجزاً ، اصطدام الخيال بالواقع فامبراطور ألمانيا الذى ولد من قلمى ، هزم وأمر بوقف اطلاق النار ؛ فكان المنطق يحتم أن نرى خريفنا عودة السلام ؛ ولكن فى ذات الوقت كانت الصحف والكبار يرددون صباح مساء أننا استقررنا فى الحرب وأنها سوف تطول . وشعرت بأنى خدعت : لقد كنت دجالا ، وكنت أحكى ترهات لايريد أحد أن يصدقها : وباختصار فقد اكتشفت الخيال . ولأول مرة فى حياتى قرأت نفسى . واحمر وجهى خجلا : لقد كنت أنا ، أنا الذى رضيت بهذه الأحلام الصبيانية ؟ وكدت أترك الأدب : وأخيراً حملت كراستى إلى الشاطىء ودفنتها فى الرمل . وزال ضيقى ؛ واستعدت ثقتى : كانت لى دعوة بلا أدنى شك ؛ ولكن للاداب سرها الذى قد تكشفه لى فى يوم من الأيام . وإلى أن يحين ذلك اليوم فإن سنى تأمرنى بأن أبالغ فى التحفظ . وانقطعت عن الكتابة .

وعدنا إلى باريس . وتركت إلى الأبد أرنو جالوبان وجان دى لاهير : فإنى لم أكن أستطيع أن أغفر لهذين الإنتهازيين إنتصارهما على . وأبديت

استيائي من الحرب ، اللحمة الرديئة ؛ وفي مرارة هربت من العصر ولجأت إلى الماضي . وقبل ذلك ببضعة اشهر . في آخر السنة ١٩١٣ ، كنت قد اكتشفت نيك كارتر وبفالو بيل وتكساس جاك وستنج بول : وقد اختفت هذه المطبوعات منذ بداية الأعمال الحربية : وادعى جدي أن الناشر كان المانيا ولكننا كنا نجد لحسن الحظ عند بائعي الكتب القديمة على أرصفة السين أغلب الأعداد التي ظهرت . وجررت أمي على ضفاف السين وقمنا بنبش الصناديق واحدا واحدا من محطة أورسي إلى محطة أوسترليتز وكان يحدث أن نعود بخمس عشرة ملزمة معاً ؛ وما لبث أن اصبح عندي خمسمائة ملزمة وكنت أرتبها في أكوام مرصوصة . وكنت لا أمل من عدها وأن أنطق بصوت عال عناوينها الغامضة ؟ « جريمة في منطاد » ، « التعاقد مع الشيطان » ، « عبيد البارون موتوشيمي » ، « بعث دازار » وكنت أحب أن تكون أوراقها قد اصفرت وامتلأت بالبقع وتصلبت برائحة غريبة تشبه رائحة الأوراق الذابلة . وقد كانت أوراقاً ذابلة وأطلالا ، ذلك أن الحرب كانت قد أوقفت كل شيء . كنت أعرف أنني سوف أظل أجهل المغامرة الأخيرة للانسان طويل الشعر ، وأنني سوف أجهل دائما آخر تحقيق لملك المخبرين : إن هؤلاء الأبطال المنفردين كانوا مثلي ضحايا النزاع العالمي ، ولذلك كنت أحبهم أكثر . وكي أهذي من الفرح كان يكفيني أن أتأمل الصور الملونة التي تحلي الأغلفة . بفالو بيل ممتطيا صهوة جواده يعدو في المرج يطارد الهنود تارة ويفر منهم تارة أخرى . كنت أفضل صور نيك كارتر . قد يجدها المرء مملة : ففي كل هذه الصور تقريبا نرى المخبر الكبير وهو يسدد ضربة قاتلة أو وهو يتلقى ضربة مطرقة . ولكن

هذا الشجار كان يحدث فى شوارع مانهاتن وفى أراض فضاء محاطة بسياج بنى أو بأبنية واهية مكعبة بلون الدم الجاف : كان ذلك يبهرنى وكنت أتخيل مدينة بوريتانية ودامية يلتهمها الفضاء ولا تكاد تخفى الأعشاب التى تحملها . كان كل من الجريمة والفضيلة خارج القانون فى هذه المدينة . إن كلا من القاتل والقاضى حر وذو سيادة وكانا يتفاهمان مساء بطعنات السكين . وفى هذه المدينة كما فى إفريقيا تحت الشمس المحرقة ذاتها — تعود البطولة ارتجالا دائما . ذلك هو سبب شغفى بنيويورك .

لقد نسيت الحرب ورسالتى معا . وعندما كانوا يسألوننى : « ما الذى ستفعله حين تصبح كبيراً ؟ » كنت أجيب بلطف وبتواضع بأننى سوف أكتب ، ولكننى كنت قد تركت أحلامى فى المجد والتمرينات الروحية . وربما كانت سنة ١٩١٤ أسعد سنوات طفولتى لهذا السبب . كنت أنا وأمى من سن واحدة ، وكنا لا نترك بعضنا بعضا . كانت تدعونى فارسها القائم على خدمتها ورجلها الصغير . وكنت أقول لها كل شىء ، وأكثر من ذلك كانت الكتابة تدخل وتتحول إلى ثرثرة وتخرج من فمى : كنت أصف ما أراه وما تراه آن مارى مثلى : المنازل والأشجار والناس . وكنت أشحن نفسى بالمشاعر لكى أتلذذ بنقلها إليها . وأصبحت محولا للطاقة . كان العالم يستخدمنى ليجعل من نفسه كلاما . كان ذلك يبدأ بثرثرة فى رأسى لا اسم لها . كان أحدهم يقول : « أنا أمشى ، أنا أجلس ، أنا أشرب كوب ماء ، أنا آكل ملبسة . » وكنت أكرر بصوت عال هذا التعليق الدائم : « أنا أمشى يا أمى ، وأنا أشرب كوب ماء وأنا أجلس . » واعتقدت أن لى صوتين

أحدهما — كان لا يكاد يكون لى أو يتعلق بإرادتى ، وكان على على الآخر أحاديثه . وقررت أننى مزدوج واستمرت هذه الاضطرابات الخفيفة حتى الصيف . كانت تنهكنى وكنت أغطاظ منها وانتهى بى الأمر أننى أصبحت أخافها. قلت لأمى« إن شيئا يتكلم فى رأسى» ولكنها لم تقلق لحسن الحظ .

إن ذلك لم يكن يفسد سعادتى ولا وحدتنا . وكانت لنا أساطيرنا ولازماتنا فى الكلام،ومزاحنا الذى يتكرر . وخلال سنة تقريبا كنت أنهى جملى ، على الأقل مرة كل عشر مرات — بهذه الكلمة التى كنت ألفظها باستسلام ساخر : « معلهش . » كنت أقول : « هذا كلب أبيض . إنه ليس أبيض بل هو رمادى ولكن معلهش . » واعتدنا أن يحكى بعضنا للبعض — الأحداث الصغيرة لحياتنا بأسلوب ملحمى بمجرد حدوثها . كنا نتحدث عن أنفسنا بضمير الغائب الجمع . كنا ننتظر السيارة العامة وكانت تمر أمامنا دون أن تتوقف ؛ وكان أحدنا يصيح عندئذ : « لقد ضربوا الأرض بقدمهم وهم يلعنون السماء » وكنا نأخذ فى الضحك . وكانت لنا اصطلاحاتنا السرية : كانت طرفة عين تكفى . فحين نكون فى متجر أو فى صالون للشاى إذا بدت لنا البائعة مضحكة ، كانت أمى تقول لى ونحن خارجين : « لم أنظر إليك خوفا من أن أقهقه فى وجهها » ، وكنت أشعر بفخر من قدرتى ، فلا يوجد عدد كبير من الأطفال يعرفون كيف يثيرون قهقهة أمهم من نظرة واحدة . ولما كنا خجولين كنا نخاف معا . وذات يوم اكتشفت على أرصفةالسين اثنى عشر عدداً من مجلة بفاللويل لم أكن قد حصلت عليها بعد ؛ وكانت تستعد لدفع ثمنها عندما اقترب منا رجل سمين شاحب ، عيناه من لون الفحم وشاربه لا مع وعلى رأسه قبعة من القش ذات حافة مسطحة ودقيقة ، وكان له ذلك المظهر الذى كان يصطنعه عن

طيب خاطر الشبان اللاح فى ذلك العهد . كان يحدق البصر فى امى ولكنه اتجه إلى وزدد هذه العبارة بعجلة شديدة: إنهم يد للونك أيها الصغير ، إنهم يدللونك ! » لم أشعر أول الأمر إلا بأنى أهنت : فلم أكن أخاطب بصيغة المفرد بهذه السرعة ، ولكنى فاجأت نظرته الشهوانية ، واصبحت أنا وآن مارى كفتاة واحدة جفلة ، فقفزت إلى خلف . وابتعد السيد وقد فشلت خطته . لقد نسيت آلاف الوجوه، ولكني مازلت اذكر هذا الوجه المكتنز. كنت أجهل أجهل كل شيء عن الجسد ، ولم أكن اتصور ما كان هذا الرجل يريده منا ، ولكن الشهودة كانت جلية ، بحيث خيل لى أننى أفهم ، وأن كل شيء قد كشف لى بطريقة ما. لقد شعرت بهذه الشهوة خلال آن مارى، فمن خلالها تعلمت أن أحس بالذكر وأن أخشاه وأن أكرهه . وقد وثقت هذه الحادثة عرانا : كنت اتسكع بوجه عابس ويدى فى يد أمى وكنت واثقا من أنى أحميها . هل هى ذكرى هذه السنوات ؟ واليوم أيضاً فإنى لا أستطيع أن أشاهد بلا سرور طفلا غاية فى الجد يكلم أمه الطفلة برصانة وحنان ، إنى أحب هذه الصداقات الرقيقة المتوحشة التى تنشأ بعيداً عن الناس وضدهم . إنى أنظر طويلا إلى هذه الأزواج الصغيرة ثم أتذكر أنى رجل وأشيح بوجهى .

والحدث الثانى وقع فى أكتوبر ١٩١٥ . كان عمرى عشر سنوات وثلاثة أشهر ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يفكروا فى إبقائى تحت الحجر مدة أطول . وكبت شارل شوايتزر أحقاده وسجل اسمى بالقسم الخارجى فى ليسيه هنرى الرابع الصغيرة .

وكان ترتيبى الأخير فى أول موضوع إنشاء أعطى لنا ، ولما كنت

إقطاعيا صغيرا فقد كنت اعتبر التعلم رباطا شخصيا . إن الآنسة ماري. لويز أعطتنى علمها عن حب ، وتسلمته عن طيبة حبا بها . لقد صدمت. بدروسها « المنزلة » التى كانت توجه للجميع بالبرود الديمقراطى للقانون . ولما كنت خاضعا لمقارنات دائمة فإن تفوقى الذى حلمت به قد تلاشى . كان يوجد على الدوام تلميذ يجيب أحسن أو أسرع منى . كنت محبوبا أكثر مما يجب لأضع نفسى من جديد موضع مناقشة . كنت أعجب عن طيب خاطر بزملائى وكنت لا أحسدهم ، فسوف يأتى دورى فى التحسين . وبالاختصار كنت أشرد دون أن أتألم : ولما كان يستبد بى ذعر قوى فإنى كنت أقدم باجتهاد واجبات رديئة جداً . وكان جدى يقطب حاجبيه . وأسرعت أمى إلى طلب تحديد موعد من السيد أوليفيه معلمى الرئيسى الذى استقبلنا فى شقته كأعزب . واتخذت أمى صوتها المفرد. وكنت أصغى إليها واقفا بجانب كرسيها وناظراً إلى الشمس خلال الغبار على ألواح الزجاج .وجاهدت فى البرهنة على أننى خير من واجباتى : فقد تعلمت القراءة وحدى ، وكنت أكتب روايات ، ولما أعيتها الحجج أعلنت أننى ولدت بعد عشرة أشهر ، فقد كنت أكثر « نضجاً » من الآخرين وأكثر توردا « وتقميرا » لأننى مكثت فى الفرن مدة أطول ! كان السيد أوليفيه يصغى إليها بانتباه متأثرا بجاذبيتها أكثر من تأثره بمزاياى . كان رجلا طويل القامة شديد النحول ، أصلع وبجمجمة بارزة وعينين غائرتين وبشرة بلون الشمع وتحت أنف طويل محدب ينمو بعض الشعر الأصهب . ورفض أن يعطينى دروسا خاصة ، ولكن وعد برعايتى .ولم أكن أطلب أكثر من ذلك. كنت أرقب نظرته أثناء الدروس؛ كنت متأكدا من أنه لم يكن يتكلم إلا من أجلى، واعتقدت

أنه يحبنى ، وأحببته ، وقام بالباقى بعض الكلمات الطيبة، وأصبحت بلا جهد تلميذاً مجتهداً إلى حد ما . وكان جدى يتذمر وهو يقرأ شهادات درجاتى بربع السنوية ، ولكنه كف عن التفكير فى سحبى من الليسيه . وفى الصف الخامس أصبح لى معلمون آخرون ، وفقدت معاملتى الخاصة ولكنى كنت قد تعودت على الديمقراطية .

لم تكن أعمالى المدرسية تترك لى وقتا للكتابة ؛ وقد انتزعت مخالطاتى الجديدة منى حتى الرغبة فيها . لقد أصبح لى زملاء أخيراً ! أنا المبعد من الحدائق العامة قد ضمونى منذ اليوم الأول وبأبسط ما يمكن. الشىء الذى أذهلنى . والحقيقة كان أصدقائى يبدون أقرب إلى من البردايانات[1] الصغار الذين كانوا قد حطموا قلبى . كانوا فى القسم الخارجى ، مدللين ، تلاميذ مجدين . وأياً كان الأمر فقد كنت أشعر بفرح عظيم . وكانت لى حياتان . فمع عائلتى كنت أقلد الرجل . ولكن الأطفال فيما بينهم يكرهون الصبينة : إنهم رجال حقيقة. ولما كنت رجلا بين الرجال، فقد كنت أخرج من الليسيه كل يوم بصحبة الإخوة (ملكان) الثلاثة : جان ورينيه وأندريه، والأخوين بول ونوربير مير ، وبران وماكس بركو ، وجريجوار . كنا نعدو ونحن نصيح فى ميدان البانثيون . كانت لحظة سعادة رصينة فقد كنت أتخلص من التمثيلية العائلية ؛ ولما لم أكن أريد أن ألمع فقد كنت أضحك مقلداً . كنت أردد كلمات التعارف والكلمات الطيبة . كنت أصمت وكنت أطيع وأقلد حركات جيرانى . ولم يكن لى إلا هوى واحد : أن

(١) جمع بردايان .

أنضم إلى المجموعه . ولما كنت جافا وصلبا ومبتهجا فقد كنت أشعر أنني من صلب ، وقد تخلصت أخيراً من خطيئة وجودى . كنا نلعب بالكرة بين قصر الرجال العظام[١] وتمثال جان جاك روسو . كنت ضروريا «الرجل الصحيح فى المكان الصحيح[٢]» . لم أعد أحسد السيد سيمونو على شيء : فإلى من كان مبير سيمرر الكرة بعد أن غافل جرجوار إن لم أكن أنا موجوداً هنا الآن ؟ كم كانت أحلامى بالمجد تبدو تافهة وجنائزية إلى جانب هذه البديهيات السريعة التى كانت تكشف لى ضرورتى .

وكانت تنطفىء مع الأسف بأسرع مما كانت تشتعل . إن ألعابنا كانت «تهيجنا» كما كانت تقول أمهاتنا ، وكانت أحيانا تحول جماعاتنا إلى جمع صغير موحد كان يبتلعنى ، ولكننا لم نستطع قط أن ننسى أهلنا طويلا ، وكان حضورهم غير المرئى لايلبث أن يهبط بنا إلى الوحدة المشتركة التى تعيش فيها الجماعات الحيوانية . ولما كان مجتمعنا بلا هدف ولا غاية ولا مراتب ، فإنه كان يتردد بين الامتزاج التام وبين التلاصق . كنا نعيش سويا فى الحقيقة ، ولكن كنا لا نستطيع أن ندفع عنا الشعور الذى كان ينسبه بعضنا لبعض ، وشعورنا بأن كلا منا ينتمى لجماعات ضيقة وقوية وبدائية ، تصنع أساطير ساحرة وتتغذى بالخطأ وتفرض علينا استبدادها . كنا مدلهين ومؤمنين ومرهفى الحس وكثيرى النقاش ننفر من الفوضى ونكره العنف والظلم . يوحدنا ويفصلنا الامتناع الضمنى بأن العالم قد خلق

---

(١) يقصد البانثيون (المترجم) .

(٢) The right man in the right place

لأستعمالنا ، وبأن أهلنا هم أفضل الأهل قاطبة . كنا نحرص على عدم إهانة أحد ، وأن نبقى مجاملين حتى فى ألعابنا . كانت السخرية والمزاح ممنوعين بتاتا . وإذا ثار أحدنا كانت الجماعة كلها تلتف حوله وتهدئه وتضطره إلى الاعتذار ، كما لو كانت أمه بنفسها هى التى تبكته بلسان جان مالنكان أو نوربير مير . وعلى أى حال فإن كل أولاء السيدات كن يعرفن بعضهن بعضا ، وكن يعاملن بعضهن بعضا معاملة قاسية . كن ينقلن لبعضهن البعض أحاديثنا ونقدنا وأحكام كل منا على الجميع . أما نحن الأبناء فكنا نخفى بعضنا عن بعض أحاديثهن . وعادت أمى غاضبة من زيارة للسيدة مالنكان لأنها قالت لها بكل صراحة : « إن أندريه يجد أن بولو مدع . » ولم يكدرنى هذا الرأى : هكذا تتكلم الأمهات فيما بينهن ؛ ولم أحقد أبدا على أندريه ولم أقل له كلمة عن هذا الموضوع . كنا بالاختصار نحترم العالم كله، الأغنياء والفقراء، الجنود والمدنيين ، الشباب والشيوخ، الناس والحيوانات. لم نكن نحتقر سوى تلاميذ القسمين نصف الداخلى والداخلى : لا بد أن يكونوا قد اقترفوا ذنوبا كبيرة مما جعل أسرهم تتركهم : ربما كان أهلهم سيئين ولكن ذلك لن يجدى شيئا : إن للأطفال الآباء الذين يستحقونهم . وفى المساء ، بعد الساعة الرابعة تصبح الليسيه مهلكة حين يغادرها تلاميذ القسم الخارجى .

وإن صداقات بهذا القدر من الحذر لا يمكن أن تقوم دون بعض الجفاء . وفى العطلة الصيفية كنا نفترق غير آسفين . ومع ذلك كنت أحب بركو . كان بمثابة أخ لى لأنه كان ابن أرملة . كان وسيما وضعيفا ورقيقا ؛ لم أكن أكف عن النظر إلى شعره الطويل وقد مشط على طريقة جان

دارك . ولـكن كان كلانا فخورا على الخصوص بأنه قرأ كل شيء ، وكنا ننتحى ركنا تحت القسم المسقوف من فناء المدرسة لنتـكلم فى الأدب ، أى نعاود مائة مرة ، وبسرور ـ عد المؤلفات التى تناولتها أيدينا . وذات يوم نظر إلى نظرة هوس وأسر لى أنه يريد أن يكتب . لقد التقيت به بعد ذلك فى الصف النهائى من القسم الثانوى ، وسيما كالعادة ولـكنه مصاب بالسل : وقد توفى فى الثامنة عشرة من عمره .

كنا جميعاً ، حتى بركو العاقل ، نعجب ببنار ، هذا الصبى المرتجف المستدير الذى كان يشبه الـكتـكوت . إن صدى مزاياه وصل إلى أسماع أمهاتنا فاستشعرن نحوه شيئاً من الغيرة ولـكنهن لم يـكن يـكففن عن تقديمه لنا مثلا يحتذى ، دون أن يصلن إلى جعلنا ننفر منه . وليحكم الناس على تحيزنا ، كان فى القسم نصف الداخلى وكنا نحبه لذلك أكثر ؛ فـكان فى نظرنا تلميذا شرفيا فى القسم الخارجى . فى المساء ، تحت المصباح العائلى كنا نفـكر فى هذا البشر الذى يبقى فى الغابة ليهدى أكلة اللحوم البشرية فى القسم الداخلى، وكان خوفنا يقل . ومن العدل أن نقول إن تلاميذ القسم الداخلى بالذات كانوا يحترمونه . ولم أعد أعرف بـكل وضوح أسباب هذا القبول الإجماعى . كان بنار رقيقا وبشوشا وحساساً وكان فوق ذلك الأول فى كل المواد . ثم إن أمه كانت تحرم نفسها من أجله . ولم تـكن أمهاتنا تعاشر هذه الخياطة ، ولـكنهن كن يحدثننا عنها كثيرا ليجعلننا نقدر عظمة حب الأم . لم نـكن نفـكر إلا فى بنار : كان شعلة هذه التعسة وبهجتها : كنا نقدر عظمة الحب البنوى . والخلاصة فإن الجميع كانوا يحنون على هذين الفقيرين الطيبين . ولـكن ذلك لم يـكن يـكفى .

والحقيقة أن بنار كان يحيى نصف حياة : فأنا لم أره أبدا بدون كوفية غليظة من الصوف. كان يبتسم لنا بلطف ولـكنه كان قليل الـكلام، وأذكر أنه منع من اللعب معنا . وكنت من ناحيتى أجله بقدر ما كان ضعف صحته يبعده عنا. لقد وضعوه خلف الزجاج. كان يحيينا ويرسل لنا إشارات خلف زجاج النافذة ، ولـكننا لم نـكن نقترب منه . كنا نحبه من بعيد لأنه وهو حى كانت له أثيرية الرموز. إن الطفولة تتمسك بالعرف والتقاليد، وكنا نعترف له بجميل دفعه الـكمال إلى حد التجريد . وإن تحـدث إلينا امتلأنا سروراً من كلامه الذى لا دلالة له . لم نره ساخطا قط ولا مبتهجا أكثر مما يجب . وفى الفصل لم يرفع إصبعه قط ، ولـكن عنـدما كان يسأل كانت الحقيقة تتكلم بلسانه ، بلا تردد ولا جهد ، تماما كما يجب أن تتكلم الحقيقة . كان يثير دهشة شلتنا المـكونة من أطفال نبغاء لأنه كان الأفضل دون أن يكون نابغا . فى ذلك الوقت كنا جميعا تقريبا يتامى الأب. لقد مات هؤلاء السادة ، أو كانوا فى جبهة القتال ، ومن بقى على قيـد الحياة ، وقد قل شأنهم ونقصت رجولتهم — كانوا يعملون على أن ينساهم أبناؤهم . كنا فى عهـــد الأمهات ، كان بنار يعكس لنـا الفضائل السلبية لسلطة الأم .

وقد توفى فى آخر الشتاء. إن الأطفال والجنود لا يهتمون قط بالموتى. ومع ذلك كنا أربعين ننتحب خلف نعشه . كانت أمهاتنا ساهرات : لقد غطيت الهوة بالزهور وقد اجتهدن فى أن يجعلننا نعتبر هذا الموت جائزة إضافية فى حسن السلوك والاجتهاد ، أعطيت أثناء العام الدراسى . ثم إن بنار كان يعيش قليلا ، بحيث أنه لم يمت حقيقة . لقد ظـل بيننا وجوداً

منتشراً ، فى كل مكان ، ومقدسا . لقد قفزت حكمتنا قفزة : فأصبح لدينا فقيد عزيز ، كنا نتحدث عنه بصوت خفيض وسرور حزين . فلربما نختطف مثله قبل الأوان . كنا نتخيل دموع أمهاتنا وكنا نشعر بأننا عزاز. هل كنت أحلم مع ذلك ؟ إنى احتفظ فى غموض بذكرى حقيقية غاية فى القسوة هى أن هذه الخياطة ، هذه الأرملة ، قد فقدت كل شىء . هل حقا انقبض صدرى رعبا من هذه الفكرة ؟ هل استشففت الشر ، وغياب الله وعالما غير مسكون ؟ أظن ذلك : ولماذا ؟ لو لم يحدث هذا الأمر لما احتفظت صورة بنار بوضوحها المؤلم فى طفولتى المنكرة ، المنسية الضائعة .

وبعد ذلك ببضعة أسابيع كان الفصل (أ) أول من الصف الخامس مسرح حدث غريب : ففى أثناء درس اللاتينى فتح الباب ودخل بنار وبجانبه حارس البوابة ، وحيا السيد دورى معلمنا وجلس . لقد عرفنا جميعا نظارته الحديدية وكوفيته وأنفه المحدوب قليلا ومظهره الذى يشبه الكتكوت البردان واعتقدت أن الله قد رده لنا . وبدا على السيد دورى أنه يشاطرنا دهشتنا : فقد توقف عن الكلام وأخذ نفسه بقوة وسأل عن « اسم العائلة والاسم ونوع القيد ومهنة الوالدين » وأجاب بنار أنه نصف داخلى وابن مهندس وأنه يدعى بول أيف نزان . كنت أشد أقرانى دهشة . وفى الفسحة عرضت عليه صداقتى ، فقبلها : وارتبطنا . ولكن هناك تفصيلا جعلنى أشعر بأننى لست أمام بنار ولكن أمام صورته الشيطانية : إن نزان كان أحول . ولكن فات وقت أخذ هذا العيب فى الاعتبار : لقد أحببت فى هذا الوجه تجسيد الخير ؛ وانتهى بى الأمر بأن أحببته لنفسه . ووقعت فى الفخ ، إن ميلى للفضيلة قادنى إلى التعلق بالشيطان. وفى الحقيقة

إن بنار المتحل لم يكن شريراً ... إنه كان حيا ، هذا كل ما فى الأمر . كانت له كل صفات شبيهه ، ولكنها ذابلة . إن تحفظ بنار كان يتحول فيه إلى مواربة ؛ فإذا سحقته انفعالات عنيفة وسلبية فإنه لم يكن يصرخ ، ولكنا رأيناه يبيض من الغضب ويتمتم : إن ما كنا نأخذه على أنه عذوبة لم يكن إلا شللا مؤقتاً ؛ لم تكن الحقيقة هى التى تخرج من فمه ولكن لون من الموضوعية الوقحة والخفيفة ، التى كانت تضايقنا لأننا لم نكن قد ألفناها . وعلى الرغم من أنه كان يعبد والديه بالطبع فإنه كان الوحيد الذى يتكلم عنهم بسخرية . وفى الفصل كان أقل لمانا من بنار ؛ ولكنه كان قد قرأ كثيراً ويتمنى الكتابة . وبالاختصار كان شخصا كاملا . ولم يكن يدهشنى شىء أكثر من أن أرى شخصاً فى ملامح بنار . ولما كان هذا التشابه متسلطا على فإنى لم أكن أعرف قط إن كان يجب أن أمدحه لأنه يقدم مظهر الفضيلة أو أقدحه لأنه ليس لديه إلا هذا المظهر . وكنت إنتقل بلا انقطاع من الثقة العمياء إلى عدم الثقة غير المعقولة . ولم نصبح أصدقاء بمعنى الكلمة إلا بعد ذلك بوقت طويل ، وبعد فراق طويل . »

وخلال سنتين أوقفت هذه الأحداث وهذه الالتقاءات اجتراراتى ، دون أن تلغى السبب . والواقع أن شيئا لم يتغير من حيث العمق : وأن هذه الرسالة التى أودعها فىّ الكبار داخل ظرف مختوم ، لم أعد أفكر فيها ولكنها كانت باقية . لقد استولت على شخصى . وفى التاسعة من عمرى كنت أراقب نفسى حتى فى أشد حالات اندفاعاتى : وفى العاشرة تواريت عن نظرى . كنت أعدو مع بران وأتحدث مع بركو ونيزان . وفى هذه

الأثناء تركت رسالتي الزائفة لذاتها ، فتجسدت وسقطت آخـــر الأمر في ليلي ؛ ولم أعد أراها . لقد صنعتني ، وكانت تمارس قوة جاذبيتها على كل شيء ، فتلوى الأشجار والجدران وتقوس السماء فوق رأسي وكنت قد خلت نفسي أميراً وكان ذلك جنوني . وقال أحـــد المحللين النفسيين من أصدقائي إنني مصاب باضطراب في طبعي ، وهو على حق . فبين صيف سنة ١٩١٤ وخريف سنة ١٩١٦ أصبحت رسالتي هي طبيعتي ؛ لقد ترك هذياني رأسي ليسيل في عظامي .

لم يحدث لي شيء جديد : لقد عثرت على ما قمت بتمثيله وتنبأت به سالماً صحيحاً مع هذا الاختلاف الوحيد : أنني بلا معرفة وبلا كلمات وبلا تبصر حققت كل شيء . وكنت من قبل أتصور حياتي في صور : فكان موتي يسبب مولدي ، وكان مولدي يلقي بي إلى موتي ؛ وما أن أعدل عن رؤيتها حتى أصبح أنا نفسي هذه المبادلة . وشددت حتى التمزق بين هذين الطرفين أموت وأحيا عنـــد كل خفقة قلب . وأصبحت آخرتي المستقبلة مستقبلي الملموس . كانت تضرب كل لحظة عبث ، وكانت في مركز أعمق انتباه — شروداً أعمق ، وفراغ كل كمال ، واللاواقع الخفيف للواقع . كانت تميت من بعيد طعم الحلوى في فمي ، والأحزان والأفراح في قلبي ؛ ولـكنها كانت تنقذ أكثر اللحظات بطلانا بهذا السبب الوحيد وهو أنها كانت تأتي أخيرا وكانت تقربني من آخرتي . لقد اعطتني الصبر على الحياة : فلم أعد قط أتمنى أن أقفز عشرين سنة ، وأن أتصفح عشرين سنة أخرى، ولم أعد أتصور الأيام البعيدة لانتصاري ؛ وانتظرت. وفي كل دقيقة كنت أنتظر الدقيقة القادمة لأنها كانت تشد إليها الدقيقة التي تليها . وعشت هادئا في

العجلة القاسية ، متقدما دائما على نفسى . كان كل شىء يستغرقنى ، ولاشىء يوقفنى . يا له من انفراج ففى الماضى كانت أيامى تتشابه إلى الحد الذى كان يجعلنى أسأل نفسى أحيانا إن لم يكن قد حكم على أن أكابد العودة الأزلية لليوم نفسه . ولم تتغير أيامى كثيراً . وقد احتفظت بعادة السقوط الذميمة وهى ترتجف ؛ أما أنا فقد تغيرت فيها : فلم يعد الزمن هو الذى يفيض على طفولتى الجامدة ، وكنت أنا ، السهم المرشوق بناء على أمر ، الذى يثقب الزمن ويعرق رأسا إلى الهدف . وفى سنة ١٩٤٨ ، فى مدينة أوترفت ، أرانى الأستاذ فان لنب اختبارات إسقاطية . واسترعت إحدى اللوحات انتباهى : فقد رسم عليها جواد يعدو ورجل يمشى ونسر يحلق وزورق بمحرك يطفر ؛ وكان على المختبر أن يشير إلى الرسم الذى يعطيه أكبر شعور بالسرعة ، فقلت : « إنه الزورق » . ثم نظرت بفضول إلى الرسم الذى فرض نفسه بهذه الشراسة ؛ كان الزورق يبدو أنه ينسلخ عن البحيرة ، وأنه بعد لحظة سوف يحلق فوق هذا الجمود المتموج . وظهر لى سبب اختيارى فى الحال : ففى العاشرة من عمرى بدا لى أن صدرى يشق الحاضر وينتزعنى منه ؛ وجريت منذ ذلك الحين ، ومازلت أجرى . إن السرعة لا تقدر فى نظرى بالمسافة المقطوعة فى مدة معينة من الزمن ، قدر تقديرها بطاقة الانتزاع .

منذ أكثر من عشرين سنة بينما كان جيا كوميتى يعبر ميدان إيطاليا[1] ذات مساء صدمته سيارة فأصيب بجرح والتوت ساقه . وفى الاغماءة

(١) أحد ميادين باريس . (المترجم)

الجلية التى راح فيها شعر أولا بنوع من البهجة : « أخيراً شىء ما حدث لى ! » إنى اعرف تطرفه : إنه كان ينتظر الأسوأ ، إن هذه الحياة التى كان يحبها إلى الدرجة التى لم يكن يتمنى معها حياة اخرى — كانت حياة مقاوبة ، وربما محطمة بحماقة عنف الصدفة . وكان يقول لنفسه « لم أخلق إذن لأنحت ولا حتى لأعيش ، لم أخلق لشىء » إن ما كان يحمسه هو نظام السببية المهدد عندما يرفع عنه القناع فجأة وأن يحرق فى أضواء المدينة وفى الناس وفى جسمه هو نفسه وقد تلطخ بالوحل بتلك النظرة المحجرة كـكوارث الطبيعة . وبالنسبة للنحات فإن سيطرة المعادن ليست بعيدة أبداً . إنى اعجب بإرادة تقبل كل شىء هـــذه . وإن كنا نحب المفاجاءات فيجب أن نحبها حتى ذلك الحد ، حتى ذلك الحد ، حتى ومضاتها النادرة التى تـكشف للهواة أن الأرض لم تخلق لهم .

وفى العاشرة من سنى كنت أدعى أننى لا أحب غير المفاجئات كان على كل خيط فى نسيج حياتى أن يـكون غير متوقع وأن تنبعث منه رائحة الطلاء الجديد . كنت أقبل مقدما الظروف الطارئة والعوارض ، وكى أكون عادلا يجب أن أقول إنى كنت أقبلها قبولا حسنا . وذات مساء انطفأت الـكهرباء بسبب عطل؛ونادانى أحدهم من غرفة أخرى وتقدمت فاتحا ذراعىفاصطدم رأسى بمصراع باب، وكانت الصدمة قوية بحيث كسرت سنا من أسنانى . وألهانى هذا الحادث وضحكت له على الرغم من الألم ، كما سوف يضحك جيا كومتى بعد ذلك لساقه ، ولـكن لأسباب مناقضة على خط مستقيم . ولما كنت قد قررت مقدما أن تـكون لقصتى نهاية سعيدة ، فإن غير المتوقع لا يمـكن أن يكون سوى خديعة ، والجدة لا يمكن

أن تـكون سوى مظهر . إن احتياج الشعوب ، سوى كل شيء عندما جعلني أولد ؛ ورأيت في هذه السن المكسورة علامة ... تنبيها غامضا سوف أفهمه فيما بعد . وبعني آخر كنت أحفظ نظام الغايات في كل ظرف وبأى ثمن . كنت أنظر إلى حياتي خلال موتي وكنت لا أرى سوى ذاكرة مقفولة لا يستطيع شيء أن يخرج منها أو يدخل فيها . هل يتصور أحد أمني ؟ إن الصدف لا وجود لها : ولم أكن أتعامل إلا مع ما تقلده من الأشياء تقليدا صادرا عن العناية الإلهية . كانت الصحف تلق في الروع أن قوى مشتتة تجول في الطرقات وتحصد صغار الناس . أما أنا المختار فإني لن التقي بها . ربما فقدت ذراعا أو ساقا أو عيني . ولـكن كل شيء كان في الطريقة : إن مصائبي لن تـكون أبدا سوى محن ، سوى وسائل لعمل كتاب . تعلمت أن أتحمل الأحزان والأمراض . رأيت فيها بواكير موتي الانتصارى ، والدرجات التي ينحتها ليرفعني إليه . إن هذه العناية الفظة بعض الشيء لم أكن أستقبحها وكنت أعني بأن أظهر جديرا بها . كنت أعتبر الأسوأ شرط الأفضل . إن أخطائي نفسها كانت تفيد ، وهذا يعني أنني لم أكن أقترف أخطاء . ففي العاشرة من عمري كنت واثقا من نفسي . ولما كنت متواضعا وغير محتمل ، فقد كنت أرى في هزائمي شروط نصري بعد المات . وسواء كنت كفيفاً او مقعداً ، تضللني أخطائي ، فإني سوف أكسب الحرب من كثرة خسارة المعارك . لم أكن أفرق بين المحن المخصصة للمختارين والفشل الذي كنت أحمل مسئوليته. إن ذلك يعني ان جرائمي كانت تبدو لي في الواقع تعاسات ، وأنني كنت أطالب ببلاياى كأنها أخطاء ، والواقع أنني كنت لا أستطيع ان أمرض

سواء كانت الحصبة أو الزكام دون أن أعلن أننى مذنب : لقد أهملت الوقاية ونسيت أن أرتدى معطفى وكوفيق . وفضلت دائما أن أتهم نفسى على اتهام الكون ؛ لا عن سلامة قلب ، ولكن كى لا أكون متعلقا إلا بنفسى. إن هذا التكبر لم يكن يمنع التواضع ، كنت أعتقد طوعا أنى كنت عرضة للخطأ بقدر ما كان ضعفى أقصر طريق طبيعى للخير ، وكنت أرتب أمرى لأشعر فى حركة حياتى بجاذبية لا تقاوم كانت لا تنقطع فى إجبارى ، حتى على الرغم منى ، على تحقيق تقدم جديد .

إن كل الأطفال يعرفون أنهم يتقدمون . وعلى كل فإنه لا يسمح لهم بأن يجهلوا ذلك : « من تقدم يجب أن ينتقل إلى تقدم آخر ... تقدم جاد منتظم ... » إن الكبار يقصون علينا تاريخ فرنسا : فبعد الجمهورية الأولى ، هذه الجمهورية غير الأكيدة جاءت الجمهورية الثانية ثم الثالثة وهى الجمهورية الصحيحة : الثالثة ثابتة ! إن التفاؤل البورجوازى كان مجملا حينذاك فى برنامج الحزب الراديكالى[1] : وفرة متزايدة فى الخيرات ، وإلغاء الفقر بمضاعفة المعارف ، وبالملكية الصغيرة . أما نحن السادة الشبان فقد وضعوا هذا التفاؤل فى متناولنا . واكتشفنا ، راضين ، أن تقدمنا الفردى كان يصور تقدم الأمة . ومع ذلك فإن الذين كانوا يريدون أن يرتفعوا فوق آبائهم كانوا ندرة . فبالنسبة للأغلبية لم يكن يهمهم إلا الوصول إلى سن الرجولة ؛ ثم يتوقفون عن أن يكبروا وينموا ؛ إن العالم حولهم هو الذى يصبح تلقائياً أفضل وأكثر راحة . إن بعضنا كان ينتظر هذه

(١) حزب فرنسى تأسس بعد إعلان الجمهورية الثالثة وهو حزب الاحرار المتطرفين. (المترجم)

اللحظة بفروغ صبر ، والبعض فى خوف وآخرون فى أسف . أما أنا فقبل أن أنذر كنت أكبر فى عدم المبالاة: كنت لا أكترث بالثوب الأبيض[1] كان جدى يجدنى قصيراً جداً ويبدى أسفه على ذلك . وكانت جدتى تقول له لتغيظه : « سوف يكون له قوام عائلة سارتر » . وكان جدى يتظاهر بأنه لم يسمع ، وكان يقف أمامى ويقيسنى ، ثم يقول أخيراً دون اقتناع كبير « إنه ينمو ! » ولم أكن أشاطره لاقلقه ولا آماله : إن الأعشاب المضرة تنمو هى أيضا ؛ وهذا برهان على أن المرء يمكن أن يصبح طويلا دون أن يكف عن أن يكون شريراً . وكانت مشكلتى آنذاك أن أكون خيرا إلى ما شاء الله . وكل شيء تغير حينما أسرعت حياتى : فلم يعد يكفى أن أفعل الخير ،كان يجب أن أفعل الأحسن فى كل وقت . ولم يعد لى إلا قانون واحد : أن أتسلق . وكى أغذى مطامحى وكى أخفى شططها لجأت إلى التجربة المشتركة : ففى تقـــدم طفولتى التحير أردت أن أرى بوادر مصيرى. إن هذه التحسنات الحقيقية ولكن الصغيرة والعادية جدا أوهمتنى بأنى أختبر قوتى على الارتفاع . ولما كنت طفلا عاما ، فقد اتخذت علنا أسطورة طبقتى وجيلى : إننا نستفيد من المكتسب ونستثمر التجربة ، ويثرى الحاضر بالماضى كله . وفى الوحدة كنت بعيدا عن أن أرضى بها . لم أكن أستطيع أن أقبل أننا نستقبل الوجود من الخارج ، وأنه يحفظ نفسه بالقصور الذاتى ، ولا أن حركات النفس هى نتائج حركات سابقة . ولما كنت قد ولدت من انتظار مستقبل فإننى كنت أثب متوهجا بكليتى ، وكانت كل لحظة تكرر حفلة مولدى . كنت أريد أن أرى فى انفعالات

---

(١) ثوب كان يرتديه أبناء الأسر النبيلة الشبان فى روما القديمة (المترجم)

قلبي أزيز شرارات . لم أثرانى الماضى إذن ؟ إنه لم يصنعنى ، وعلى العكس ، كنت أنا المنبعث حيا من رمادى الذى ينتزع من العدم ذاكرتى بخلق يتكرر دائما . كنت أولد من جديد أفضل مما كنت ، وكنت أستخدم الدخائر الجامدة لروحي استخداما أحسن . ذلك أن الموت كلما اقترب منى كان يزيدنى نورا بضوئه المعتم . وكثيرا ما كان يقال لى : إن الماضى يدفعنا ، ولكنى كنت واثقا من أن المستقبل يشدنى . كنت أكره أن أشعر فى نفسى بقوى رقيقة وهى تعمل ، وبتفتح استعدادى البطىء . لقد دسست تقدم البورجوازيين المتصل فى نفسى ، وجعلت منه محركا ذا اشتعال داخلى ؛ وهبطت بقيمة الماضى أمام الحاضر . والحاضر أمام المستقبل ، وحولت التطورية هادئة إلى كوارث ثورية متقطعة . لقد لفت نظرى منذ بضع سنوات إلى أن شخصيات مسرحياتى ورواياتى يتخذون قراراتهم فجأة وفى نوبة ، وأنه تكفى لحظة مثلا كى ينجز أورست فى مسرحية « الذباب » تحوله . ذلك أننى أصنعهم على صورتى ؛ لا كما أنا بالفعل بلا شك — ولكن مثلما كنت أريد أن أكون .

أصبحت خائناً وظللت كذلك . وعبثاً حاولت أن أضع نفسى كاملا فيما أقوم به . أن أهب نفسى بلا تحفظ للعمل وللغضب وللصداقة . سوف أنكر نفسى بعد لحظة .. إنى أعلم ذلك وأريده ، وها أنا ذا أفضح نفسى ، وأنا فى وقدة انفعالى بسعادة الشعور بخيانتى المستقبلة . وبالجملة فانى أوفى بتعهداتى كغيرى : ولما كنت ثابتاً فى عواطفى وفى سلوكى ، فإنى غير مخلص لانفعالاتى : وجاء وقت كان فيه آخر ما أشاهد من آثار ولوحات ومناظر طبيعية هو دائما أجمل ما أرى .. كنت أغضب أصدقائى حين كنت

أثير فى وقاحة أو فقط فى طيش — ذكرى مشتركة قد تظل عزيزة عليهم. لأقنع نفسى بأننى قد تخلصت منها . ولأنى لم أحب نفسى بما يكفى فقد هربت إلى الأمام . والنتيجة أننى أحب نفسى أقل مما كنت أفعل ، وأن هذه المتوالية التى لا ترحم ما فتئت تحط من قيمتى باستمرار أمام نفسى . لقد أسأت التصرف أمس لأنه كان أمس ، وأحس اليوم الحكم القاسى الذى سوف أصدره على نفسى غدا . لا اختلاط بلا نظام على الأخص . أنى أمنع ماضى من الاقتراب منى . فالمراهقة وسن النضوج وحتى السنة التى ولت توا ، سوف تكون دائماً العهد القديم . إن العهد الجديد يعلن عن نفسه فى الساعة الحاضرة ولكنه لا ينشأ أبدا . غدا الحلاقة مجانا !! لقد شطبت على الخصوص سنواتى الأولى : وحين بدأت هذا الكتاب قضيت وقتا طويلا لأفك رموزها تحت الشطب . وعندما كنت فى الثلاثين من عمرى ، كان بعض الأصدقاء يقولون لى فى دهشة : « يبدو أنه لم يكن عندك أهل ولم تكن لك طفولة : » وكنت أسر لذلك عن جهل . ومع ذلك فانى أحب وأحترم الإخلاص المتواضع والراسخ الذى يكنه بعض الناس وخاصة بعض النساء — لأذواقهم ولرغباتهم ولمشروعاتهم القديمة وللأعياد التى زالت . إنى أعجب بإرادتهم أن يظلوا كما هم وسط التغير وأن ينقذوا ذاكرتهم وأن يحملوا فى الموت أول دمية وسن لبن وحب أول . لقد عرفت من بينهم رجالا ضاجعوا فى آخر حياتهم امرأة كبرت فى السن لهذا السبب الوحيد : أنهم اشتهوها فى شبابهم . ورجالا آخرين احتفظوا بالبغضاء نحو الموتى أو فضلوا المبارزة على الاعتراف بغلطة عرضية اقترفوها منذ عشرين سنة . أما أنا فلست حقودا وأعترف بكل

شيء في يسر : أنا موهوب فيما يختص بالنقد الذاتي على شرط ألا يسعى أحد إلى فرضه علي . وفي سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٤٥ ضايقوا الشخصية التي تحمل اسمي : فهل هذا يعنيني ؟ انى أقيد في حسابه المدين الاهانات التي قاساها . إن هذا الأبله كان لا يعرف حتى كيف يجعل الناس تحترمه . لقد قابلني صديق قديم ؛ وقص علي كربته . إن في نفسه شكوى منذ سبع عشرة سنة ؛ ففي ظرف معين أسأت معاملته . إني أكاد أذكر أنني كنت في ذلك الحين أدافع عن نفسي بشن هجوم مضاد ، وأني كنت آخذ عليه شدة حساسيته وجنون الاضطهاد عنده ، وبالاختصار إن لي روايتي الخاصة عن هذا الحادث : ولكن لم يزدني ذلك إلا حرارة في قبول روايته ، ووافقته على رأيه وحملت على نفسي : لقد تصرفت بغرور وبأنانية ،وليس لي قلب ؛ إنها مذبحة سارة : إني أتلذذ بصفائي ؛ إن اعترافي بأخطائي بهذا القدر من طيبة الخاطر ، برهان لي على أني لن أستطيع قط اقترافها . هل من يصدق أن إخلاصي واعترافي الكريم قد زادا الشاكي هياجا ؟ لقد كشفني . إنه يعلم أنني أستخدمه : إنه يحقد على أنا ، أنا حيا ، حاضرا وماضيا ، أنا نفسي الذي عرفه دائما . وتركت له جثة بلا حراك لسروري بأن أشعر بنفسي طفلا ولد توا . وانتهى بي الأمر بأن ثرت بدوري على هذا المائج الذي ينبش الجثث . وبالعكس لو حدث وذكرني أحدهم بظرف من الظروف لم أعبس فيه — كما قيل لي — فإني أكنس بيدي هذه الذكرى ؛ إنهم يعتقدون أني متواضع ، ولكن العكس هو الصحيح . إني أرى أنني سأفعل الأحسن اليوم والأكثر حسناً غدا . إن الكتاب في سن الكهولة لا يحبون أن يهنئوا تهنئة مؤكدة على أول عمل لهم

ولـكن أنا متأكد من أن هذه التهانى تسرنى أنا أقل من غيرى. إن خير كتبى هو الذى أقوم بكتابته الآن. ويأتى بعده توا آخر كتاب نشر لى ، ولـكننى أعد نفسى سرا لـكى أشمئز منه قريبا . ربما يسؤنى أن يجده النقاد اليوم رديئا ، ولـكن بعد ستة أشهر لن أكون بعيدا عن مشاطرتهم رأيهم. لا مانع لدى من أن يحكموا على هذا المؤلف بأنه فقير جداً وفارغ جداً ، بشرط أن يضعوه فوق كل ما كتبت من قبل . إنى أقبل أن تقل قيمة الحصة كلها على شرط المحافظة على الترتيب الزمنى ، وهذا وحده هو الذى يحفظ لى فرصة إجادة العمل غداً ، وإجادته أكثر بعد غد ، وأن أختم أعمالى بإحدى الروائع .

بيد أنى لست غرا : فأنا أرى جيدا أننا نكرر أنفسنا . ولـكن هذه المعرفة المكتسبة أخيراً جداً تأكل بداهاتى القديمة ، دون أن تبددها تماما . إن لحياتى بعض الشهود العبوسين الذين لا يسامحوننى فى شىء .. إنهم كثيراً ما يفاجئوننى وأنا أسقط من جديد فى نفس الدروب . ويقولون لى ذلك وأصدقهم ، ثم فى آخر لحظة أهنىء نفسى : فقد كنت أعمى بالأمس؛ إن التقدم الذى حققته اليوم هو إدراكى أنى توقفت عن التقدم. وأحيانا أكون أنا نفسى شاهد إثباتى . فقد يخطر ببالى مثلا أنى كتبت قبل ذلك بسنتين صفحة يمكن أن تفيدنى . وأبحث عنها ولا أجدها لحسن الحظ . فقد كنت سأدخل ، مدفوعا بالكسل ، خرقة قديمة فى مؤلف جديد . إننى اليوم أجيد الكتابة أكثر بكثير ... سوف أكتبها من جديد. وعندما أنتهى من عملى تضع الصدفة يدى على الصفحة الضائعة. يا للدهشة : ففى ما عدا بعض علامات الترقيم أجد أننى قد عبرت عن نفس

الفكرة بنفس العبارات . وترددت ، ثم ألقيت فى السلة بهذه الوثيقة البائدة ، واحتفظت بالرواية الجديدة : إن فيها شيئا لا أعرفه يعلبها على القديمة . وباختصار أسوى أمورى : فعندما تزول الغشاوة عن عينى أغش نفسى لأشعر ، على الرغم من التقدم فى السن الذى يضعضعنى ، بالنشوة الغضة لمتسلق الجبال .

وفى العاشرة من عمرى لم أكن أعرف بعد عاداتى المستهجنة وما أكره من كلمات ، ولم يكن الشك راودنى : وكنت أتوثب وأثرثر مأخوذا بما أشاهده فى الشارع ، ولم أكن أكف عن تجديد جلدى ، وكنت أسمع جلودى القديمة تتساقط بعضها على بعض . وحين كنت أصعد فى شارع سوفلو ، كنت أحس فى كل خطوة ، فى توارى واجهات العرض ، هذا التوارى المغشى للأبصار حركة حياتى وقانونها والترخيص الجميل لى بألا أكون وفيا لشىء . كنت أصحب نفسى بكليتى . إن جدتى تريد أن تجدد طقم المائدة ؛ فأصحبها إلى محل صينى وزجاج ؛ وتشير إلى صحفة حساء على غطائها تفاحة حمراء وإلى صحون محلاة بالأزهار . ليس هذا ماتريده تماما : فإن على صحونها توجد أزهار بالطبع ولكن توجد كذلك حشرات سمراء تتسلق السيقان بطولها . وتتحرك البائعة بدورها : إنها تعرف تماما ماتريده العميلة ، كان هذا الصنف عندها ولكن لم يعد يصنع منذ ثلاث سنوات ؛ إن هذا النموذج أحدث وأنفع ، ثم أليست الأزهار أزهارا سواء كانت بحشرات أو بدون حشرات ؛ إن أحدا لن يذهب إلى حد تقلية الصحن على رأى المثل ! ولكن جدتى ليست من هذا الرأى ، فتسأل ملحة : ألا يمكن أن نلقى نظرة على المخزن ؟ آه المخزن ؟ نعم بكل تأكيد

ولـكن لابد من الانتظار فالبائمة وحدها : فقد تركها مستخدمها فى التو .
وأودعونى ركنا وأوصونى بألا أمس شيئا ، ونسونى. وقد أرهبتنى الأشياء
القابلة للكسر التى تحيط بى والبريق المغبر وقناع بنسكال وهو ميت، ومبولة
على شكل رأس الرئيس فاليير . وعلى هذا ، فعلى الرغم من المظاهر فإنى
شخصية ثانوية مزورة . وهـكذا يدفع بعض المؤلفين بعض « النافع » إلى
مقدمة المسرح ويقدمون أبطالهم بسرعة فى نظرة جانبية ناقصة. إن القارىء
لايخطىء : فقد قلب صفحات الفصل الأخير ليرى إن كانت الرواية تنتهى
نهاية سعيدة ، هو يعرف أن الشاب الشاحب المسند إلى المدفأة فى جوفه
ثلاثمائة وخمسون صفحة . ثلاثمائة وخمسون صفحة من الحب والمغامرات .
كان لدى على الأقل خمسمائة صفحة . كنت بطل قصة طويلة بنهاية سعيدة.
لقد توقفت عن قص هذه القصة على نفسى : فما جدوى ذلك ؟ كنت أشعر
فى نفسى بأنى عاشق ، هذا كل ما فى الأمر. إن الزمن كان يشد إلى الخلف
السيدات المسنات وأزهار الصينى وكل الحانوت . إن الجونلات السوداء
تشحب الأصوات وتصبح قطنية . كنت مشفقا على جدتى ، فإننا لن نراها
بالتأكيد فى الجزء الثانى . وبالنسبة لى، فقد كنت البداية والوسط والنهاية
ملمومة فى طفل صغير جداً بلغ الشيخوخة فعلا ومات بالفعل، هنا فى الظل ،
بين أكوام الصحون المرصوصة الأعلى منه ، وفى الخارج بعيداً جداً فى
وضح شمس المجد الجنائزية ، كنت الذرة فى بداية مسارها وجلبة الموجات
التى تفيض عليها بعد اصطدامها بصدمات الوصول . فإذا ما جمعت نفسى
وأوثقتها لامسا بيد قبرى وباليد الأخرى مهدى ، فإنى كنت أشعر بنفسى
وجيزا وزاهيا ، شهاب خفّى مسحته الظلمات ..

ومع ذلك فإن الملل لم يغادرنى ؛ كان رزينا أحيانا ومقزا أحيانا أخرى ، كنت أخضع لأخطر اغراء حين لم يعد فى استطاعتى تحمله : لقد أضاع أورفيوس[١] أوريديس من قلة الصبر ؛ وكثيراً ما ضعت بسبب قلة الصبر . ولما كنت ضائعا من الفراغ ، كان يحدث أن ألتفت إلى جنونى فى الوقت الذى كان يجب أن أتجاهله : أن أضعه تحت المسندة وأن أثبت انتباهى على الأشياء الخارجية . وفى تلك اللحظات ، كنت أريد أن أحقق نفسى فى الحال ، أن أعانق بنظرة واحدة المجموع الذى كان متسلطا على فى الوقت الذى كنت لا أفكر فيه . ياللكارثة ! إن للتقدم والتفاؤل والخيانات السارة والغائية السرية ، كل ذلك قد أنهار مما كنت أضفته أنا نفسى إلى تنبؤ السيدة بيكار لقد ظل التنبؤ ولكن ما الذى أستطيع أن أعمله به ؟ إن هذا العراف الذى كان يريد أن ينقذ كل لحظات حياتى لم يكن محدد القول وكان يرفض أن يميز واحدة منها . إن المستقبل الذى جف بضربة واحـــدة لم يعد إلا هيكلا .. إنى أجد صعوبة وجودى وألاحظ أنها لم تتركنى قط .

ذكرى بلا تاريخ : إنى جالس على مقعد فى حديقة اللوكسمبورج : لقد توسلت إلى آن مارى فى أن أستريح بالقرب منها ، لأنى كنت أسبح فى عرقى من كثرة الجرى . ذلك هو على الأقل ترتيب الأسباب . وبلغ بى

(١) أكبر موسيقى العصور القديمة . عض الثعبان زوجته أوريديس يوم زفافها . ونزل أورفيوس الى الجحيم وسحر بموسيقاه الآلهة الذين أعادوا له زوجته بشرط ألا ينظر خلفه طالما هو فى جهنم . ولكن أورفيوس عصا الأمر ففقد زوجته إلى الأبد (المترجم) .

الليل حداً جعلني أتجرأ على تغيير هذا الترتيب . لقد جريت لأنه كان يجب أن أسبح في عرقي ولأعطى أبى فرصة استدعائي . كل شىء ينتهى إلى هذا القعد ، كل شىء يجب أن ينتهى إليه . ماهو دور هذا القعد ؟ إنى أجهله ولا أشغل بذلك أول الأمر : لن يضيع انطباع من جميع الانطباعات التي تمسنى ؛ هناك هدف : سوف أعرفه وأبناء أخوالي سوف يعرفونه . إنى أهز ساق القصيرتين اللتين لاتلمسان الأرض ، وأرى رجلا مارا يحمل صرة وأرى حدباء : إن ذلك سوف يفيد . وأردد فى انجذاب : « إنه من الأهمية بمكان أن أظل جالسا . » ويتضاعف الليل : لم أعد أتمالك نفسى فى المخاطرة بعينى : إنى لا أطلب إيحاءات مثيرة ولكنى أرغب فى أن أحدس معنى هذه الدقيقة ، أن أشعر بضرورتها ، وأن أتمتع قليلا بهذا الإلهام الغامض الحيوى الذى أسنده إلى موسيه وهوجو . بيد أنى لا ألمح إلا ضبابا . إن الطلب المجرد لضرورتى والإيحاء الإجمالى لوجودى يستمران جنبا إلى جنب دون أن يتقاتلا أو يختلط بعضهما ببعض . لم أعد أفكر إلا فى الهرب وإلا فى إيجاد السرعة الصماء التى كانت تحملنى : عبثا ؛ لقد قطعت اللذة . أشعر بتنميل فى ساقى وأتململ . وفى هذه اللحظة بالذات كلفتنى السماء برسالة جديدة . إنه من المهم جدا أن أستأنف الجرى . فاقفز على قدمى وانساب زاحفا ؛ والتفت عند نهاية الممر : لم يتحرك شىء ولم يحدث شىء وأخفى عن نفسى خيبة أملى بعبارات : إنى أؤكد أنه فى غرفة مفروشة بأورياك ، حوالى سنة ١٩٤٥ سوف يكون لهذا الجرى نتائج لاتقدر . وأعلن رضاى التام وأتحمس ؛ وكى أجبر الروح القدس ، ألعب عليه لعبة الثقة : وأقسم فى فورة الحماس أننى أستحق الفرصة التى

منحنى إياها . كل شيء يجرى على سطح الجلد تقريبا . كل شيء يجرى على مستوى الجلد تقريبا كل شيء يلعب على الأعصاب . إنى أعرف ذلك . قد هجمت أمى على، هاهو ذا الجرس المصنوع من الصوف، والكوفية، والمعطف: وأتركها تغطينى ، أنا صرة ! يجب على أيضا أن أتحمل شارع سوفلو وشارب البواب ، السيد تريجون وسعلات المصعد المائى . وأخيراً فإن المدعى الصغير المرزوء يجد نفسه فى المكتبة من جديد ، ويتحامل من كرسى إلى آخر ويقلب صفحات بعض الكتب ويلقى بها . وأقترب من النافذة وألمح ذبابة تحت الستارة وأطبق عليها فى فخ من الشاش ، وأوجه نحوها سبابة قاتلة . إن هذه اللحظة هى خارج البرنامج، مستخرجة من الوقت العادى وموضوعة جانبا ولا نظير لها ، وجامدة لن يخرج منها شيء هذا المساء ولا بعد ذلك، سوف تجهل أورياك دائما هذه الأبدية المضطربة . إن الانسانية نائمة ، أما عن الكاتب المشهور — هذا القديس الذى لن يؤذى ذبابة — فقد خرج توا . وحيدا وبلا مستقبل فى دقيقة راكدة وملوثة ، يريد الطفل من القتل أحاسيس شديدة ؛ فما أنهم يرفضون أن يعطونى مصير إنسان ، فسأكون مصير ذبابة . ولا أتعجل فإنى أترك لها الوقت لتحزر المارد الذى ينحنى عليها . أقدم إصبعى فتنفجر . لقد خدعت . ويحى ! كان يجب ألا أقتلها . كانت الكائن الوحيد الذى يخشانى من بين الخليقة كلها . لم يعد أحد يهتم بى . ولما كنت قاتل حشرات، فقد أخذت مكان الضحية وأصبحت حشرة بدورى. أنا ذبابة وقد كنتها دائما . وفى هذه المرة لمست القاع. لم يعد أمامى إلا أن آخذ من على المنضدة « مغامرات القبطان كوركوران » وأن أتهالك على السجادة وأن أفتح كيفما أتفق الكتاب الذى عاودت قراءته مائة مرة . إنى شديد التعب ، شديد الحزن بحيث لم أعد أشعر بأعصابى .

وأنسى نفسى منذ السطر الأول. إن كوركوران يضرب الطبول فى المكتبة الخالية ويتأبط بندقيته وعمرته تتبعه : إن أشجار الغابة تتهيأ بسرعةحولها. وعن بعد زرعت أشجاراً ، والقرود تقفز من غصن إلى آخر . وفجأة تأخذ النمرة لويزون فى الزئير ، ويتسمر كوركوران فى مكانه : هذا هو العدو . إن مجدى يختار هذه اللحظة المؤثرة ليعود إلى الأمية ، والإنسانية لتستيقظ مرتجفة وتستنجد بى ، والروح القدس ليهمس فى أذنى هذه الكلمات القلقة : « لو لم تجدنى لما بحثت عنى . » إن هـذا الملق سوف يضيع : ولا يوجد هنا أحد ليسمعها سوى الشجاع كوركوران . ودخل الكاتب الشهير وكأنه لم يكن ينتظر إلا هذا التصريح ؛ إن أحـد أحفاد أخوالى يميل برأسه الأبيض على تاريخ حياتى وتبلل الدموع عينيه. وينهض المستقبل ، ويلفنى حب لانهائى ، وأضواء تدور فى قلبى ، ولا أتحرك ولا أعطى نظرة للاحتفال . وأتابع قراءتى بكل عقل ، وينتهى الأمر بالأضواء أن تنطفىء . إننى لم أعد أحس إلا بإيقاع ، بدفع لا يقاوم . وأقلع... لقد أقلعت ! وأتقدم ... المحرك يهدر ! وأشعر بسرعة روحى .

هذه هى بدايتى : لقد هربت ، وشكلت قوى خارجية هروبى وصنعتنى. وخلال إدراك بائد للثقافة يظهر الدين الذى كان يستخدم نموذجا مصغراً . ولما كان طفليا فهو أقرب شىء للطفل . فقد كانوا يعلمونني التاريخ المقدس والإنجيل والتعليم الدينى دون أن يعطونى وسائل الإيمان . وكانت النتيجة بلبلة أصبحت نظامى الخاص . وحدث انطواء وانطلاق كبير ؛ ولما كان المقدس مأخوذاً عن الكاثوليكية فقد رسب فى الأدب ، وظهر الكاتب مسيحيا مصنوعا لم أكن أستطيع أن أكونه . كان الخلاص عمله الوحيد ، ولم يكن لإقامته على الأرض من هدف إلا أن يجعل مستحقا لسعادة بعـد

الموت بعجن يتحملها بجدارة . وتحول الموت إلى إحدى الشعائر العابرة ، وقدم الخلود الأرضى نفسه نائباً عن الحياة الأبدية . وليؤكدوا لى أن الجنس البشرى سوف يخلدنى فقد اعترفوا فى رأسى بأنه لن ينتهى . أن أموت فيه كان يعنى أن أولد وأن أصبح لا نهائيا . ولكن لو أبدوا أمامى افتراضاً بأن كارثة كونية قد تدمر الأرض فى يوم من الأيام ، ولو بعد خمسين ألف سنة ، فإنى أصاب بالهلع . واليوم أيضاً ، وقد زالت أوهامى، فإنى لا أستطيع أن أفكر بلا خوف فى خمود الشمس . وسيان عندى أن ينسانى أبناء جنسى غداة دفنى ؛ فلسوف أخالطهم طالما عاشوا ، دون أن يستطيع أحد أن يمسكنى ويسمينى ، وأكون موجودا فى كل منهم كما يوجد فى مليارات الموتى الذين أجهلهم ، والذين أحفظهم من العدم . ولكن إن حدث واختفت الإنسانية فإنها تميت موتاها حقيقة .

إن الأسطورة كانت غاية فى البساطة وقد هضمتها بلا تعب . ولما كنت بروتستانتيا وكاثوليكيا ، فإن تبعيتى الدينية المزدوجة كانت تمنعنى من الإيمان بالقديسين وبالعذراء وأخيرا بالله من كثرة ما كانوا ينادونهم باسمهم . ولكن قوة جماعية ضخمة نفذت فى ؛ وحين استقرت فى قلبى ، كانت تتحين الفرص ، لقد كانت إيمان الآخرين ؛ يكفى أن يتغير اسم هذا الهدف العادى ويعدل سطحه . لقد عرفه تحت التنكر الذى كان يخدعنى ، وألقى بنفسه عليه ، واحتواه فى مخالبه . كنت أعتقد بأنى أكرس نفسى للأدب فى حين أننى دخلت فى الحقيقة سلك الرهبنة . وفى تحول يقين المؤمن البالغ التواضع إلى البداهة المتكبرة لقدورى . ولم لا أكون مختارا وكل مسيحى يعتبر مختارا كذلك؟ ولقد نموت كعشب برى على سماد الكاثوليكية،

وكانت جذورى تمتص عصارتها وأصنع منها عصيرى . ومن هنا جاء هذا العمى الجلى الذى عانيت منه ثلاثين سنة. وذات صباح من سنة ١٩١٧ فى لا روشيل ، كنت أنتظر زملاء كانوا سيصحبونى إلى المدرسة ، وتأخروا ، ومالبثت أن عجزت عن ابتكار شيء يلهينى ، وقررت أن أفكر فى القوى العزيز . وفى الحال تدحرج فى زرقة السماء واختفى دون أن يعطى تفسيرا . قلت فى نفسى بدهشة أدب أنه غير موجود، واعتقدت أن الأمر قد سوى . لقد سوى من ناحية ما ، بما أننى منذ ذلك الحين لم أشعر بأى ترغبه فى بعثه. ولكن الآخر قد ظل : اللامرئى ... الروح القدس ، الذى كان يضمن رسالتى ويهيمن على حياتى بقوى كبيرة غفلة ومقدسة . لقد شفيت من التخلص منه بقدر ما كان قائما خلف رأسى فى المعانى المهربة التى كنت أستخدمها لأفهم نفسى ولأحدد موقعى وأبرر نفسى . ولمدة طويلة كانت الكتابة معناها أن أطلب من الموت ، من الدين المقنع أن ينتزعا حياتى من الصدفة . كنت من الكنيسة . ولما كنت مجاهدا ، فقد أردت أن أخلص نفسى بالأعمال . ولما كنت متصوفا ، فقد حاولت أن أكشف النقاب عن سكوت الكائن بحفيف مكدر من الكلمات ، وبخاصة ، فقد خلطت الأشياء بأسمائها: إنه الايمان. كانت على عينى غشاوة. وطالما بقيت، اعتبرت نفسى متخلصا من ورطة . ونجحت فى سن الثلاثين فى هذه الخبطة الطيبة : أن أكتب فى الغثيان[1] — بكل إخلاص ، يستطيع الناس أن يصدقونى — الوجود غير المبرر والمر لأبناء جنسى وأن أخرج وجودى من الموضوع . كنت روكونتان[2] ، كنت أرى فيه ، بلا مجاملة ، لحة

(١) أول رواية كتبها سارتر (المترجم)

(٢) أحد أبطال الغثيان (المترجم)

حياتي . وفى الوقت نفسه كنت أنا المختار ، مؤرخ جهنم ، جهاز التصوير المجهرى من الزجاج والصلب ، منحنيا على سوائلي البروتو بلازمية . وعرضت بعد ذلك بفرح أن الانسان محال . ولما كنت أنا نفسى محالا ، فإنى لم أكن أختلف عن الآخرين إلا بالوكالة الوحيدة لإظهار هذه الاستحالة ، التى كانت تتحول فى الحال وتصبح أخص إمكانياتي وموضوع رسالتي وحافز مجدى . كنت حبيس هذه البداهات ولكن لم أكن أراها : كنت أرى العالم خلالها ولما كنت مزورا حتى العظم ومخدوعا ، فقد كنت أكتب بسرور عن وضعنا التعس ولما كنت عقائديا فقد شككت فى كل شيء عدا أنى موضوع اختيار الشك . كنت أصلح بيد ما كنت أخربه باليد الأخرى ، وكنت أعتبر القلق ضمانا لأمنى ، وكنت سعيداً .

لقد تغيرت . وسوف أحكي مستقبلا أى أحماض أكلت الشفافيات المشوهة التى كانت تكتنفنى ، ومتى وكيف تدربت على العنف واكتشفت بشاعتى — التى كانت زمناً طويلا مبدئى السلبي ، والجير الحي حيث ذاب الطفل العجيب . وبأى عقل استدرجت إلى التفكير المنهجي على الرغم منى ، إلى حد تقدير بداهة فكرة ، بالكرب الذى تسببه لى . إن الوهم الماضى تكسر إربا ؛ إن كلا من الاستشهاد والخلاص والخلود ينهدم ، لقد أصبح الصرح خرابا ، وأمسكت الروح القدس فى الأقبية وطردته منها ؛ إن الإلحاد مشروع قاس وطويل : وأعتقد أنى وصلت به إلى النهاية . إنى أرى بوضوح ، لقد تيقظت ، إنى أعرف واجباتي الحقيقية ، وأستحق بالتأكيد جائزة على اخلاصى للوطن ؛ فمنذ ما يقرب من عشر سنوات وأنا رجل يستيقظ وقد شفى من جنون طويل ومرير ورقيق ، وهو

لا يزال متحيرا ، لا يستطيع أن يتذكر دون أن يضحك ضلاله القديم ، ولم يعد يعرف ما يفعل بحياته . لقد عدت المسافر بلا تذكرة الذى كنته فى السابعة من عمرى : ودخل المفتش إلى ديوانى ، ونظر إلى ، نظرة أقل قسوة من الماضى . والواقع إنه لايطلب إلا أن يرحل ، وأن يتركنى أكمل الرحلة بسلام ؛ أن أعطيه حجة مقبولة، أية حاجة ، فإنه سيرضى بها . وإنى لا أجد مع الأسف أية حجة ، وفضلا عن ذلك فإنى لا أرغب حتى فى البحث عنها : سوف نمكث وجها لوجه وحدنا ، فى القلق حتى ديجون . حيث أعرف جيداً أن لا أحد ينتظرنى .

لقد تخليت عن سلطتى ولكن لم أترك ثوبى : إنى ما زلت أكتب . وما الذى يمكن عمله غير ذلك ؟

لا ينقضى يوم دون أن أخط سطراً(١) .

هذه عادتى ثم إنها مهنتى . لقد حسبت قلمى سيفا زمنا طويلا : وإنى أعرف الآن عجزنا . وهذا لايهم : إنى أؤلف وسوف أؤلف كتبا ، لابد من ذلك ، وإنه مفيد كذلك . إن الثقافة لا تنقذ شيئا ولا شخصاً ، إنها لا تبرر . ولكنها نتاج الإنسان : إنه يعكس نفسه عليها ويعرف نفسه بها؛ إن هذه المرآة الناقدة هى وحدها التى تقدم له صورته . وفضلا عن ذلك ، فإن هذا المبنى القديم المتداعى — خدعتى — هو كذلك خلقى : إن المرء يتخلص من مرض عصبى ولكنه لا يبرأ من نفسه . إن كل قسمات الطفل، وقد بليت ومسحت وأذلت وأهملت وكتمت ، قد ظلت عند الخمسينى .

---

(١) مثل لا تينى يذكره سارتر (المترجم)

إنها تتسطح فى أغلب الأحيان فى الظلام ، وتترصد : وفى أول لحظة عدم انتباه ، ترفع رأسها وتدخل فى وضح النهار تحت ثوب تنكرى . إنى أدعى بإخلاص أننى لا أكتب إلا لزمنى ، ولكنى أغتاظ من شهرتى الحالية . إنها ليست المجد ، بما أننى على قيد الحياة ، وهذا يكفى مع ذلك لتكذيب أحلامى القديمة ، حتى لو كنت لا أزال أداعبها سراً ؟ غير أن الأمر ليس كذلك تماما : لقد كيفتها على ما أعتقد : فبما أننى فقدت فرصى فى أن أموت مجهولا ، فإنى أغبط نفسى أحيانا على أنى أعيش مجهولا . فأنا جرزيليديس التى لم تمت . إن بارديان لا يزال يسكن فى وكذلك ستروجوف . إنى لا أتبع غيرهم وهم لا يتبعون إلا الله الذى لا أعتقد فيه. هل تفهم شيئاً من ذلك ؟ فمن ناحيتى أنا لا أفهم شيئا ، وإنى أسأل نفسى أحيانا ما إذا كنت ألعب لعبة الذى يخسر يربح ، وأجتهد فى أن أدوس آمالى الماضية لكى أعوض عن ذلك كله أضعافا مضاعفة . وفى هذه الحالة أكون فيلوكتيت(١) : ولما كان هذا العاجز عظيما ومنتنا فقد أعطى حتى قوسه بلا شرط : ولكننا فى الخفاء نستطيع أن نتأكد أنه ينتظر جزاءه .

ولنترك ذلك . إن أمى تقول فى ذلك :

« مروا أيها الفانون ولا تلحوا . »

---

(١) قائد أغريقى اشترك فى حصار طروادة وقد أعطاه هرقل سهامه المسمومة . وفى طريقه إلى طروادة عضه ثعبان وفاحت من جرحه رائحة كريهة اضطرت زملاءه إلى تركه فى جزيرة لمنوس حيث مكث عشر سنوات . وجاء أوليس وديوميد لاحضاره من هذه الجزيرة، ذلك لأن هاتفا إلهيا كان قد أعلن أن طروادة لن تسقط إلا بسهام هرقل (المترجم) .

إن ما أحبه في جنوني هو حمايته لي منـــذ أول يوم من اغراءات « النخبة » : لم أعتقد أبداً بأنني صاحب «ملـكة» سعيد ، إن همي الوحيد هو أن أخلص نفسي — خالي اليدين وفارغ الجيوب — بالعمل والإيمان. ومع ذلك فإن اختياري الصافي لم يرفعني فوق أحـــد . وبدون معدات وأدوات أخذت أعمل بكليتي كي أخلص نفسي كليا . وإذا كنت أضع الخلاص المحال في مخزن اللواحق ، فماذا يتبقى ؟ إنسان بكله مصنوع من كل الناس ، يساويهم جميعا ، وأي واحد يساويه .

التصميم الاساسى للغلاف: أسامة العبد

الإشراف الفنى: حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة